القراءة للجميع
٢٠٠٥
مكتبة الأسرة

سلسلة العلوم الاجتماعية

عمائم وطرابيش

مصريون عاشوا فى باريس

د. سعيد اللاوندى

عمائم وطرابيش

مصريون عاشوا فى باريس

د. سعيد اللاوندى

القراءة للجميع
٢٠٠٥
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة

سوزان مبارك

المشرف العام

د. ناصر الأنصارى

الإشراف الطباعى

محمود عبد المجيد

الغلاف والإشراف الفنى

صبرى عبد الواحد

ماجدة عبد العليم

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصدير

تدور أحداث كتاب «عمائم وطرابيش» فى عاصمة «فرنسا»، «باريس» التى لا تنام.. المدينة الجميلة، الذكية، العالمة، اللعوب، الصادقة ذات الجد والوقار، ذات الأسرار، الصريحة، الماكرة. مثلها مثل الأرض وطبقاتها التى تكونت فى مدى ملايين السنوات.

أما العمائم والطرابيش فهم المصريون الذين عاشوا فى باريس، تعلموا فيها ودرسوا فى جامعاتها وتأثروا بها وأثّروا فيها. اختار د. سعيد اللاوندى منهم اثنى عشر، لهم فى حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية بصمات واضحة وهم: «زكى مبارك»، «محمد لطفى جمعة»، «لويس عوض»، «أحمد ضيف»، «محمد صبرى»، «مصطفى كامل»، «سلامة موسى»، «أحمد شوقى»، الشيخ «مصطفى عبدالرازق»، «طلعت حرب»، «عبدالرازق السنهورى»، الشيخ «محمد عبده».

وقصة هذا الكتاب كما يرويها د. سعيد اللاوندى، أنه عندما سافر إلى فرنسا طلبًا للعلم كان فى حاجة إلى أستاذ «بوصلة» يوجهه الوجهة الصحيحة وتربط بينهما ـ الأستاذ والتلميذ ـ علاقة صادقة وحميمة حيث لا يبخل الأستاذ بالنصح والإرشاد ويكون فى الوقت ذاته الملاذ الذى يهرع إليه فى ليل الغربة الطويل، وعندما لم يجد المؤلف ضالته ولم يصادف ذلك الأستاذ، وجد فى عالم الكتب وما جمعه من وثائق عن أولئك الذين سافروا إلى باريس طلبًا للعلم

ما يغنيه عن «أستاذ» بعدما أصبح كل هؤلاء الرجال بالنسبة له «الأستاذ والملاذ» حتى إنه عندما كان يمر بالأماكن التى عاشوا فيها يشعر بوجودهم فيها، يشعر بضحكاتهم ومغامراتهم وجدهم وهزلهم حتى تحولت غربته إلى أنس وبهجة فأراد أن يشركنا بهجته وفخره بهؤلاء الرواد ذوى العقول المستنيرة، فكتب لنا هذا الكتاب الذى يحكى حياة كل منهم فى فرنسا، وما تعرضوا له من صعوبات وشظف فى العيش وضيق فى الموارد، وكفاحهم حتى نالوا الدرجات العلمية من جامعة السوربون أو غيرها، وعادوا إلى بلادهم يقدمون علمهم وخبراتهم - كل فى مجاله - من أجل رفعة شأن بلدهم حتى أصبحوا أعلامًا فى ميادين الفكر والأدب والسياسة.

ودكتور «سعيد اللاوندى» تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ١٩٧٧م، وحصل على دبلوم اللغة والحضارة الفرنسية ١٩٨١م، ودبلوم الدراسات العليا فى العلوم السياسية عام ١٩٨٢م، ودبلوم الدراسات العليا فى تاريخ الفلسفة عام ١٩٨٣م، ودكتوراه الدولة فى الفلسفة السياسية من جامعة السوربون عام ١٩٨٧م ومن مؤلفاته... مثقفون فى مهمة رسمية...، القرن (٢١) هل يكون أمريكيًا...، دولارات الإرهاب...

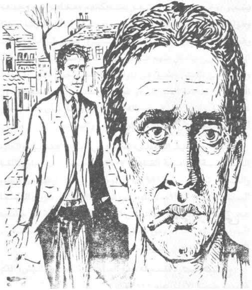
ومكتبة الأسرة تقدم له هذا العام «عمائم وطرابيش» الذى صدرت طبعته الأولى عام ٢٠٠٠م.

مكتبة الأسرة

◆ إهــــداء ◆

إلى زوجتي

صاحبتي



.. لهذا الكتاب قصة!

.. كان شعوري بما يشبه «الضياع» أو «الفرق» في دروب باريس، (وأزقتها وحواريها) هو دافعي الأول لكتابة هذه السطور.. فعندما يجد المرء نفسه في بلاد لا يعرف من لغتها إلا القليل، ويجهل عادات وتقاليد أهلها، ويسير في شوارعها فارغ الجيب والقلب، مُضطرب النفس خائفاً.. يتجه من فوره باحثاً عن ملاذ، يقيه شرور الغربة، والعوز..

هكذا كان حالي، وربما (أكثر دراماتيكية) في أوائل الثمانينات عندما وليت وجهي شطر بلاد الفرنجة لا أحمل في حقيبتي من (زاد وزواد) سوى بعض «القراقيش» الصغيرة، (وكام) قطعة جبن مع (دستة) من بيض البط الكبير.. حملتها جميعاً تحت الحاح ودموع أمي!.

وبدون ادعاء لبطولات (أو خوارق) مُزيفة لم يكن في جيبي سوى مائة جنيه مصري - أو مايعُادل وقتذاك خمسمائة وخمسين فرنكاً فرنسياً - وقاموس عربي/فرنسي، إلى جانب شهادتي الجامعية مع قائمة بالمواد التي درستها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية طوال مدة الدراسة.

لكن اصراري على خوض تجربة الغربة، والدراسة في جامعة السوربون (حلمي وحلم أبناء جيلي بتأثير الدكتور طه حسين طبعاً) كان يجعلني أنسى (أو أتناسى) ماقد أصادف من خطوب وأهوال.

.. فكان أن بدأت مشواري بالغوص في الأفكار الفلسفية الكبرى التي انكببت عليها في مؤلفات أستاذنا الدكتور عبدالرحمن بدوي، التي كانت تملأ المكتبات العربية في باريس في ذلك الوقت..

وأذكر أني - بتأثير قراءاتي للفيلسوف الألماني الأشهر نيتشه وماتحدث به اليه «الحكيم زرادشت» شعرت بأني أُولد من جديد.. وعرجّت بعد ذلك بالضرورة على شوبنهور الذي قرأت كل ماكُتب عنه في اللغة العربية (بمكتبة مركز جورج بومبيدو في حي ليهال الشهير).. وانتقلت الى عمانويل كانت، واسبينوزا، وأوجست كونت، وبرجسون، وباسكال، وجون بول سارتر..

وكانت محطتي الثانية في مؤلفات أستاذنا الدكتور زكريا ابراهيم وخصوصا سلسلة المشكلات.. (مشكلة الفلسفة، مشكلة الإنسان، مشكلة الفن، مشكلة الحياة.. الخ).

.. ووسط هذا الزخم الثقافي والفكري الذي أحطت نفسي به، شعرتُ لأول وهلة بأني في حاجة الى أستاذ (بوصلة) يُوجهني الوجهة الصحيحة.

.. وعمّقت هذه الحاجة عندى، قراءاتى "لحاورات أفلاطون" التى نصحنى استاذى فى جامعة السوربون بقراءتها باللغة الفرنسية، لأنها كشفت لى - من بين ماكشفت - عن خلة الوفاء التى لولاها، لما حدثنا افلاطون عن فكر استاذه سقراط.. ذلك الأستاذ الذى كان يُبعثر فكره فى الأرجاء غير عابئ بتدوينها.. مُكتفيا بتعليم الناس الفضائل فى الأسواق، وعلى قارعة الطريق.

.. ومازلت اعتقد أن اعتزاز افلاطون (التلميذ) بسقراط (الأستاذ) وإخلاصه الشديد له ولفكره، هو الذى جعله يتذكر كل ما سمعه منه، وليكتبه لنا - بعد ذلك - فى محاوراته التى يتحدث عنها دارسو الفلسفة بقولهم: «يقول أفلاطون على لسان سقراط»..

مايعنينى فى هذه الحكاية هو العلاقة الصادقة، والحميمة التى كانت تربط التلميذ بالاستاذ.. فوددت من كل قلبى أن أجد-مثل هذا الأستاذ الذى لا يبخل علىّ - بحُكم استاذيته - بالنصح والارشاد، ويكون فى ذات الوقت الملاذ الذى أهرع اليه فى ليل الغربة الطويل.

وها أنذا اليوم أتذكر بأسى بالغ أننى ظللت أبحث عن هذا (الملاذ) أسابيع وشهورا.. وصادفنى أساتذة كثيرون (أو بالأحرى من ظننت أنهم اساتذة)، فكانت فجيعتى فيهم كبيرة، لأنهم كانوا يفتقرون لكل صفات (الأستاذ).

.. وعفوا إذا قلت إن حالى فى هذه اللحظة، كان أشبه بحال (الخليل ابراهيم) عليه السلام، الذى أمضى وقتاً طويلاً قلقاً حائراً، يُقلب وجهه فى السماء باحثاً عن الحقيقة التى إذا ظهرت لا تغيب.. فكان أن تبدلت فرحته (بالقمر، وبالشمس، وبأشياء أخرى كثيرة ظهرت ثم اختفت) الى حُزن كبير أفسد عليه حياته..

* * * *

.. وأنكر أنى صادفت أستاذا من (سوريا)، ظننته الملاذ الذى سوف يحمينى من نفسى ومن مفاجآت الغربة.. ولم أنس بعد أنى بكيت كطفل عندما اكتشفت أنى كنت واهماً، وأن الرجل لم يكن حالهُ بأسعد من حالى، فظروفه الحياتية قاسية وديون بيته وأولاده جعله ينبطح أرضاً فى معظم الأوقات..!

ولم يكن الأستاذ (المصرى)، والآخر (المغربى)، والثالث (اللبنانى) الذين التقيت بهم بعد ذلك، سوى صورة مكرورة لهذا السورى المقهور!.

.. وكانت النتيجة أنى طويت أحزانى فى صدرى، وواصلت حياتى لا ألوى على شىء!.

.. بعد أيام هتفت لى زميلتى، وصبت فى أذنى كلمات كانت ترقص طرباً.. الكلمات تقول: إن استاذك (أو معبودك) عبدالرحمن بدوى مايزال حياً، ولقد شاهدته (بشحمه ولحمه) وهو يُحاضر فى ندوة بمبنى منظمة اليونسكو حول الفيلسوف اليهودى ابن ميمون الذى كان الطبيب الخاص لصلاح الدين الأيوبى..

.. وأصل الحكاية أن هذه الزميلة - أكرمها الله - كانت تعرف عنى ولعى الشديد بكتابات الدكتور عبد الرحمن بدوى.. الذى كنت ظننته - لا أعرف لماذا - قد مات وشبع موتاً منذ زمن، ولذلك أدهشها أنى كنت أضع على مكتبى صورة له وجدتها - بطريق المصادفة ذات يوم - فى مجلة (رسالة اليونسكو) التى كان يرأس تحريرها الصديق الأستاذ بهجت النادى..

.. كنت لا أصدق ماقالته الزميلة لى عبر الهاتف - وكنت وقتها أعمل صحفياً فى مجلة

«الحياة العربية»* ـ فكان أن خطفت معطفي خطفاً، وهرولت هابطاً الدرج قفزاً. وفي المترو، أفقت من شرودي وأنا أقول لنفسي:

ـ هنيئا لك (يابو سعيد)، فأستاذك (معبودك) عبدالرحمن بدوي ليس ميتاً كما كنت تظن.. وها أنت ستلقاه بعد دقائق معدودات.. ثم تحسست بلساني، شفتي السفلى وابتسمت راضياً، عندما خطرت ببالي فكرة أن يكون الفيلسوف الكبير عبدالرحمن بدوي هو هذا الاستاذ (الملاذ) الذي أبحث عنه منذ زمن.. وهل هناك من كان يفوقه علماً، وفكراً، وأبداً.. انه بلا شك الصورة المثلى للاستاذ والمعلم، وقائد الفكر.. ولم لا أليس هو الذي فتح لي ـ ولأبناء جيلي ـ نوافذ الفكر الفلسفي العميق والجاد عبر مؤلفاته وابداعاته في الفكر الأوروبي، وتحقيقاته الدقيقة والرصينة في الفكر الاسلامي؟!.

بعد أن هبطت من المترو أطلقت ساقيَّ الى الريح حتى وصلت الى مكان الندوة في احدى قاعات اليونسكو الكبرى.. وهناك سألت عن الدكتور عبدالرحمن بدوي في لهفة، فأجابني أحد الحاضرين في غير اكتراث قائلاً: لعله ذهب ليتناول وجبة الغداء. ثم نظر في ساعة يده، وهو يتثاءب في تثاقل، وقال: اجلس هنا ريثما يعود. مشيراً بيده الى أحد المقاعد القريبة..

لكن هيهات لمشتاق مثلي أن يجلس!!. فقد ظللت أذرع المكان ذهاباً وإياباً في قلق، وعيني شاخصة، باتجاه الباب الزجاجي الكبير الذي يبعد عني عدة أمتار.. فما أنذا بعد

*صاحبها ورئيس تحريرها هو الكاتب الصحفي الراحل "أحمد حافظ" الذي أصدرها في باريس في أوائل الثمانينات، وكنت عملت فيها مع عدد من الصحفيين اللبنانيين، أبرزهم الصديق الأديب "نصري الصايغ" الذي تعلمت على يديه الكثير في الصحافة والأدب والحياة.

قليل سوف أُمتّع ناظريّ برؤية (معبودى الفكرى) عبدالرحمن بدوى وهو يدلف منه!.

.. وعندما أطل ـ الرجل فى مهابة ـ من بعيد، لم أتمالك نفسى، فهرعت اليه، مادأ ذراعيّ نحوه، وفى كلمات مُتلعثمة، خجولة، مشتاقة، قلت له:

أستاذى، أهلاً.. أهلاً.

وأظن أن عينى كانتا تبرقان من شدة اللهفة، وفمى مفتوح من فرط الدهشة.. ولسانى يلهج بكلمات لا أتذكر منها شيئاً؛ لكن ما أتذكره هو أنى كنت سعيداً، مُنتشياً من رؤية هذا (العقل العربى الكبير)..

.. فكانت المفاجأة المفجعة: أن الدكتور عبدالرحمن بدوى رمقنى بنظرة عدوانية، شرسة وأشاح بوجهه عنى، بعد أن لكمنى بيده، ليبعد ذراعيّ الممدودتين نحوه فى لهفة.. ثم شق لنفسه طريقاً آخر بعيداً عنى؛ ليدخل إلى القاعة!.

.. كنت حتى هذه اللحظة مسحوراً بالرجل، فظننته لم يسمع ترحيبى به، فكررته ثانية، وأضفت: «أستاذى.. أنت معلمى، وصاحب الفضل علىّ، لقد قرأت كل مؤلفاتك.. وأنت الآن معبودى.. أريد أن أحدث إليك..».

كنت أقول ذلك، وهو يُهرول أمامى، ولا يريد أن يسمع أو يتوقف..

وعندما وجدتنى وسط القاعة، شعرت بالخجل من نفسى، والتمست للدكتور عبدالرحمن بدوى العذر لانه ربما لا يريد أن يضيّع وقتاً، حتى ولو دقيقة واحدة، سيّما وأن الُحاضرين فى الندوة كانوا تأهبوا بالفعل للحديث عن ابن ميمون

.. اضطررت أن أبقى حتى فرغ المحاضرون من الكلام، وانتهزت فرصة خروج الدكتور عبدالرحمن بدوى إلى خارج القاعة؛ فهرولت وراءه مسرعاً.. لكنه قلب وجهه مُكفهّراً عندما

وجدنى ألاحقه، وصرخ فىّ قائلاً:

من أنت، وماذا تريد؟.

قلت إننى (فلان)، دارس دكتوراه بجامعة السوربون (فى قسم الفلسفة)، ولقد قرأت مؤلفاتك جميعا، بل أقوم حالياً بتكليف من أستاذى الفرنسى بترجمة بعض نصوص من كتابك «افلاطين عند العرب»..

.. هنا توقف د. عبدالرحمن بدوى، وبدا وكأنه لم يسمع منى ما قلت، ثم رشقنى بسؤال كالسهم، وقال: بتشتغل أيه؟.

قلت له فى تلعثم وشوق: أعمل صحفياً.

قال: فى أى صحيفة؟.

قلت: فى مجلة «الحياة العربية»!

قال وقد زادت علامات الاستياء على وجهه:

- من يُمَوِّل هذه المجلة المزعومة؟.

وجدتنى فجأة أمام سؤال مُحَيِّر لم أطرحه على نفسى من ذى قبل:

فقلت له وهو يتعجلنى الإجابة:

لا أعرف. لكننى فرح بلقائك أيها الأستاذ الكبير. وقبل أن استطرد فى كلامى المعسول، رشقنى الرجل مرة أخرى بسهماً من سهامه الطائشة، وقال:

- أغرب عن وجهى. لا تضيِّع وقتى..

ثم اختفى فى دهاليز اليونسكو، وتركنى فى شبه غيبوبة (أو صدمة) لم أفق منها إلا بعد لحظات مرت كالساعات..

.. ووجدتني، وأنا أركب المترو عائداً إلى مكتبي في مجلة الحياة العربية، أمسح دمعتي على خدي، وأغمغم في إحباط قائلا لنفسي:

ـ لقد ضاع أملك (يابو سعيد) مرة اخرى، فلا أستاذ، (ولا ملاذ) بعد اليوم!!.

* * * *

.. بعد أسابيع قليلة كنت أطالع في المكتبة الوطنية فصادفت مجموعة من الوثائق الخاصة بالفترة التي أمضاها الإمام محمد عبده في باريس.

.. وعندما التقطت عيناي العنوان الذي كان مقراً لمجلة العروة الوثقى (٦ شارع مارتيل) هرعت في اليوم التالي الى هناك لأشم عبق الماضي الجميل في ارجائه واتذكر نضالات محمد عبده، والأفغاني، وزملائهما وتمنيت من كل قلبي أن تُولي وزارات الثقافة العربية هذا المكان اهتماماً خاصاً كأن تحوّله الى ناد أو مايُشبه المتحف الصغير الذي يضم مآثر الرجلين الى جانب الأعداد الثماني عشرة التي صدرت من العروة الوثقى.

وأشهد أن «زيارتي» لمقر العروة الوثقى قد فتحت شهيتي لرصد خطوات كل أبناء الكنانة الذين أقاموا في باريس.. وأدهشني بعد قليل من البحث ان كل قادة (الفكر والأدب والسياسة) في هذه الفترة، ومايتلاها من فترات، كانت رحلتهم لباريس أشبه «بالمحطة الضرورية» في حياتهم..

.. ورويداً، رويداً، وجدتني أعرف الكثير عن حيوات (هؤلاء الرجال، وغزواتهم العلمية)، وظللت أجمع كل مايقع تحت يدي من (أخبارهم وأحوالهم) في قصاصات، ظلت تتراكم حتى ملأت صندوقاً ضخماً، عكفت في فترة لاحقة على تبويبه، وتدوينه ليكون هذا الكتاب..

وأعترف أني بهذا المسلك قد برئت تماماً من الحيرة التي كانت تملكتني وملأتني بالفزع

لفترات طوال.. ولم لا.. فلقد وجدت فى هؤلاء الرجال «الأستاذ - الملاذ» الذى أعيانى البحث عنه، وكاد يفقدنى حماستى لكل شىء.. كما استمتعت بمعايشتهم جميعا فى سنوات غربتهم، وباستحضارهم من جوف التاريخ كى أحيا معهم، فكانوا - أو هكذا خُيِّل الىّ - يشاركوننى أوقاتى، ويجيبون على اسئلتى ويصطحبوننى معهم فى جلساتهم ولقاءاتهم داخل جامعة السوربون، أو على المقاهى التى تملأ الشوارع والميادين الباريسية.

وغدت هذه الأحياء (وتلك الأماكن) ترتبط فى ذهنى بأسمائهم.. «فحى مونبرناس» هو حى توفيق الحكيم، و«مقهى الدوم» هو مقهى ذكى مبارك، و«حديقة لوكسمبورج» هى حديقة الفنان مختار يشاركه فى عشقها الشيخ مصطفى عبدالرازق.. و«مدينة ليون» هى مدينة القانونى البارع عبدالرازق السنهورى، و«مونبلييه» هى مدينة طه حسين، و«حدائق بولونيا» هى حدائق أمير الشعراء أحمد شوقى، و«شاطىء نهر السين» هو المكان الأثير لبيرم التونسى، و«الريف الفرنسى» هو القريب إلى قلب سلامة موسى..

وأذكر أنى - فى كل مرة كنت أمر بهذه الأماكن - كنت أشعر بوجودهم فيها.. ففى «شارع المدارس» الملاصق للسوربون والكوليدج دى فرانس والذى حدثنا عنه طويلاً الدكتور طه حسين فى (أيامه)، كنت أجدنى أسير (الهوينى)، أتحسس أحجار الشارع بقدمى فى رفق.. تحت تأثير شعور طاغ هو (أننى إنما أسير على جسد طه حسين نفسه!).

وأعترف صادقاً، أننى بهؤلاء الكبار الذين حولوا غربتى إلى أنس وبهجة قد وجدت «ضالتى» و«ضالة» كل باحث عن القيمة، والأصالة، والمعاصرة.

كما ترسَّخ إيمانى بأن مصر، وإن كانت قد أنجبت أناسا بهذه (القامة الطويلة،

والعقول المستنيرة)، فى أزمانها البعيدة، فهى لا شك قادرة على انجاب أجيال أخرى تحمل المشعل، وتواصل المسيرة.

فى كلمة واحدة..

هذه الصور الحياتية الحية، التى تفيض توثباً، وطموحاً، إنما أقدمها حلالاً زلالاً إلى كل الأرواح العربية الظامئة للمعرفة، والاستنارة.

د. سعيد اللاوندى

يناير ٢٠٠٠ (القاهرة)

د. زكي مبارك:

« إن نعيم الحواس له عند أهل باريس قيمته، وإن اللهو عندهم ليُقْتَرف، وله سحره ومعناه، وله فضله في تلوين الحياة الإنسانية بلون البِشْر والفتون.. فتعال أعلمك كيف يضع الرجل درهمه في سبيل المجد والشرف، وكيف يستطيع أن يستقي ماء الحياة من منبع الحياة..

صديقي: هذا باريس، ولا أقول: هذه باريس»

فى صيف عام ١٩٢١، رفع الدكتور "زكى مبارك" يديه إلى السماء، وقال فى قلب خاشع ولسان صادق: «اللهم لا تُمتْنى قبل أن أرى بعينى كيف يُدرّس العلم فى تلك المعاهد التى أصبح أهلها سادة الأمم وأساتذة الشعوب». ومن حُسن الحظ أن السماء استجابت دعاءه، فرأى باريس بعينيه أربع مرات، وأمضى فيها ما يزيد على خمس سنوات، وحصل من جامعتها "السوربون" العريقة على درجة الدكتوراه فى الأدب، ونازل علماءها، وأساتذتها، وبعثر أيامه فى كل مكان، حتى أصبح الحديث عن وجه باريس العلمى حديثاً ناقصاً ومعيباً إذا خلا من ذكريات وشقاوات "زكى مبارك".

يذكر الرجل أنه دخل باريس لأول مرة فى يوم عيد.. وعند الظهر مضى إلى "كافيه دى لابيه" التى كانت مُلتقى المصريين والشرقيين فى ذلك الوقت.. ثم بدأ يبحث عن مكان مناسب للسكنى، والتقى بمدير البعثة المصرية فى باريس، وكان يدعى الدكتور "الديوانى"، الذى لاحظ رقة حال "زكى مبارك"، وقلة موارده. فطلب إليه أن يُعطى طلبة البعثة دروساً خصوصية فى اللغة الفرنسية، لعل هذا يساعده فى سداد بعض النفقات، ورأى أحد أساتذته فى "السوربون" أنه مأزوم مالياً، فأوصى

جريدة "الجولو" أن تأخذ منه مُترجمات عن الأدب العربى، فترجم لها بالفعل قصائد من أشعار "المتنبى" و"البحترى" و"أبى فراس".. لكن تكاليف الحياة كانت مرتفعة، ولم ينقذه من هذه الحال الصعبة إلا اتفاقٌ كان قد أبرمه فى مصر مع "عبد اللطيف حمزة" صاحب صحيفة "البلاغ"، يدفع له بمقتضاه مبلغاً يزيد أو ينقص قليلاً عن خمسة عشر جنيهاً، مقابل جملة من الموضوعات التى كان يرسلها إليه شهرياً من باريس.

النصر أو الموت:

ورغم ذلك لم يكن "زكى مبارك" فى مأمن من العوز الذى اشتد عليه ذات مرة، واضطره أن يبيع ملابسه؛ ليشترى مجموعة من مؤلفات "جان جاك روسو"، و"شاتو بريان" كما باع ساعة نفيسة؛ ليشترى النسخة المزخرفة من التوراة والإنجيل (ترجمة دى ساى)، ويذكر "زكى مبارك" أنه قد قبل التحدى عندما جاء ليدرس فى باريس؛ ليحصل على درجة الدكتوراه من جامعتها؛لأن مدير الجامعة فى مصر كان قد رفض أن يعطيه الدرجة السادسة الكاملة (وهى تزيد جنيهين فى الراتب) بحجة أن الجامعة المصرية التي منحته شهادة الدكتوراه هى جامعة أهلية وبالتالي فشهاداتها ليست رسمية!.

لذلك اعتاد "زكى مبارك" أن يحمل همومه على كتفه باحثاً عن «الفرنكات» التى تعينه على مواصلة دراساته، ويذكر أن أسارير وجهه تهللت عندما قرأ على مدخل «البانثيون» عبارة: «النصر أو الموت»، فجعلها شعاراً له، وقرر أن يغرس أظفاره فى لحم الحياة الباريسية الدامي؛ لكى يُحدّث قراء صحيفة «البلاغ» التى يعمل مراسلاً لها، أحاديث مُنتزعة من الحياة الواقعية.. يقول: «كان لابد من معاقرة

الحياة فى باريس؛ لأنجح فى مراسلة "البلاغ"، وهدتنى الفطرة إلى قضاء أوقات الفراغ فى الملاهى والملاعب والمراقص والقهوات، وكنت أزرع باريس بقدميّ؛ لأخلق لمقالاتى جواً من الحقيقة لا من الخيال، وأعاننى على ما أسمو إليه لسانٌ مرنٌ فى اللغة الفرنسية مرونة عجيبة، تقدر على جذب من أحاور من أسراب الظباء.. والفرنسيون يغفرون للرجل جميع الذنوب إذا أمدته العناية الإلهية بلسان فصيح، وكان لى فى باريس ثلاث قهوات، قهوة صغيرة جداً تقع بجوار قهوة الرحيل فى حى "سان ميشيل"، وكانت مُخصصة للمواعيد الغرامية، والتأملات الفلسفية، أما القهوتان الأخريان فهما "الروتوند" و"الدوم" فى حى "مونبرناس".

فى رحاب "السوربون"..

ويحدثنا عن طموحه العلمى، فيقول: إنه كان يريد أن يكون أول مصرى يظفر بدرجة الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية فى باريس، وموضوع الامتحان هو ترجمة «الرسالة العذراء»، وأنه حاول أن يتكلم باللغة العربية فى امتحان الدكتوراة بالسوربون، ونجحت المحاولة؛ لأنه اختار بحثاً إضافياً هو الكلام عن «طوق الحمامة» لابن حزم، وكان هدفه ـ كما يقول ـ هو: «أن يصحح أغلاط مسيو "وليم مرسيه" فى بحث كان قد نشره فى إحدى الصحف الفرنسية. وقد استطرف مسيو ماسينيون هذه المحاولة، وقال: الدكتور زكى مبارك كاتب سياسى! استطاع أن يتكلم باللغة العربية فى جامعة "السوربون"، وهو ما لم يحدث من قبل..».

ويذكر "زكى مبارك" أن امتحان الدكتوراة كان صعباً عسيراً، حتى أنه كان يشبِّهه بالمحنة؛ لأن خصومة "علمية" كانت قد نشبت بينه وأحد

أساتذته، وهو "مسيو كلان" قبيل الامتحان. سببها أن "زكى مبارك" كان قد دعاه إلى محاضرة عن «ابن قزمان» فى نادى العرب فى باريس. وبعد أن استمع إليها، أعلن أنها لا تعجبه، وانتقدها بعنف أمام الحاضرين، فشعر "مسيو كلان" بالحرج، وتوعده ـ حسبما يروى "زكى مبارك" ـ قائلا له: «موعدنا غداً فى الامتحان!». كان هذا الغد ـ هو اليوم الخامس والعشرون من أبريل عام ١٩٣١ ـ مُزعجاً بحق. فرئيس اللجنة هو "مسيو مرسيه" عميد مدرسة اللغات الشرقية، والعضو الثانى هو "مسيو ديمومبين" الذى كانت تربطنى به مودة غالية؛ لأنى عاونته على تفسير بعض النصوص العربية؛ ولذلك لم أكن أخاف منه، والعضو الثالث هو "مسيو جورج كلان" نفسه.. والرسالة مقدمة بالفرنسية عن "فن الإنشاء فى القرن الثالث عشر". وكانت مدرسة اللغات الشرقية تضع إعلاناً قبل يوم الامتحان بأسبوعين؛ لكى يحضر الطلبة جميعاً؛ ليشهدوا امتحان "زكى مبارك". ويقول "زكى مبارك" : وكان مسيو "مرسيه" يدير المناقشة ولا يتكلم. و"مسيو ديمومبين" يحب لى الخير، ولكنه لا يستطيع أن ينقذنى من أنياب هذين الرجلين. ويبدأ الامتحان فى التاسعة صباحاً ويحضر "مسيو كولان" وقد أعد العدة للانتقام منى. عندئذ تذكرت قول الشاعر العربى:

«قد جدّ الجدُّ فجدّوا»..

ويضيف "زكى مبارك" قائلاً: « قضيت ثلاث ساعات أجادل الأستاذ الذى يحقد على التلميذ، وجاء الظهر وكان يجب أن أفوز.. لكن "مسيو مرسيه" رئيس اللجنة اتجه نحوى، وقال: اذهب يا زكى للغذاء، ثم ارجع إلينا. فذهبت مع تلميذى "محمد عبد الهادى شعيرة"، ورجعنا فى

حسنى" ينتظرنى هناك ومال على أذنى، وقال: مدرسة اللغات الشرقية لن تمنحك اللقب الذى تطمح إليه، ولذلك أقترح عليك أن تنسحب قبل أن يسجلوا عليك الرسوب. فقلت: هذا يوم لمصر فى باريس، وسوف أكون أثْبَتَ من الجبال الراسيات، ويجب أن أرفع الراية لوطنى. واقترحت اللجنة أن أترجم صفحات من كتاب "كليلة ودمنة"، و"حديث عيسى بن هشام" للمويلحى، من العربية إلى الفرنسية.. واستمر الامتحان ثلاث ساعات أخرى».

الفرق بيننا يا "طه"؟

ويذكر الدكتور "زكى مبارك" أن أساتذته بالسوربون الذين كانت تربطهم به علاقة ود صافية، أقاموا له حفلة، كما أقامت الجمعية المصرية فى باريس حفلة أخرى حضرها عدد كبير من زملائه وأصدقائه، وكان لهذا الامتحان أبلغ الأثر فى نفس "زكى مبارك"، حتى أنه ظل يفاخر به الآخرين، ويردد أنه تحدى أساتذته من "السوربون"، وفضح ما يضمرون من كراهية للثقافة الإسلامية.. فيقول مخاطباً "طه حسين" فى واحدة من أعنف معاركه معه: «لقد ذهبت أنت فأتممت دراستك فى باريس، وذهبت أنا فأتممت دراستى فى باريس. فهل تعرف الفرق بينى وبينك؟ اسمع أيها الصديق الغالى:

ذهبت أنت على نفقة الجامعة، ومضيت أنا متوكلاً على الله، فأنفقت ما ادخرتُ من عَرَق الجبين، واتصلت أنت بمسيو "كازانوفا"، ففرض عليك آراءه ولم تكن دراستك عن "ابن خلدون" إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ، واتصلت أنا بمسيو "وليم مرسيه" ففرضت عليه آرائى فرضاً، واشتعلت بينى وبينه الخصومة فآذانى إيذاء شديداً لكن قناتى ظلت صلبة، واستطعت أن أقوض كبرياءه فى عقر بيته وفوق كرسيه فى

"السوربون".. ولم تمر هذه المعركة بلا غنيمة، فقد وقف مسيو "ماسينيون" يوم أديت امتحان الدكتوراه، وقال: إننى حين أقرأ أبحاث "طه حسين" أقول: هذه بضاعتنا رُدت إلينا. وحين أقرأ أبحاث "زكى مبارك" أشعر بأنى أواجه شخصية جديدة. فإن كنت فى ريب من ذلك فاسأل من حضروا امتحانى فى "السوربون" ولك أن تسأل مسيو "ديمومبين" ليخبرك أن مسيو "مرسيه" صارحه بهذه العبارة:

إننى لا أستطيع أن أمنح "زكى مبارك" ما يصبو إليه، فإننى أقرأ فى وجه هذا الفتى أيات الطموح الجارف، وأخشى أن يجيء غداً ومعه سفير مصر ليطالب بكرسى من كراسى "السوربون"..».

لكن لا يعتقد أحدُ أن علاقة "زكى مبارك" بأساتذته فى "السوربون" كانت عراكاً دائماً وخصاماً.. فالثابت أنه كان من أكثر التلاميذ وفاءً واعترافاً بفضل نخبة من هؤلاء الأساتذة عليه، وعلى زملائه. فها هو يكتب مقالاً عن أربعة معاهد باريسية هى: "السوربون"، و"الكوليدج دى فرانس"، و"مدرسة اللغات الشرقية"، و"الأليانس فرانسيز"، وفى هذه المعاهد عرف كثيراً من الأساتذة منهم: "مسيو ديمومبين" الذى يصفه بأنه "رجل دقيق النظر من ناحية المناهج العلمية فى دراسة الآداب العربية، لكنه لا يتكلم العربية فى دروسه، وشروحه وتفسيراته، وتعليقاته كلها بالفرنسية».

ويقول: «كانت لى معه وقائع فى شرح النصوص، فغام الجو بيننا حيناً، ثم عاد إلى الصحو والصفاء، وقويت صلتى به، وسافرت لزيارته مرتين؛ لأن مسكنه بعيد عن باريس، وهو يقضى الصيف هناك، وله منزل جميل فى "هوتو" الواقعة بمنطقة "النورماندى"، وبفضل زياراتى لهذه المنطقة عرفت مدينة "الهافر" ومدينة "روان"، وحضرت دروسه فى

"السوربون" وفى مدرسة اللغات الشرقية، وهو رجل كهل، قضى أكثر عمره فى دراسة الآداب العربية. ويمتاز بصفاء النفس والبُعد عن الشئون الاستعمارية؛ ولذلك كان الطلبة التونسيون يحبونه كثيراً، ويطلقون عليه اسم "الشيخ ديمومبين". وعرفت فى "السوربون" أيضاً مسيو "تونلا"، وهو أبرع أستاذ رأته عيناى، وكان يُدَرِّس الأدب الألمانى. ولقد حضرت طائفة كبيرة من المحاضرات العامة التى كان يلقيها فى "السوربون"، ثم تبعته فسمعت محاضراته فى "الأليانس فرانسيز" عن الصلات الأدبية بين فرنسا وإنجلترا وألمانيا، ومازلت أذكر أنى استفدت كثيراً منه على الرغم من أنه لا يعرفنى، ولا توجد صلة تعارف شخصية بيننا.

.. وفى "الكوليدج دى فرانس" عرفت أستاذين عظيمين هما: مسيو "مرسيه"، ومسيو "ماسينيون". الأول يهتم بالدراسات الأدبية والتاريخية، وأكاد أجزم بأنه أقوى أساتذة اللغة العربية فى الشرق والغرب.. وكانت تربطنى به مودة ظلت متصلة نحو خمسة أعوام، وتلقيت عنه من الفوائد اللغوية والأدبية والتاريخية ما سيطوّق به عنقى إلى يوم الدين..».

ويقول "زكى مبارك": «لقد هاجمته هجوماً عنيفاً فى الرسالة التى قدمتها إلى جامعة باريس، فحقد على حقداً أظلم من الليل، وأمرَّ من الصاب، وانتقم منى انتقام الجبارين، وظل مع ذلك يصانعنى مصانعة الأريب، يحقد فى السر ويصادق فى العلانية.. ومازلت إلى اليوم أجد آلام الطعنة التى رمانى بها مسيو "مرسيه"، ولكنى مع هذا أتلهف إلى لحظة أقضيها فى بيته أو فى درسه.. وأرى أن الذى يذهب إلى باريس ولا يراه شبيه بمن يزور مصر ولا يشاهد الأهرام.. أما الثانى فهو مسيو "ماسينيون" الذى يهتم بالفلسفة الإسلامية، وخاصة التصوف. وله

كتاب عن "الحلاج" هو خير ما كُتب في نوعه من الدراسات الشرقية، ويعتبر المرجع الذى تهرع إليه وزارة الخارجية الفرنسية فيما يمس حياة المسلمين في الشرق. ولقد ابتدأني هذا الأستاذ بالوداد قبل أن يراني عندما أشار إلى كتاب "الأخلاق عند الغزالي" وعندما ذهبت إلى باريس اتصلت به، وواظبت على دروسه التي أصبحت منبعاً أستقى منه في الدراسات الوجدانية».

ولقد أهداه "زكي مبارك" واحداً من كتبه وهو "كتاب الأمم"، وقال فيه: «إلى الأستاذ "ماسينيون": أهدى هذا البحث الوجيز، تذكرة للأعوام الطيبة التي انتفعت فيها بعلمه في مدينة "باريس"».

ويواصل "زكي مبارك" حديثه عن أساتذته، فيقول: «في معهد الأليانس فرانسيز عرفت مسيو بلانشو، الذى كان أكرم صديق ظفرت بوداده في باريس، ثم مسيو "دومينيك" عضو الأكاديمية الفرنسية، وأحد أشهر مؤرخي الأدب الفرنسي، وتابعت دروسه أربع سنوات، وهو يرأس تحرير مجلة "العالمين" وله في الدوائر الأدبية مكانة عظيمة، ويعشق مصر، وكان من القلائل الذين لهم فضل كبير على الشبان المصريين؛ لأن كتابه الموجز في تاريخ الأدب الفرنسي انتفع به ألوف المتعلمين في مصر وخاصة طلبة الحقوق الفرنسية في القاهرة. ثم عرفت مسيو "ديبويه" مدير معهد الأليانس فرانسيز، وهو أستاذ جليل، له دروس مهمة حول الحياة الاجتماعية في مدينة باريس من القرن الثامن عشر إلى العصر الحاضر. وقد ربطتني به علاقة مودة خالصة، وقضيت في منزله سهرات ستظل ذكراها في النفس ما حييت..

العقلية الجرمانية

«حدثته مرة عن الصعوبات التي أقاسيها من عنف أساتذة

السوربون، فقال: "إن جامعة باريس احتلتها العقلية الجرمانية منذ حرب السبعين وأصبح أساتذتنا موسويين في نقد المذاهب والنظريات منذ اصطدمنا بالجرمان".. ومسيو ديبويه نموذج جيد لرجل التربية، وإدارته لمعهد الأليانس تدل على ابتكاره في مناهج التعليم وتوجيهه للحاضرين، واختياره لموضوعات الدراسة الأدبية والعقلية والاجتماعية. يشهد بأن هذا الرجل من أظهر القوى العاملة في باريس.. لقد أكرمني هذا الأستاذ إكراماً لن أنساه، وأشهد أني انتفعت بعلمه وأدبه وفضله».

ولم ينس "زكي مبارك" أن يذكر بين أساتذته مسيو "كلان" الذي قسى عليه في مناقشة رسالة الدكتوراة، وعانده كثيراً، لكنه لم يذكره بسوء، وإنما قال عنه: «إنه مستشرق شاب سيكون له شأن في المستقبل القريب، لأنه من أعرف الأساتذة بمناهج فقه اللغة، وقد تصادقنا صداقة متينة، وقويت بيننا أواصر الأخوة العلمية».

وهذا الموقف، على كل حال، يُحسب لزكي مبارك لا عليه؛ لأنه لم يسمح للعاطفة أن تغلبه. فقسوة مسيو "كلان" عليه كانت قمينة بأن تدفعه للتحيز ضده، لكنه امتنع عن ذلك والتزم الحيدة والموضوعية عند إعطاء حكمه النهائي عليه كأستاذ.. وفي لمحة سريعة أشار "زكي مبارك" إلى رجلين لم يكونا أستاذين بالجامعة، لكنهما أفاداه في اقتناء نفائس الكتب. الأول هو مسيو "بيكار" صاحب المكتبة الواقعة في بولفار سان ميشيل، والثاني هو مسيو "فيفيان" المختص بالكتب القديمة وآداب الطيران.

وأمام هذا الإطراء الشديد الذي خصّ به "زكي مبارك" أساتذته في باريس، قيل له ذات يوم: لقد ملت يادكتور زكي إلى اللغة الفرنسية منذ شبابك المبكر، ونهلت منها الشيء الكثير، وذهبت إلى فرنسا ونلت

الدكتوراة، وكتبت رسالتك بالغة الفرنسية، لكننا لم نر لك تراجم عن اللغة الفرنسية أو اتجاهات أدبية فرنسية.. فما السبب في ذلك؟!

فأجاب "زكي مبارك" يقول في اعتزاز لا محدود بنفسه، وبقدراته الإبداعية، وقال:

«إن الكاتب يترجم حين لا يجد مايقول، وأنا بحمد الله أجد ما أقول، وعندي ثروة من الأفكار تغنيني عن الترجمة، وهذا السؤال وجهه لي قبل أعوام الدكتور "إبراهيم ناجي" وقال مُتهكماً إني رجعت من باريس أكتب عن "ابن خلدون"، و"ابن زيدون" ولم أكتب عن "أناتول فرانس"، وكان جوابي أنني لم أتعلم في فرنسا لأتفرنس، وإنما كان المهم أن أتعلم المنهج العلمي الذي يفيدني في البحث والتأليف، وهذا ظاهر، على كل حال، في مقالاتي ومؤلفاتي».

صديقي.. "هذا" باريس

كان "زكي مبارك" طوال السنوات الخمس التي أمضاها في باريس يحرص على أن يسكن في الحي اللاتيني؛ لأنه رخيص بالمقارنة مع الأحياء الأخرى، ويتناسب كثيراً مع مُدخراته المحدودة، كما يعج بالحركة ليل نهار، ويرتاده الشباب من كل حدب وصوب، ومن السهل تكوين صداقات مع سكانه؛ لأنهم في الأغلب طلاب يتنفسون مناخاً اغترابياً متشابهاً سواء في الظروف العلمية أو المعيشية.

والحق أن افتتان "زكي مبارك" بهذا الحي، الذي يشبه كثيراً الأحياء الشعبية في بلادنا، يكاد يفوق الحد، فهو يصفه بأنه «حي الشباب» ويرى أن أفصح الكُتّاب وأبلغ الشعراء ليس بوسعهم أن يثنوا على هذا الحي بما هو أهله؛ ولذلك فقصارى جهد المفتونين به أن يقولوا: حي الشباب.. حي الشباب!

ويشرح "زكى مبارك" ذلك فيقول: «حى الشباب فى باريس هو الحى اللاتينى، وهو حى الشباب بأجمل وأشرف وأبلغ ما تنطق به هذه الكلمة، وليس فى الدنيا التى رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنها بآذاننا أو قرأنا أخبارها فى أساطير الأولين - ليس فى الدنيا كلها - بقعة تتفتح فيها أزاهير الشباب وتندى أوراقه وتتمايل أغصانه ويتأرجح عبيره، كما يرى روّاد الحى اللاتينى فى باريس، ولا يعرف المرء صنعة الله جلّت قدرته إلا من ذلك الوادى من أودية الوجود، وإن لحظة واحدة فى "بول ميش" (تصغير بولفار سان ميشيل) لتقنع الجاحد بأن الله أجلّ وأعلى من أن تتطاول إلى نقد صنعته أوهام المكابرين. تعالى الله عما يصنعون!».

ثم يسجل "زكى مبارك" إعجابه الشديد بهذا الحى فى صيغة تقريرية بليغة، فيقول: «وما ظنك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجرى عليها من أسراب الملاح، وما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق مايملك العالم من نضارة الشباب وروعة الجمال!».

والحق أن عشق "زكى مبارك" للحى اللاتينى ليس إلا صورة من عشقه الكبير لباريس التى يعرفها جيداً ويعرف أهلها معرفة قلما تقدر لإنسان سواه، حسبما يقول "زكى مبارك" فى مقدمة كتابه «ذكريات باريس».. ولم يكن ذلك فقط؛ لأنه اتصل بها خمسة أعوام، وإنما كان ذلك لأنه وصل إليها بعد لأى وبعد شوق، وكانت كل زورة تبدو لعينيه وكأنها الأولى والأخيرة.. فها هو يصف حاله معها، فيقول: «كنت أنهب محاسنها فى شَرَه ونهم، كما يفعل الصبى المولع وهو يودع حسناء ستمضى إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب، ويا طالما ودعت من أسراب الحسان! أضف إلى هذا أنى يوم دخلت باريس كنت

أعرف من دقائق اللغة الفرنسية ما لا يعرفه إلا القليلون..».

عاشق.. وهذه هي أسبابي

وكأن بزكي مبارك يسوق مُبررات عشقه لهذه المدينة، التي يفاخر الآخرين بأنه يعرفها معرفة جيدة، عندما أطلق لنفسه العنان في الرد على أحد منتقديه الذين أخذوا عليه ولعه بباريس والباريسيات، فكتب إليه رسالة. يقول فيها:

«ألا فلتعلم ياصديقي أن الذي أحدثك به عن هذه المدينة هو الحق في أعماق الحياة الفرنسية، وأنه لم يصل أحد إلى مثل ما وصلت إليه من الألفة الصافية والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقتهم وعاشرتهم من الفرنسيين في باريس وغير باريس، فالمرأة الفرنسية الصحيحة الأصيلة، يغلب عليها النُبل والطهر والعفاف، وأن نبرة واحدة من صوتها الرنان لتبدل الأرض غير الأرض، والسماوات، وأنها لتذل من تذل وتعز من تعز، وهي في مكانها كالطود الراسخ لا تُغلب ولا تُنال، ولو كانت المرأة الفرنسية هيّنة إلى هذا الحد الذي يتوهم الأفاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات في باريس لما أنجبت فرنسا شاعراً ولا كاتباً، ولظل فقراء العواطف موتى الإحساس، والذين تراهم يتحدثون عن باريس ذلك الحديث الوقح المجرم المألوف، هم قوم لا يزيدون في أخلاقهم ولا معارفهم عن شواذ الفلاحين في مصر حين يجيئون القاهرة عمداً؛ ليطفئوا حرارتهم الحيوانية في بعض البؤر الموبوءة، ثم يعودون إلى أهليهم فيعطونهم من القاهرة صورة تجرح الطبع والذوق، وتبغِّض الرجل المهذب في مظاهر المدنية وأثار النهوض».

ثم يستطرد "زكي مبارك" في رسالته قائلاً: «في باريس اليوم نحو خمسة ملايين من السكان، أفيعيش هؤلاء الناس جميعاً بفضل الرذيلة؟

هذا محـال. فلم يبق إلا أن نقف عند حدود العقل والمنطق، فنتصـور أن مـثل هذه المدينة ـ وفيـهـا نحـو مليون من الأجـانب ـ لا تـخلو من أمـاكن تسود فيها الرذيلة ويغلبُ الشيطانُ. ولكن هـل خطر ببال أحد من الذين هاجموا باريس أن يحدثونا عما فيهـا من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والمعامل والملاجئ والمستشفيات؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يذكر أن الرجل قد يعيش في باريس بضع سنوات، ثم لا تقع عينه على منزل يُبنى أو منزل يُهدم، حتى لأتصور أنا أن الله خلق هذه المدينة مرة واحدة يوم خلق الأرض والسمـاء؟! وهل فكر أحد من الذين رأوا باريس أن يلاحظ أن سكة حديد المترو التي تسير تحت الأرض ومن فـوقـهـا المنازل والقصور والحدائق، ومن فوقها أيضاً نهر السين بفروعه التي تزخر بالموج والسفن.. أقول: هل لاحظ أحد من هؤلاء أن هذه الخطوط الحديدية فاقت (وهي حقيقة)، كل ماكان يتصوره الناس عن أعمال الجن (وهي خيـال)؟ وهل اتجه فكر أحـد من الذين يجرحـون باريس إلى أن رواد المكاتب وحدها ممن يسـايرون الحركـة العلميـة في أرجـاء العـالم يزيدون أضعافاً مضـاعفة على رواد الملاهي والملاعب والمشارب، في حين أن نعيم الحواس له عند أهل باريس قيمتة، وأن اللهو عندهم قد يُقترف وله سحره وله معناه، وله فضله في تلوين الحياة الإنسانية بلون البشر والفتون؛ إذ كانوا قوماً جدهم جد وهزلهم جد؟، صديقي! هذا باريس، ولا أقول هذه باريس. فإذا كانت عندك ذخيرة من المال، فتعـال أعلمك كيف يضع الرجل درهمه في سبيل المجد والشرف، وكيف يستطيع أن يستقي ماء الحياة من منبع الحياة، فهنا معاهد العلوم والفنون والآداب، وإن كنت تريد أن تضيع مـالك في الفولي بيرجر، والمولان روج، فإني أوصيك بتقويم عزمك وتهذيب نفسك؛ لتبقى لك نعمة المال والشباب

والعرض المصون. أيها الناس! لكم باريس، ولي باريس، والسلام..».

مع مرجريت:

وأياً كان الأمر، فقد قيل الكثير عن علاقة "زكي مبارك" بالمرأة الباريسية على وجه الخصوص، استناداً إلى «أحاديث الذكريات» التي اشتملت على أطراف من هذه العلاقة، والمقاهي التي دارت فيها.. والحق أن غرامياته كانت عديدة، وتختلف عن بعضها البعض طولاً وقصراً، وشعوراً، وتولّهاً.. لكن أكثرها أثراً في نفسه هي علاقته بمرجريت التي لم ينكرها "زكي مبارك" وإنما تحدث عنها في صراحة يُحسد عليها، وكان يصف قصته معها بالمأساة أو الملهاة.. فيقول:

«دخلت ذات صباح إلى مقهى النوم بحي مونبرناس، فوجدت سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل. وبعد أن دار الكأس نحو عشرين دقيقة هاجمت تلك السيدة الجميلة بعنف، فقالت: اسمع أيها السيد، لست الغواية همّي ولا هي مُناي.. أنا امرأة شقية خدعها شاب باسم الحب.. وكان ثمرة الحب طفلاً. فأنا أتسول باسم الحب لأنفق على ذلك الطفل المسكين إلى أن يظهر أبوه. فإن كنت تدّعي الرجولة الصحيحة فتقدم لحمايتي ورعاية طفلي وسوف ترى كيف أجزيك عطفاً بعطف، وإخلاصاً بإخلاص..».

ويقول "زكي مبارك": «ماكدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمي، وسألت نفسي: من أين أنفق على هذه السيدة، وطفلها، وليس لي من جريدة "البلاغ" ولا من الدروس الخاصة إلا مبلغ ضئيل من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات، والحياة قاسية أشد القسوة على الفقراء في باريس. ثم نظرت، فرأيت المرأة تعرض مشروعاً نبيلاً قد يرفع روحي بعد إسفاف، وقلت أن أسكن معها مقابل إنفاقي

عليها وعلى طفلها.

هنا تذكرت أنى تركت فى مصر الجديدة أطفالاً منهم "عبدالمجيد" الذى يزعزع كيانى حين يقول: بابا. وبعد لحظات سألت السيدة الجميلة واسمها "مرجريت"، وقلت:

- وما اسم ابنك؟

- فقالت: اسمه "موريس".

«وذهبت إلى التسليم على "موريس"، وتوهم الطفل أنى أبوه فقبلنى بحرارة والدموع فى عينيه.. وفى تلك الليلة هجر الطفل صدر أمه، وسكن إلى صدرى لينام نوم السعداء، فشعرت أن روحى ترتفع إلى أجواز السماء، وسألنى الطفل: أين كنت؟ فأخبرته أننى توجهت إلى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت، واخترعت له أقاصيص تعجبه وتلهيه. وفرحت "مرجريت" بما صارت إليه من راحة البال وصفاء النفس، ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات، فعلمتنى الرقص وطوّفت بى على المكنونات من صناديق الليل. وبفضل "مرجريت" عرفت من خبايا باريس مالا يعرف الشياطين. ولم تكتف بهذا، بل نقلتنى إلى "روان" و"الهافر" وأطلعتنى على المستور من شواطىء المانش. والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء، وما أجزم به أننى كنت فى صحبة تلك السيدة رجلاً نبيلاً، وأجمل ما نلت لم يزد عن قبلة عبثية! طبعتها على جبينى حين أخبرتها أنى متأهل ولى أبناء..

«وقد قهرتنى الظروف على قبول هدية من العطر لإرسالها إلى زوجتى وابنتى "كريمة" التى وُلدتْ وأنا فى باريس، وقد قبلت الهدية، ثم ألقيتها خفية فى نهر السين».

ثم هناك قصة أخرى، صاحبتها تدعى "مادلين". يقول عنها "زكى

مبـارك": «إنها روح لطيفة عرفتهـا في باريس، كان اسمـهـا "مـادلين" فسميتها "ليل"، وبلغ بها الوجد مبلغاً قضى بأن تنظم الأشعار في حبه، وتحضـر إليه في مـصـر تعرض عليه الزواج، لكنهـا عـادت محبطة إلى باريس بعد أن اكتشفت أنه متزوج وأب لأولاد!»

مع "بيرم التونسي":

وقد ظل "زكي مبارك" راضياً عن باريس وفياً لأهلها، حتى أنه كان يبرر كل ماتراه أعين الآخرين مساوئاً.. فها هو يلتقي مصادفة بالشاعر "بيرم التونسي" الذي كان طريداً شريداً في باريس، عندما وجده جالساً في إحدى الحدائق القريبة من منزله يعاني من ألم في ساقه، إثر سقوط برميل بيرة في المصنع الذي كـان يـعمل فـيـه، فـتناول مـعـه العـشـاء، واصطحـبـه في جـولة على شـواطـيء السـين غسل بهـا هـمـوم الغـربة، واستـمـع إلى مـواويله وأزجـاله، وضحكا من أعمـاقـهـمـا، وانتـهى بهـمـا المطاف إلى إحدى الحدائق العمومية التي تظل مفتوحة إلى منتصف الليل.

ويروى "زكي مبارك" تفـاصـيل مناقشـة دارت بينهـمـا، فيقول: «كان "بيرم" أفندي قد تعب، فطلب أن نجلس قليلاً على أحد المقاعد، ولكننا وجدناها جميعاً مشـغولة، فاضطرنا تعبُه إلى أن نجلس على مقعد فيه عاشـقـان يتناجيان، والأدب في باريس لا يسمح بإزعاج العشاق! وظل الفتى يُقَبِّل الفتاة، وهي بين يديه كأنها الغصن المطلول وكأننا لسنا هنا، وكأنهما ليسا هناك!

فـقـال "بيـرم": لا تحـسـب يا دكتـور أن هذا فسق، فـقـد يكون هذا العناق، مقدمة زواج.

فقلت: اطمئن يا "بيـرم"، فـأنا أعتقـد أن هذا الغزل المكشـوف أسلم

وأشرف من تلك السرائر المظلمة والقلوب السوداء التي تُطوى عليها جوانح العذرة الفجرة ممن يدعون الفضيلة، والله بما يعملون عليم!».

العودة إلى القاهرة ومعاركها:

وفي لمح البصر - يقول "زكي مبارك" - مرت السنوات الخمس؛ ليجد نفسه عقب مناقشة رسالة الدكتوراه يستعد للعودة إلى الجامعة المصرية، وها هو يتذكر أنه.. مثلما جاء إلى باريس في يوم عيد، غادرها أيضاً في يوم عيد.. وعلى المحطة ودعه أصدقاؤه، وكان من بينهم الدكتور "محمد على حافظ" الذي قال وهو يضم "زكي مبارك" إلى صدره: «من وقت إلى آخر سأمرّ على المنزل الذي كنت تقيم فيه يا دكتور لأتمرن على الصبر الجميل!» ويذكر "زكي مبارك" أن المطر كان ينهمر مدراراً في يوم رحيله، حتى ظنه يأخذ مدده من دموعه. وعقب عودته إلى القاهرة انشغل بشيئين، الأول: عمله في الجامعة كأستاذ للأدب، والثاني: إعداد رسالته للطبع وإصدارها في كتاب باللغة العربية يحمل عنوان "النثر الفني".

وقد احتفى الأستاذ "انطون الجميل" رئيس تحرير "الأهرام" بالكتاب، فنشر مقدمته على صفحة كاملة بالجريدة، ونشر في أعلاها صورة للدكتور "زكي مبارك" بالروب الذي يلبسه المتخرجون في جامعة باريس.

وقد أثار الكتاب عدة معارك أدبية فور صدوره، بين "زكي مبارك" وعدد من كتّاب عصره.. أعنفها معركته مع "طه حسين" التي يشرح "زكي مبارك" أسبابها، فيقول: «هناك رأى مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأى مسيو "مرسيه" ومن شايعه كالدكتور "طه حسين".. ويقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون "عيشة أولية" لا توجب النثر الفني، وإنما توجب الشعر؛ لأنه لغة العاطفة والخيال. وقد أعلن مسيو

"مرسيه" هذا الرأى فى واحدة من محاضراته التى افتتح بها دروسه فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس، قبل أعوام، ثم أذاعه مطبوعاً فى كراس خاص، وقد اختطف د. "طه حسين" هذا الرأى وأذاعه فى دروسه بالجامعة المصرية، ثم أثبته فى كتاب "المجمل" الذى اشترك فى وضعه للمدارس الثانوية، وكان من المنتظر أن يتبيّن مسيو "مرسيه" ومُشايعُه "طه حسن" أن العصر الذى وَسَماه "بالأوليّة" عند العرب هو القرن الخامس للميلاد. لكن غاب عن بال الرجلين أن النثر الفنى كان موجوداً فى هذا العصر عند أكثر الأمم التى جاورت العرب أو عرفوها كالفرس والهنود، والمصريين، واليونان، وليس بمعْقول أن يكون لتلك الأمم نثر فنى قبل الميلاد، ثم لا يكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون، كأن العرب انفردوا فى التاريخ القديم بالتخلف فى ميادين العقل والمنطق والخيال».

وعلى أية حال، لقد تجاهل الدكتور "طه حسين" كتاب "النثر الفنى" ولم يذكره إلا عرضاً فى تعليقه ووصفه بأنه «كتاب من الكتب، أخرجه كاتب من الكُتّاب»!. وقد اغتاظ "زكى مبارك" كثيراً لهذا التجاهل؛ لأن كتابه "النثر الفنى" هو خلاصة بحث أكاديمى متواصل طوال خمس سنوات فى جامعة باريس، وهو يعتقد أنه أهم مؤلفاته على الإطلاق، وأن التاريخ لن يذكره يوماً، إلا لأنه ترك فى الحياة أثراً، هو هذا الكتاب الذى ستبلى - كما يقول - أحجار الجامعة المصرية، ويبقى هو مثلما بليت المدرسة النظامية، وبقيت مؤلفات "الغزالى"!.

ومما أغضبه أيضاً أن وزارة المعارف العمومية لم تنشر من الكتاب سوى أربعين نسخة فقط؛ لأن مؤلفه - حسبما يقول "زكى مبارك" نفسه: «ليس له فى الحكومة المصرية عم ولا خال!!».

"الأستاذ" على حق..

على أية حال، لقد ظل "زكى مبارك" وفياً فى مصر للغة الفرنسية التى يعشقها، فكان يحرص على أن يتحدث بها مع أبنائها، ويُنافس العلماء الفرنسيين فى الإحاطة بعلومها، فيروى أنه فى إحدى جولاته التفتيشية على مدرسة الليسيه بمصر الجديدة، صحح خطأ فى الترجمة لتلميذ، فاعترض مسيو "دى كومنين" مدير المدرسة، ورئيس الجالية الفرنسية بمصر فى ذلك الوقت وقال: التلميذ على حق!

فرد الدكتور "زكى مبارك" قائلاً: «إنك يا مسيو دى كومنين لا تعرف اللغة الفرنسية». ثم تجادلنا نحو ثلاثين دقيقة. وحين انهزم قال: لا يؤذينى أن يهزمنى الدكتور "زكى مبارك" فى لغتى فهو متخرج جامعة باريس، وهزيمتى تشريف لى على كل حال.

فقلت: أرجوك يا مسيو "كومنين" أن تسمع: «إن اللوحة الفنية إذا رأيتها من قرب لا تروقك، ولكنك حين تراها من بُعد تروقك. وأنت رأيت لغتك من قرب وأنا رأيتها من بُعد، ولهذا صرت أفصح منك!».

وكان مسيو "دى كومنين" تربطه علاقة طيبة بزكى مبارك تعود إلى سنوات بعيدة، فهو الذى اختاره؛ ليكون رئيساً لقسم اللغة العربية والترجمة بمدرسة الليسيه فرانسيه، كما زار قرية سنتريس.. ويصف "زكى مبارك" هذه الزيارة فيقول: «زارنا سنتريس أول مرة فى يوم شم النسيم فاكرمنا أبى، وكان يوماً قائظاً، فتمدد مسيو كومنين على كنبة من السلاملك وأخذت زوجته تمسح العرق من وجهه وتقبله، فرأى أبى أن هذا منظر جميل»، ويذكر "زكى مبارك" أن مسيو "كومنين" كانت تربطه علاقة ود طيبة بوالده "عبدالسلام مبارك".. يقول: «عندما مات والدى أرسل مسيو "دى كومنين" برقية مُطوّلة، ولم يكتف بهذا، وإنما حضر بنفسه إلى

سنتريس وسمع القرآن الكريم.
ثم قال : هذه آخر زيارة لمدينة سنتريس.
فقلت: لماذا؟
فقال: مات مسيو "مبارك" وكنت أرى فيه صورة من أبناء وطنى.
فقلت: فى وجهى صورة أبى.
فأجاب مسيو دى كومنين بعبارة فرنسية جميلة، معناها: هيهات.. هيهات.

محمد لطفي جمعة:

«..إن باريس لا تنام، وفيها أماكن وجماعات وأفراد لا يعرفون الكرى.. مدينة جميلة، وذكية، وعالمة، وعفيفة، وحاذقة، وفاجرة، وصريحة، وماكرة، ولعوب، وذات جِدّ ووقار، ومباحة وذات أسرار.. مَثَلُها لدى عالم النفس والاجتماع كمثل طبقات الأرض التي تكوّنت في مدى ملايين السنين».

فى إبريل عام ١٩٠٨ حزم "لطفى جمعة" أمتعته المتواضعة، وركب البحر مُتوجهاً إلى فرنسا.. وعلى ظهر الباخرة «البرنس هنرى» كان أول لقاء مباشر له مع المرأة عندما دعته سيدة أرمنية جميلة إلى صالون الباخرة، وأخذت تعزف على البيانو، وتغنى بالأرمنية والتركية ـ فقد كانت تظنه تركياً ـ بصوت جميل، وترنو إليه بعينين دعجاوين، وتختلس نظرات ذات معنى..

لكنه كما يقول عن نفسه، كان فى شغل شاغل، يكاد لا يعى معانى الكلام العادى، فما بال هذه الصبية الحسناء، وكان قد عقد النية وهو على أعتاب مشوار طويل، أن يفرّ من النساء مهما كان الثمن!

وفى ميناء مرسيليا، وجد "لطفى جمعة" نفسه وحيداً إلا من حقائبه، ولم يكن يحمل حينذاك سوى خمسة جنيهات إنجليزية يربطها فى حزام حول خصره، فركب مركبة إلى محطة السكة الحديد؛ ليلحق بالقطار السريع المتجه إلى مدينة "ليون".

أما لماذا "ليون" بالذات، وليس العاصمة باريس؟! فلأن هذه المدينة كانت فى ذلك الوقت ـ أى فى بدايات هذا القرن ـ مقصداً لكل طلاّب الحقوق بفضل مسيو "لامبير" الذى عمل لعدة سنوات مديراً لمدرسة

الحقوق الخديوية، ثم عاد إلى "ليون" بعد أن اصطدم بالإنجليزي «دنلوب» حول خطته الرامية إلى (نجلزة) التعليم في مصر.

ويُقال إن عدد الطلاب المصريين الدارسين في جامعة ليون بلغ نحو ٣٠٠ طالب في عام ١٩١٠ من بين أصل ٤٠٠، هو مجموع الطلاب الذين كانوا يدرسون في مدرسة الحقوق الخديوية في ذلك الوقت، والسبب هو أن آباء هؤلاء الطلاب استشعروا الخوف من الأضرار التي قد تلحق بأبنائهم من تأثير «النجلزة»، وفكروا في إرسالهم إلى أوروبا - فرنسا وسويسرا تحديداً -، خصوصاً بعد أن أسند الإنجليز إدارة مدرسة الحقوق إلى مُدرّس إنجليزي دون المستوى هو "مستر هيل" بينما أناطوا مسئولية التدريس بأساتذة غير أكفاء.

أما السبب الآخر لإقبال طلاب الحقوق المصريين على الدراسة في جامعة "ليون" فهو أن تكاليف الدراسة للطالب لم تكن تزيد على اثنى عشر جنيهاً في الشهر الواحد، وهو مبلغ يمكن أن تدفعه بعض الأسر المصرية في ذلك الوقت دونما أدنى إحساس بالعبء.

نزيل بفندق «الغرباء»!

عندما وصل "لطفي جمعة" إلى "ليون" وكان ذلك في منتصف الليل، والمطر ينهمر، والمنظر يبدو كئيباً مُقبضاً، وقعت عيناه على مركبة ضخمة باسم فندق «الغرباء» فاستقلها، ولما بلغ الفندق، استقبلته ربة المنزل ورحبت به، ولكنه لم يفهم كلمة مما قالت. وقادته إلى حجرة بالدور الثالث مُطلة على فناء خرب. إلا أنه لم ينم ليلته تلك، وبادر في الصباح الباكر إلى كلية الحقوق، فوجد الجامعة مُقفلة بمناسبة عيد الفصح، كما عرف أن أستاذه "لامبير" مُسافر في الريف، فقادته قدماه إلى حانوت «مساح أحذية» وعليه إعلان عن غرف مفروشة للإيجار، فدخل إلى

الحانوت، وسأل صاحبه عن هذا الإعلان، فأفاض الرجل في الكلام، الذي لم يفهمه "لطفي جمعة" بالطبع، ثم وضع في يده ورقة بالعنوان.. وإذا به يجد نفسه في الدور السابع بإحدى العمارات بشارع "فيكتور هوجو"، حيث استقبلته امرأة سمينة، شقراء، وأدخلته إلى غرفة فسيحة، فاستأجرها على الفور ودفع لها أجرة شهر كامل، ونقل أمتعته من فندق "الغرباء" إلى تلك الغرفة؛ ليبدأ مرحلة جديدة أكثر استقرار في مدينة "ليون".

أما أول زيارة قام بها، فكانت إلى مكتبة في ساحة «بلكور»، حيث اشترى كتاباً في القانون الروماني وآخر في الاقتصاد السياسي، وورقاً وكراسات وأقلاماً، وعاد إلى غرفته وأخرج قاموساً وبدأ يقرأ على ضوء مصباح الغاز، فلم تكن بعض الفنادق في "ليون" قد أضيئت بالكهرباء بعد.

أسباب السقوط

وبعد أيام فتحت الكلية أبوابها، والتقى "لطفي جمعة" بمسيو "لامبير"، وبدأ يحضر المحاضرات مع الطلبة الفرنسيين، ويذكر أنه لم يكن في الكلية في ذلك الوقت طالب مصري سوه، ولكي يتقن الفرنسية، عكف على قراءة الصحف صباحاً ومساء، وحضر تمثيل المسرحيات، وقصد الاجتماعات العامة، وأخذ يتلقف الكلمات ويغشى المجالس ويتكلم صواباً حيناً، وخطأ أحياناً حتى شق طريقه، ثم استقر رأيه على أن يكون بحثه حول «سبب سقوط الشرق وانحلال دوله وتدهور شعوبه، وسبب سيادة الغرب ونهوض أممه وغلبة حكوماته على بقية العالم».. وهو موضوع كان يشغل بال كثير من المفكرين والكتّاب في ذلك العهد.

ويروى "لطفي جمعة" أنه اختار هذا الموضوع بحماس شديد؛ لأنه

عندما قرأ كتاباً ضخماً لمؤلفه «ليروا بوليو» يُمجد فيه الاستعمار الأوروبى فى الشرق، ويستنبط له قواعد وقوانين، شعر بجسده يرتجف من الغيظ، ووقر فى قلبه أن أوروبا قد نسجت حول الشرق فخاً من الفولاذ، خصوصاً بعد أن صار الاستعمار علماً بقواعد وأركان، وفناً بأصول وفروع..

وهذا الموقف ليس غريباً على كل حال من "لطفى جمعة"؛ لأن من يقرأ بعض صفحات من حياته يتبين أن هذا الرجل قد خُلق من عجينة غير عجينة بقية المبعوثين المصريين فى هذا الزمان.. وربما فى زماننا أيضاً.

المتمرد الصغير..

ففى المرحلة الثانوية قام "لطفى جمعة" بتكوين جمعية للبحوث العقلية والعلمية، تضم مجموعة من رفاقه فى المدرسة، وألقى محاضرته الأولى بعنوان «أوجه الشبه والاختلاف بين أبى العلاء المعرى وليوتولستوى».. وعندما ذكر أن المفكرين والزاهدين، الواهبين أموالهم وأعمارهم للإنسانية يقتربون من درجات النبوة أو الرسالة الربانية، هاج الجمهور، واتهمه بالإلحاد.. واضطهدته المدرسة، وضيّقت عليه الخناق حتى فرّ منها، ورحل إلى بلاد الشام؛ لإتمام دراسته الثانوية بالكلية الأمريكية فى بيروت إلا أنه لم يطل به المقام هناك. فعاد إلى مصر ويحث عن عمل ليقتات منه، فاشتغل مدرساً للغة الإنجليزية وكان من تلاميذه "عبد الرحمن عزام".. وعندما بلغ العشرين من عمره سافر إلى أوروبا وقام بجولة شملت إيطاليا وفرنسا وألمانيا وسويسرا وإنجلترا، وعرّج على تركيا ودول البلقان.. وبعد أن وصل إلى مصر نصحه الزعيم "مصطفى كامل" بأن يواصل دراسته فى مدرسة الحقوق فى فرنسا.

كان همُّه الأول والأخير هو مصر، وكيفية التخلص من الاستعمار الإنجليزي، ولذلك وضع أول مؤلف له بعنوان «تحرير مصر» وأهداه إلى "مصطفى كامل" الذي همس في أذنه ناصحاً، وقال: «رياك يا لطفي والاشتغال بالسياسة دون أن يكون لك عمل ثابت ومورد رزق معروف، فإنهم في مصر يَصِمُونَ الخادم المتفرغ لمصلحة الوطن بالنصب والاحتيال».

أنشطة مختلفة..

ولذلك ما أن اطمأن "لطفي جمعة" لدراسته في جامعة "ليون"، حتى عاودته «رغبة» في تنظيم أنشطة سياسية واجتماعية يرى أنها مكملة لشخصيته من ناحية، وواجب يفرض نفسه على أبناء الشعوب المُتطلعة إلى الاستقلال من ناحية أخرى. فكان أن نادى بتأسيس جمعية مصرية للطلاب المصريين، ولعلمه بحب الرئاسة "والتناطح عليها - كما يقول - "تواري واكتفى بإيحاء الأفكار". حتى إذا انعقدت الجمعية العمومية، قال لهم: «أقترح عليكم أن تكون جمعيتنا بدون رئاسة دائمة، بل يُنتخب رئيس في كل جلسة. فقال أحدهُم: ولِمَ هذه البدعة؟ ولِمَ لا ننتخب رئيساً دائماً مثلاً؛ لأنك صاحب الفكرة. فقال: «لسبب بسيط، وهو رغبتي في أن يتدرب كل واحد منا على الرئاسة؛ ولأجل أن يجود كل عقل بخير ما فيه من الأفكار». ففرحوا بهذا الرأي، وكانت هذه الجمعية خلية عمل ناجحة في التمهيد لعقد المؤتمرات الوطنية في جنيف وبروكسل وباريس في الأعوام ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١.

وانطلاقاً من الرغبة نفسها شارك "لطفي جمعة" في المعهد الذي أسسه مسيو "لامبير" وأطلق عليه اسم «خُلوة الشرق»؛ لمواصلة الأبحاث العلمية الجادة في الشريعة الإسلامية ومقارنتها بالشرائع الأخرى.

وكان يقوم بإلقاء المحاضرات العامة فى المعهد، وقد خلفه الشيخ "مصطفى عبد الرازق" فى فترة غيابه..

كما تأسست لاحقاً، فى مدينة "ليون"، هيئة علمية جديدة أطلقت على نفسها اسم «المجمع العلمانى» (ميسون لايك) برئاسة مسيو "هريو" عمدة مدينة "ليون"، وكان "لطفى جمعة" عضواً فيها إلى جانب مسيو "لامبير"، ومسيو "بورت".

الجامعة لا تسمع!

.. وبعد أن نفدت نقوده، واجهته مشكلة تأمين مصادر الرزق، فاشتغل "لطفى جمعة" مُراسلاً لجريدة «اللواء»، مقابل مبلغ ضئيل، وظلت الأزمات المالية الطاحنة تلاحقه، فكتب فى مذكراته، يقول: «لا يغيظنى، ويقهرنى إلا فقرى وخوفى من عدم إتمام الدراسة لقلة المال».

وحدث أن جاءه خطاب من أهله فى طنطا لمح فيه عزمهم على استدعائه إلى مصر، فلما خطر بباله هذا الخاطر، وظنّ إمكان حرمانه من إتمام تعليمه، صمم على الهجرة إلى تونس بحثاً عن عمل يُمكّنه من توفير نفقات تعليمه، كما كتب فى ذات الوقت إلى الجامعة المصرية يطلب مساعدتها والإنفاق عليه، إلا أن سكرتيرها "أحمد زكى باشا" لم يرد عليه، فكتب "لطفى جمعة" فى مذكراته، يقول متألماً:

«هذا الإنسان العجيب "أحمد زكى باشا" سكرتير الجامعة كتبتُ إليه مُستنجداً، لألتحق بإرسالياتها التى يبعثون فيها جماعة من الجُهّال إكراماً لأقاربهم وأصحابهم، فلم يُجبنى، وهم يدّعون أنهم يساعدون العلم والمتعلمين.. ولكن أظن أن أفكارى السياسية هى التى تجعلنى شوكة فى حلقهم، فالحمد لله على ذلك».

أما الكتاب الذى اشتراه "لطفى جمعة" فى مدينة "ليون"، وكان مُحببًا إلى قلبه، فهو كتاب «اعترافات چان چاك روسو» ، وقد أقبل عليه بشغف.. ويذهب إلى أن العرب لم يكتبوا عن "روسو" شيئاً مهماً؛ لأنه ليس مؤلفاً يُغريهم، فهو مشهور بأنه من دعاة الثورة الفرنسية، وكان المصريون فى أوائل القرن العشرين يخشون ذكر الثورة؛ لأن الإنجليز أرهبوهم وأرعبوهم..

ثم بعد عدة شهور انتقل "لطفى جمعة" إلى باريس، ونزل بفندق «نوتردام دى ليسبرانس» «سيداتنا ذات الأمل» بشارع فوجيرار، بالقرب من حى مونبرناس، وميدان المرصد، ومدرسة الفنون الجميلة، وكنيسة نوتردام.. وهناك أخذ يطوف بشوارع باريس، ويتخلل طرقاتها، وكان يشعر بأن كل خطوة، وكل زاوية قد شهدت جانباً من التاريخ، كما سالت فيها دماء صرعى المبادىء وصرعى الهوى!!

وَصْفُ باريس

وقد كتب "لطفى جمعة" يصف باريس فى مقالة بعنوان «صفحة من صباى» يقول: «فى الحقيقة إن باريس لا تنام، وفيها أماكن وجماعات وأفراد لا يعرفون الكرى، وإن كانت الحقيقة فى أغلب الأشياء لا تنطبق على الخيال الذى يرتسم فى الذهن قبل المشاهدة، فإن باريس بلا ريب استثناء لتلك القاعدة؛ لأن حقيقتها أعظم من خيال يرتسم فى ذهن القادم عليها؛ لأنها مدينة جميلة، وذكية، وعالمة، وعفيفة، وحاذقة، وفاجرة، وصريحة، وماكرة، ولعوب، وذات جدّ ووقار، ومُباحة، وذات أسرار.. بل هى سجل للحياة وقاموس للوجود، ومعرض لكل أنيق ودقيق وجليل وذميم وحقير. ومثلها لدى عالم النفس والاجتماع كمثل طبقات الأرض التى تكوّنت فى مدى ملايين السنين.

وفي باريس التي تعاصرك آثار من اللاتين، والقرون الوسطى ومذبحة سان برتلمي، وأُبّهة المُلك المُطلق، وحرب الطبقات، وثورة ٧٩، وفتنة الشاعية (La Commune) والفروسية، والفنون والأدب، وفي كل بقعة من بقاعها بل في كل درب من دروبها موعظة وذكرى، ولذة وألم، وسرور للنفس وانقباض للقلب. وفي كل عمارة من عمائرها أو ساحة من ساحاتها الكبرى ما تهتز له أوتار القلب، وتختلج له ذرات الفؤاد.. فهنا حلقة للدرس، وهناك أثر سجن مظلم، وعن اليمين قصة غرام، وعن اليسار ذكرى مجزرة بشرية في سبيل المثل الأعلى.. أستغفر الله، بل في سبيل المُثل العليا. فقد جعل الفرنسيون لكل شيء مثلاً عالياً، فهنا شهداء الحرية، وشهداء العلم، وشهداء العدل، وشهداء المال، وشهداء اللذات، وشهداء الجريمة، حتى الجريمة في أبشع مظاهرها لها في باريس شهداء!».

ثم يسترسل "لطفي جمعة" واصفاً ظروف السُكنى والإقامة في باريس، فيقول: «عليك أولاً أن تعثر فيها على السكن الذي تأوي إليه، سواء أكان نزلاً فخماً في حي الشانزليزيه، أو بيتاً وسطاً في الربع "الحي اللاتيني"، أو وكراً صغيراً في شارع فوجيرار أو "رو دساس" الذي عاش فيه معظم عظماء المصريين في الجيل الغابر أمثال "مصطفى كامل" و"محمد فريد" و"حسين رشدي" وغيرهم؛ لأنه على مسيرة خطوات معدودة من هذا الشارع الهادئ الجميل تحدّه من الشرق دار الولادة «ماترنيتيه»، ومن الغرب حديقة لكسمبورج.. ويصل السائر في هوادة إلى ميدان الرصدخانة أو المرصد (بلاس دى لويسرفتوار) وفيه يقع مرقص "بوليه"، وكان المحل المختار في عهدي لطلاب الحقوق والآداب والفنون. وكانت تُقام فيه كل سنة حفلة مرقص "الكاتزار" وعن الشمال

محطة السكة الحديدية إلى ضاحية "جيف"، حيث كانت تقيم ـ ولا تزال تقيم ـ مدام "جولييت آدام" حليفة المصريين فيما مضى، وحبيبتهم وأمهم الحنون، وربيبة بطلهم الوطنى الأول "مصطفى كامل"..

عظماء.. فى فندق "روسو"

وعن اليمين يقع "بوليفار سان ميشيل" بدبكته ودربكته وهرجه ومرجه وغوغائه وضوضائه وجلبته التى لا تنقطع، وقهواته التاريخية..

«أما إذا سرت قُدُماً وأخذت سمتك على الربوة العالية، فستجد مقبرة "البانتيون" إلى يمينك، وهى مدفن العظماء أمثال فولتير، وروسو، وهوجو، وزولا.. ثم الكوليدج دو فرانس، ومعهد السوربون ومدرسة "النورمال"، وكلها مصادر النور الذى انتشر فى أنحاء أوروبا اللاتينية، وإلى اليمين بانحراف يقع شارع "چان چاك روسو" وفيه فندق "چان چاك روسو" الذى نزلته، كما نزله فى زمنى كل طالب مصرى عند قدومه الأول إلى باريس، فقد دلنى عليه "عثمان غالب باشا"، والأستاذ "مرسى محمود" والدكتور "منصور فهمى"، و"توفيق باشا الساوى"، و"سيد كامل".. فقد اجتمعنا كلنا ليلة قدومهم موفدين من الجامعة المصرية فى صيف سنة ١٩٠٧، ولا أزال أذكر صلاح "منصور فهمى" وتقواه؛ إذ كان يبحث عن قبقاب وإبريق للوضوء، فقد كان هذا عهد تصوفه وانشغاله بقراءة كتاب "عوارف المعارف" للسهروردى، كما كان "سيد كامل" يبحث عن كتاب "سينيبوس" فى تاريخ أوروبا الحديث، وكما كان غيرهم يبحث عن أستاذة تعلمه اللغة الفرنسية بشرط أن تكون فتية وجميلة؛ لتكون قاموساً للخلوة السعيدة!».

ثم يروى "لطفى جمعة" أن الركن الذى أحبه أكثر من أى شىء آخر،

كان مقعداً في "بارك مونصو"، حيث كان يشهد تمثالاً لتخليد ذكرى الكاتب الأوحد الذي شغف بقراءة كتبه في ذلك الوقت وهو "چي دي موباسان"؛ لأنه أسعده أياماً، وليالي لا تُحصى، وتعلم منه الكثير من دروس الحياة عبر مؤلفاته، وفتّح عينيه على طبيعة الرجل والمرأة، ورفع له النقاب عن طبيعة المجتمع، وحاز إعجابه؛ لرشاقة أسلوبه ورقة تفكيره، وكان يعتبره أعظم قصاص في العالم وأبا القصة القصيرة.

وبعد أن يصف التمثال والمرأة المضطجعة أمامه والمتكئة برأسها الجميل، الذي يشبه رءوس عصافير الجنة على معصمها الفتّان.. يقول: «كنت أجلس حيال هذا التمثال في وقت الأصيل، وبين يديّ كتاب من مؤلفات هذا الرجل العظيم "چي دي موباسان" وفي لحظة عين أستعرض حياته وكتبه ومصيره».

نصيحة شاعر النيل!

.. كما طاف "لطفي جمعة" بحدائق باريس الشهيرة مثل سان كلو، ولكسمبورج، وفونتينبلو، وأخذ يقرأ ويكتب ويشهد التمثيل في أرقى الملاعب، ويغشى مجالس الأدباء والعلماء.. وبعد عدة شهور، عاد إلى القاهرة، فلقيه صديقه شاعر النيل "حافظ إبراهيم" الذي نصحه قائلاً: «اذهب يا "لطفي" ولا تعد إلا بعد إكمال دروسك». فعمل بالنصيحة وعاد إلى مرسيليا بعد أيام وانطلق منها إلى "ليون"، وفكرّ في أن يقوم بسياحة في بلاد الأندلس ومراكش، والجزائر وتونس؛ ليكتب عنها كتاباً ويخطب في أبنائها، ثم يشرح لإخوانه هناك مشروع دعوة أمم شمال أفريقيا للاجتماع؛ لتأليف وحدة سياسية تربطها عدة روابط أدبية، ومادية.. ثم اهتم لاحقاً بدراسة الهيروغليفية، على أيدي البروفيسور

"لوران"، وقام بنقل حِكَم «بتاح حوتب» الموجودة فى دار الآثار بـ "ليون" إلى اللغة العربية، كما شرع فى إتمام تعريب كتاب "الأمير" لميكيافيللى، وإعداد كتاب آخر بعنوان «حِكَم نابليون»، وتضم الأقوال المأثورة التى قالها "نابليون" فى السياسة والتاريخ والحرب والمرأة.

ثم يذكر أنه بدأ يهتم بدراسة الفلسفة، وقد نصحه مسيو "جوبلو" أستاذ الفلسفة فى جامعة "ليون" بالانصراف عن أرسطو وأفلاطون، وقال له تقرأهما فى أوقات الفراغ، أما الآن فعليك بكتاب «الطريقة» لديكارت، يقصد كتاب «مقال فى المنهج»، فهذه بداية الفلسفة الحديثة، فأخذ برأيه وحضر عليه دروساً وقرأ عليه «الطريقة» كلها، كما حضر عليه دروساً فى المنطق.

ثورة ضد قانون الصحافة

وعندما بلغته ـ وهو فى قمة انشغاله بالمعارف والتحصيل ـ أنباء عن إعادة قانون المطبوعات الذى يسعى الإنجليز والخديو فى مصر إلى تنفيذه، دعا أبناء الوطن المقيمين فى "ليون" والضواحى، واقترح عليهم نشر احتجاج فى صحف "ليون"، وإلقاء خطاب عن حرية الصحافة، وبالفعل زار إدارة جريدتين، وترك فى كل منهما مقالة احتجاج، كما خطب فى اليوم التالى فى مقر جمعية الطلاب المصريين فى "ليون" فى جمع حاشد من الفرنسيين، حضره أربعة من كبار محررى الصحف وبعض مندوبى جمعيات الطلاب، وقد نشرت جرائد "ليون" حينذاك ما دار فى هذا الاجتماع.

وبعد فترة، انتقل "لطفى جمعة" إلى جنيف، وفكرَّ فى وضع كتاب باللغات الثلاث بعنوان «مصر تتهم إنجلترا»، يشرح فيه «المسألة

المصرية»، وبدأ بالفعل فى تجميع مواد الكتاب، وانشغل بكتابة المقالات فى بعض الصحف، ويعقد اللقاءات مع زملائه ودعوة الصحفيين الفرنسيين والأجانب؛ لإطلاعهم على حقيقة ما يجرى فى مصر تحت نير الاستعمار الانجليزى، وقد واظب "لطفى جمعة" على مراسلة رجال السياسة، كما لم تنقطع مراسلاتهم إليه، أمثال "فريدريك ريان" الأيرلندى و"شيام مبحى"، و"كريشنا فارما" الزعيم الهندى، الذى كان مُقيماً فى باريس، كما لم ينقطع فى الوقت ذاته عن التأليف، فوضع فصولاً من كتاب: «تاريخ نهضة الشرق» أو «تحرير أمم الشرق».. وعندما اطّلع على القانون الخاص بحقوق الإنسان فى فرنسا، فكرّ فى وضع رسالة باللغة العربية يوضح فيها للمصريين حقوقهم.

وقام بدور مهم فى الإعداد للمؤتمر الوطنى الذى انعقد فى جنيف فى ١٣ سبتمبر عام ١٩٠٩، وحضره جميع المصريين فى فرنسا، وأنحاء أوروبا، كما حضره جمع حاشد من الفرنسيين والإنجليز ورجال الصحافة والمراسلين، ونجح المؤتمر نجاحاً أثار دهشة الزعيم "محمد فريد"، الذى قبّل "لطفى جمعة"، وبكى وهو يضمه إلى صدره قائلاً: «أنت ابنى، أنت خليفتى..».

....

وبعد أيام من انتهاء المؤتمر سافر "لطفى جمعة" إلى باريس بناء على دعوة "محمد فريد"، حيث التقى معه بـ "طلعت حرب" و"فرح أنطون"، وفكر فى إنشاء جريدة «ليندار اچيبسيان»، وقام بزيارة مدام چوليت آدام"، ثم عاد إلى مدينة "ليون"، حيث اشتغل بالمطالعة والقراءة وكتابة مذكراته عن المؤتمر وكتابة المقالات لجريدة «اللواء»، ومقال عن نهضة الشرق لمجلة «الشرق» فى باريس..

وبعد أن حصل "لطفى جمعة" على درجة الليسانس فى الحقوق، استعد لدراسة الدكتوراة، إلا أنه ظل مشغولاً بقضايا بلده، متنقلاً بين باريس وليون وجنيف، وبروكسل وروما، داعياً لعقد مؤتمرات وطنية أخرى، حتى اعتبره البعض قائداً لجيش مصر فى الخارج.. ثم عاد إلى مصر؛ ليواصل نضاله فى الكتابة والتأليف والمحاماة، حتى وافته المنية فى عام ١٩٥٣.



د. لويس عوض:

«.. قناعتى هى أن مصر لن تتقدم إلا إذا انحازت الدولة للقيم الجديدة، ووقفت فى صف الفكر الحر، وإلا فإن الشارع المصرى الغوغائى هو الذى سينتصر فى معركته مع المفكرين ورواد النهضة والتنوير».

(١)

أول مرة التقيت فيها بالراحل الدكتور "لويس عوض" كان فى صيف عام ١٩٨٨ عندما اتصل بى الدكتور "أحمد حسن البُرعي" الذى كان يشغل منصب مستشار مصر الثقافى فى باريس فى ذلك الوقت؛ ليخبرنى أن الدكتور "لويس عوض" موجود فى مكتبه.. فهرولت إليه، وكنت أشعر بسعادة تغمر كل كيانى، فهاأنذا سوف أرى الدكتور "لويس" الذى كان والدى البسيط يعشقه بالدرجة نفسها التى يعشق بها "طه حسين" وزير المعارف «الأعمى»، كما كان يسميه على طريقته الريفية.

وبعد أقل من عشر دقائق عشت فيها مع صورة "لويس عوض" كما اختزنتها ذاكرتى عن أبى، وجدتنى أمامه فى مكتب المستشار الثقافى، وما إن مددت له يدى مُرحباً حتى أصر الرجل بتواضع جمّ أن يُسلم عليّ واقفاً.

وطلب إليّ فى مودة أن أجلس إلى جواره، ثم استطرد يُكمل ما كان

مشغولاً فيه من حديث مع الدكتور "البرعي" حول كيفية توطيد العلاقات الثقافية ـ حسبما تبين لى فيما بعد من متابعة الحديث ـ بين مصر وفرنسا.

وعندما وجدت الفرصة سانحة، اقترحت أن نعقد ندوة للدكتور "لويس" بالمركز الثقافى فى خلال اليومين القادمين، فوافق المستشار الثقافى على الفور، خصوصاً بعد أن وجد ابتسامة رضا على وجه الدكتور "لويس عوض" بخصوص الفكرة..

وأذكر أنه طلب إلىّ ـ بسبب ارتباطه ببعض المواعيد فى مكتبه ـ أن أذهب مع الدكتور لويس إلى عدد من المسارح الباريسية؛ لأنه يريد أن يقوم بحجز أماكن له لمشاهدة بعض المسرحيات التى كانت تقدم فى ذلك الوقت، وبسرعة وجدتنى أجلس بجوار الدكتور لويس فى السيارة، واتجهنا إلى المسارح القريبة من قصر الإليزيه، ثم إلى المسارح الواقعة فى ساحة «الشاتليه» والأخرى القريبة من الحى اللاتينى والمجاورة لمركز "چورج بومبيو" الثقافى الضخم.

وما أذكره الآن، أنه كان يحدثنى عن تعلقه بباريس منذ بواكير شبابه، وأنه يحرص على زيارتها مرة على الأقل كل عام؛ ليقف بنفسه على آخر ما تنتجه العقلية الفرنسية فى دنيا الفكر والثقافة والأدب ..

أما المسرح، فهو عشقه الدائم الذى لا تكتمل زيارته لباريس بدون مشاهدة أهم عروضه، وأشهد أننى كنت أستمع إليه مبهوراً، لا أعلق

بكلمة واحدة، فمن أنا حتى أرد أو أعلق على ما يقوله "لويس عوض"!

ويعد أن حجزنا أماكن فى أربعة مسارح، طلب إلى السائق أن يعود به إلى فندق "كاليفورنيا" الذى يقع فى منتصف شارع المدارس بجوار جامعة "السوربون" العريقة، وأمام "الكوليدج دى فرانس" مدرسة الاستشراق الأولى فى فرنسا.

وعندما وصلنا إلى الفندق، التفت الدكتور "لويس" نحوى، وقال مبتسماً قبل أن يهبط من السيارة: «هذا الفندق هو كاتم أسرارى منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، فهو مكان إقامتى فى كل مرة أزور فيها باريس».

وفى المساء أخبرنى المستشار الثقافى أن الندوة المقترحة ستُقام يوم الجمعة مساءً، ورشحنى للقيام بإلقاء كلمة..

وأذكر أنى قمت بقراءات سريعة لفكرتين أساسيتين عند "لويس عوض":

الأولى: تتعلق بحبه لمصر التى يُطلق عليها المعشوقة السمراء، والأخرى خاصة بحبه للحرية أو المعشوقة الحمراء، فقلت فى تقديم كلمتى: كنت قد رسمت فى الصغر لأستاذنا الدكتور "لويس عوض" صورة المفكر الذى يحمل على كاهله هموم حياتنا الأدبية والثقافية ويمتشق قلمه كالفارس فى الميدان؛ ليذود عن طموحاتنا وتطلعاتنا التى بهتت ألوانها؛ وليدفعنا فى طريق الأدب الراقى، حيث نلتقى هناك

برموزه الكبيرة فى الشرق والغرب.

وأشهد أننى عندما التقيت به لم تختلف الصورة كثيراً؛ إذ وجدتنى بالفعل أمام مفكر من الطراز الأول الذى أحسب أن "فريدريك نيتشه" الفيلسوف الألمانى المعروف كان يعنيه بخطابه عندما كتب يقول ذات يوم: «إذا كان الفكرُ قد قُدِّر عليك، فقدس هذا القَدَر تقديساً إلهياً، وَضَحِّ له بأعز ما لديك، وقَدِّسْه».

والحق أن أستاذنا "لويس عوض" كان قد حمل أمانة الفكر فى صدره، وسكبها عبر قلمه فى مؤلفات أدبية وفكرية عديدة، تُعد اليوم من أخصب ما تضم مكتبتنا العربية المعاصرة؛ لأن الدكتور لويس لا يعتنى فحسب بالفكرة وما تحمل من معان، ولكن يهتم أيضاً بإلباسها أبهى حُلة من حروف لغتنا العربية، حتى لتشعر أثناء قراءتك لكتاباته بلذتين. الأولى: لذة الأفكار التى تحملك معها؛ لتحلق فى دنيا القيم الإنسانية العليا، والتى تفيض بها كل مؤلفاته سواء فى مجال النقد الأدبى، أو فى مجال تأريخ الفكر بصفة عامة.

والثانية : لذة الأسلوب، فالدكتور لويس يصوغ عباراته فى دقة متناهية، حتى ليحلو للبعض أن يصفه بأنه صاحب أسلوب محكم، إذا انفرطت منك كلمة أو عبارة أثناء قراءتك لإحدى مقالاته تضيع من بين يديك على الفور معانيها الغزيرة.

المعشوقة السمراء!

قلت فى كلمتى مُستطرداً: اقرأ معى هذا النص الذى أحار عندما أحاول أن أصنفه. هل هو من الشعر الرفيع أم من النثر البليغ أم من الاثنين معاً؟ وهو من مقالة للدكتور لويس بعنوان: «معشوقتى السمراء»، ويعنى بها مصر. كان قد كتبها فى فبراير ١٩٥٤، يقول: «حبِّى منجم لا ينضُب ماسه، خذى الماس من أحشائك، ولتكن عروقك من عروق الذهب؛ لأن دمى الذهبى يجرى فى عروقك. ولتكن عظامك من الفضة، ولتكن غضاريفك من الدرِّ المكنون. سيدة أنت فى العالمين: فوق رأسك السماءُ الزرقاء من زرقة بحر الروم، وجنة عدن تحت قدميك، فمن فيض الكوثر نبع، ومن رحمك يخرج المُخلِّص حوريس مَاحِقُ الشر، وناشر السلام الأبدى. مهرك هذه الغلالة الخضراء، فخذيها واسترى بها جمالك الوهاج: أرق من نسيج العناكب الخُضر غلالتك الخضراء.. غلالتك الخضراء ساترةٌ كاشفةٌ.. غلالتك الخضراء بادية خافية.. خذيها فقد غزلتها وحدى على نول الزمان. هى مهرُك يوم الزفاف، وادْخلى البيت العالى يا معشوقتى السمراء. أنت مُديرة البيت.. ضعى الزيت فى السراج وأشعلى السراج، فأنت مذكية النار التى لا يخبو لها لهيب».

وتابعت أقول فى كلمتى: ترى لو فكرت على طريقة "عباس العقاد" الخاصة بمفاتيح الشخصية، فماذا عسانى أجد كمفتاح للولوج إلى دنيا وفكر وأدب "لويس عوض"؟

أعترف أن هذا السؤال الذى ألحّ على خاطرى طويلاً، وجدت إجابته سريعاً فحسبنا أن نستمع إليه وهو يتحدث إلى تلاميذه؛ لندرك على الفور أنه يتكلم فى حرية، وكأن سيل أفكاره لا ينقطع، ويكتب فى حرية، وكأن قلمه لا ينضب وصفحاته لا تنتهى، ثم ماذا أقول؟ هل أقول إنه يضحك أيضاً فى حرية، وينتقد فى حرية، بل وينفذ إلى أعماق الوجود بكل حرية؟

نعم.. الحرية هى مفتاح شخصيته؛ إذ لا أستطيع أن أتصور د. لويس بدون هذا "المناخ الحُرِّى".. (وأنا هنا أعتمد ترجمة "أحمد لطفى السيد" لكلمة: ليبرال).

المعشوقة الحمراء..

تعالوا نقرأ معاً وصفاً دقيقاً للحرية التى أطلق عليها "لويس عوض" اسم «المعشوقة الحمراء». صاغه بأسلوبه الفلسفى المتأدب أو الأدبى المتفلسف كعادته، وكان قد نشره فى الصفحة الأدبية بجريدة «الجمهورية» فى مارس ١٩٥٤.. يقول:

«يا معشوقتى الحمراء! يا معشوقة الأحرار!

دعى أباك، فعقل الوجود يهذى؛ لأنه فقد حريته.

يا حارسة أبواب الوادى، يا منية الأغلال، قد بنيت لكِ قصراً فى قلبى، والقلب أعقل من العقل..

فادخلى قصرك أيتها السعادة الحرة. أيتها الحرة السعيدة

قالت: أنا بنت عقل الإله، ومهرى ثمين يا عاشقى:

أسيرة كنت فى قصر عقلك، ولن أكونَ أسيرة فى قصر قلبك حتى تقدم المهر يا مُلتاع.

قال: نساء الوادى جواريك أيتها الجامحة!

قالت: أنا الحرية أعتقت الجوارى.

قال: رجال الوادى عبيدك يا مُعتقة.

قالت: أنا الشرارة صهرت أغلال عبيدى.

قال: كنوز "مينا" تحت قدميك، والذهب المكدّس فى بيبان الملوك. فاصهرى الذهب يا صاهرة.

قالت: لا أبا ع.. ولا أشترى...».

ومضيت فى كلمتى موجهاً حديثى للحضور: أرأيتم معى كم هو ـ أعنى أستاذنا د. "لويس عوض" ـ عاشق لهذه الحرية الجامحة ـ كما وصفها ـ التى ترفرف فى دنياه، فبات يشعر أنه وهى «صنوان».. حتى ليراها معبودته بل عروسه التى لا يخطب ود غيرها فى كل ما يكتب أو يقول.

ثم انتقلت فى كلمتى للحديث عن موقعه على خريطة العمل الأكاديمى والعلمى، وقلت الحق إن الباحث يجد أن اسم "لويس عوض" قد فرض ذاته ليس بمئات الصفحات التى ترجمها من التراث اليونانى القديم فحسب، ولكن أيضاً بمجلداته التى رصدت تاريخ

الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل.. ومن عصر إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩، ولعله بذلك بات ينطبق عليه الوصف الذى ساقه "توفيق الحكيم" يوماً عن "عباس العقاد" من أنه كان «نافذة واسعة على الفكر الغربى».. وأشهد أن هذا الوصف ينطبق على أستاذنا الدكتور "لويس عوض" بصورة أكثر إحكاماً من "العقاد"، فاهتمامه بتاريخ الفكر الأوروبى الحديث فى عصر "الرينيسانس" المعروف بعصر النهضة، لا يدع مجالاً للشك. فقد بيّن لنا فى أكثر من مؤلف الارتباط الوثيق بين ثورة الفكر الأوروبى ونشأة الحضارة الغربية الحديثة.. لعلنا نؤمن يوماً بالدور الذى يلعبه الفكر الصحيح فى مسيرة الحضارات وحياة الشعوب، أو على الأقل لنتأمل ملياً المقولة الشهيرة المنسوبة للفيلسوف الفرنسى المعروف "باسكال"، وهى أن كل عمل عظيم، كان فى الأصل فكرة عظيمة..

فى نهاية الكلمة، ضجت صالة المركز الثقافى بالتصفيق، وثار نقاش طويل مع الدكتور "لويس" الذى قال إن الكلمة أعادته إلى شبابه عندما كتب هذه المقالات.

وما أذكره الآن هو أن الدكتور لويس أصرّ بعد الندوة أن يصطحبنى معه، واضعاً يده على كتفى بحنو بالغ ـ أسعدنى وأبكانى معاً ـ واقترح أن أذهب معه إلى الفندق الذى يقيم فيه.

وفى الطريق طلب إلى أن أحدثه عن نفسى، وعندما وصلنا إلى

الفندق، وهو ليس بعيداً عن المركز الثقافي المصري، أخبرني ــ بعد أن جلست قبالته على المائدة ــ أنه لم ينجب أولاداً؛ ولذلك فهو يعتبر كل تلاميذه، أولاداً له، وأنا منهم.

أبهجتني كثيراً هذه المجاملة، وأخذت أحدثه عن أبي وعشقه القديم له، وعن دراستي التي أنهيتها في باريس عن الفكر الفلسفي والإصلاحي عند "عباس العقاد"، وعن عملي بجريدة «الأهرام»، مدرسة الصحافة العريقة في مصر والعالم العربي.

ثم طلب إليّ أن أصعد معه إلى حجرته التي وجدتها متواضعة، وتركني واقفاً حتى فتح حقيبته، وأخرج من بين أوراق فيها صورة، مسحها برفق في ملابسه، وقال لي بعد أن أجلسني بجواره: هل تعرف من صاحب هذه الصورة؟

شرعت أحملق فيها، فإذا بها صورة لصبي صغير لم أتبين ملامحه، لأن الصورة كانت قديمة، وبعد لحظات أخبرني أنها صورته عندما كان في التاسعة من عمره.. فاندهشت؛ لحرصه الشديد عليها، واعتزازه بها، خصوصاً عندما أخذها من يدي؛ ليضعها برفق وحذر شديدين ضمن أوراقه داخل الحقيبة.

وأذكر أنني قلت له إن نظراتك يا دكتور في الصورة كانت تتطلع إلى شيء ما في الأفق، ترى ما هو؟ فلم يرد، واكتفى بالنظر إليّ مُبتسماً، ثم عدنا إلى المائدة في الطابق الأرضي؛ لنشرب القهوة معاً.

.. يبقى أن نذكر أن الدكتور لويس كان يلتقى فى باريس بعدد من المثقفين المصريين الذين كانوا يعيشون فيها فى ذلك الوقت. منهم الشاعر "أحمد عبد المعطى حجازى" الذى كان يحرص على أن يمضى أطول وقت معه، والدكتور "غالى شكرى" و"محمود أمين العالم"، و"صبحى شفيق"، و"أمير اسكندر"، و"عبد الرشيد محمودى"، والفنان "يوسف فرنسيس" الذى كان يشغل منصب مدير المركز الثقافى المصرى وقتئذ، والفنان "آدم حنين" وزوجته "عفاف الديب"، والفنان "رمزى يس"، والرسام "عادل چورچى".

كما كان يحرص على لقاء صديق عمره المحلل النفسى "مصطفى صفوان"، وزميل نضاله د. "أنور عبد الملك" و"أديب ديمترى"، و"ميشيل كامل"، كما كان يلتقى بمعظم المثقفين المصريين فى منزل الكاتب "على الشوباشى" وزوجته الإذاعية المعروفة "فريدة الشوباشى".. والذى كان يعتبر نادياً ثقافياً يقصده المثقفون والكتّاب فى كل الأوقات..

ذكريات باريسية..

وإذا كان الحديث عن المحطات الباريسية المجهولة فى حياة "لويس عوض" لا يكتمل إلا بالحديث عن عواطفه المشبوبة وزواجه فى باريس، فلابد أن نذكر هذه الحكاية التى رواها أحد تلاميذه، وهو الكاتب الصحفى "مصطفى مرجان" الذى عمل معه لسنوات، عندما كان الدكتور لويس مسئولاً عن الملحق الثقافى بالأهرام.. يقول مصطفى:

«إن باريس كانت دائماً مستودع الذكريات الجميلة للدكتور لويس.. فعلى الرغم من أن أطروحته للدكتوراه كان يُعدها فى كمبريدج بإنجلترا، إلا أنه كان يقضى معظم وقته فى باريس برفقة صديقيه الحميمين. الناقد الراحل "محمد مندور" الذى كان يدرس فى جامعة "السوربون" فى ذلك الوقت، ثم "مصطفى صفوان" عالم النفس المعروف، والذى لايزال يعيش فى باريس، ويملك حالياً عيادة شهيرة للتحليل النفسى فى الحى اللاتينى».

ويستطرد "مصطفى مرجان" قائلاً: «عندما كان يذُكر اسم "محمد مندور"، كان الدكتور "لويس عوض" يبتسم، ويقول: أنا مدين له بمعرفتى العميقة لباريس، وعشقى لحوارى وأزقة الحى اللاتينى.. ولولاه لما عرفت زوجتى! وعندما استوضحت "مصطفى مرجان" عن هذا الأمر.. قال: «فى أمسيات ١٤ يوليو من كل عام، تتحول باريس - كما تعرف - إلى شُعلة من الصخب.. فالكل يرقص فى البيوت، وفى المطاعم، وفى الشوارع».

ويُروى أن لويس عوض جاء من لندن خصيصاً للاحتفال مع صديقيه "صفوان" و"مندور" بهذه المناسبة.

وفى قلب الحى اللاتينى - وبينما كانت الطبول تُقرع - انضم الرفاق الثلاثة للحفلات الشعبية التى كانت تُقام بشكل عشوائى فى الساحات والميادين الكبيرة، وعلى نواصى الشوارع.. وفى مثل هذه المناسبات المفتوحة، يتعارف الناس إلى بعضهم البعض بسهولة. فشاءت الأقدار أن تصطدم قدم إحدى الفتيات بقدم "محمد مندور"، فاتجهت لتعتذر إليه، فرد

عليهـا د.لويس ـ وكـان إلى جـواره ـ بـتـعليق ظريف أثار ضـحكاتهـا.. ثم انخرط معها في حديث راقص طويل.

ويُروى أن "مصطفى صفوان"، و"محمد مندور" افتقدا صديقهما لويس بعـد قليل، وظلا يبـحـثـان عنه في حلقـة الرقص، والحلقـات المجـاورة فلم يجداه.

وبعد أن أعياهمـا البحث، عادا معاً إلى منزل "محمد مندور"؛ لينتظرا عودة «الصديق الضال» حتى غلبهما النعاس، فناما.. ولم يستيقظا إلا على طرقات د. لويس بعد منتصف الليل، لكنه عاد في هذه المرة كالمسحور، وظل يحدثهما بشوق عن الفتاة التي كان يتحدث إليها، وكيف أنه جلس معها في مقهى مجاور لساحة "السوربون"، وظل يستمع إلى قصصها المُسلية، وعرف أنها فتاة ريفية جاءت إلى باريس (العاصمة)؛ لكي تستمتع باحتفالات هذه الليلة.. التي كثيراً ما كانت تسمع عنها، حتى شغفت بها، وتمنت أن تحضرها، ولو مرة واحدة.

ثم أخذ د. لويس يحدث رفيقيه "صفوان ومندور" عن عينيها الجميلتين، وصوتها الحالم، وأناملها الرقيقة، وأعلن لهما عن وقوعه في شباك غرامها، وأنه ينوي الزواج منها!. هنا، جحظت عينا "مندور"، وهرب منهمـا النوم، وصرخ في صديقه لويس، وقال: أنت مجنون! كيف تأخذ قراراً خطيراً كهذا؛ لمجرد أنك جلست إلى فتاة بعض الوقت، واحتسيت معها قدحاً من القهوة!

وظل مندور وصفوان يُسَفِّهان من اختيار لويس لهذه الفتاة الريفية البسيطة، ويؤكدان له أن مشاعره تجاهها ليست أكثر من نزوة، وأن عليه ألا ينساق وراءها.. لكن يبدو أن د. لويس قد نالت منه بالفعل سهام كيوبيد، فلم يصغ لكلام صديقيه، وظل ساهراً، مشغولاً حتى الصباح، ثم ودعهما وذهب للاقاة الحبيبة!

ويقال إن صفوان ومندور ظلا وقتاً طويلاً لا يعرفان أى أخبار عن صديقهما لويس، حتى جاءهما ذات يوم وهو يتأبط ذراع فتاته، وقال لهما فى نشوة المُنتصر: لقد تزوجنا! فانفجر الصديقان فى الضحك، لكنهما سرعان ما تداركا الأمر، ونهضا للترحيب بالعروسين، وأقاما لهما حفلاً متواضعاً.

لكن، بعد زواج الدكتور لويس تبدلت أحوال الأصدقاء الثلاثة. فانشغل العريس بعروسه، وأضاف "مصطفى صفوان" إلى اهتمامه بالدراسة عملاً آخر، وهو التدريب فى إحدى عيادات التحليل النفسى. أما "محمد مندور" فكان أكثر من تألم لهذا الانشقاق!

ولأنه لم يكن من المتحمسين للزواج فى ذلك الحين، فقد رأى أن الزواج سيقضى على د. لويس، كما قضى على هذه الصداقة الثلاثية الجميلة.

لكن، وبعد أقل من عامين، عاد كيوبيد؛ ليمارس هوايته المفضلة، فرشق سهامه فى قلب "مصطفى صفوان".. وظل بالمرصاد لمحمد مندور حتى انتصر عليه، فتزوج بعد عودته إلى مصر من تلميذته الشاعرة "ملك عبد العزيز».

وأخيراً.. صدق من قال: كلنا فى حدائق الحب صغار!

(٢)

.. بوصول الدكتور "لويس عوض" إلى باريس فى صيف (١٩٨٩)، شعرنا برغبة جامحة فى عقد ندوة معه، يحدثنا فيها عن سنوات تكوينه الأولى؛ لنعيش معه ذكرياته فى جامعتى باريس وكمبريدج، إلا أنه - وفى الموعد المحدد للندوة بالمركز الثقافى المصرى - فاجأنا جميعاً بالحديث عن موضوع آخر بدا أنه يستحوذ على جانب كبير من تفكيره، وهو اهتمام الجامعات ومراكز البحث العلمى فى الغرب بالتراث العربى، والدور الذى يلعبه الدارسون والباحثون المصريون والعرب - دون قصد منهم - فى إثراء الفكر الأوروبى على حساب فكرنا العربى.

فما أن جلس الدكتور لويس فى صدر القاعة، وتحلقنا جميعاً حوله، حتى أشار بأصبعه إلى إحدى الحاضرات، وسألها: عما تفعل فى باريس؟ فأجابته بأنها تُعدُّ أطروحة دكتوراه فى جامعة السوربون، فسألها عن موضوع الأطروحة فأجابت: هو موضوع عربى يتعلق بفلسفة اللغة عند "الجوينى".

وأعترف أن هذه الإجابة البسيطة من جانب الطالبة، كانت كالحجر الذى أُلقى به من عل فى مياه فكر "لويس عوض"، فحولتها إلى نهر

دافق، فإذا به يلتفت إلينا بعيون جاحظة، وكأنه يريد أن يحتوينا جميعاً بنظراته، وقال في غضب: «عجيبٌ أمر هؤلاء الطلبة الذين يأتون إلى باريس، أو يذهبون إلى لندن، أو مدريد؛ ليدرسوا موضوعات عربية صرفة، أعتقد أنها لا تخدم غير الغربيين أنفسهم!». ثم تساءل: «لماذا لا ندرس مثلاً فلاسفتهم، ونغوص داخل جذورهم الفكرية والثقافية، حتى نقف على ينابيع أفكارهم الأصلية؟ لماذا نترك الفكر اليوناني الخصب، ولا نأبه بالتراث الروماني القديم، ونهمل تماماً عصر التنوير الأوروبي؟ هل هي السهولة التي تدفعنا إلى دراسة الموضوعات العربية، أم أننا مازلنا حتى الآن لم نفطن بعد إلى الفخ الذي أوقعنا فيه هؤلاء المستشرقون الماكرون..».

ودون أن يترك الدكتور "لويس" الفرصة للتعليق، اندفع يقول: «أعتقد أن الرسالة الأولى التي يجب ألا تغيب عن بال الدارسين من المصريين والعرب في باريس هي ضرورة الوقوف على أسلحة الغرب الفكرية والثقافية، وحتى العسكرية والنووية!، وهي رسالة لن تتحقق ـ بطبيعة الحال ـ ما دُمنا ننشغل بتشريح تراثنا نحن أمامهم ولهم! وإلا بالله عليكم، لماذا ألتقي بدارسين مصريين في لندن يعدّون رسائل دكتوراه في علم اللُغويات حول لهجة أبناء الشرقية، أو لهجات سكان قنا وديروط، ثم ما الفائدة التي ستعود علينا من هذه الدراسات؟».

واستمر الدكتور لويس يقول في حماس: «لن أسأل عن الفائدة التي ستجنيها مراكز الأبحاث الغربية من هذه الدراسات التي لا أعتقد إلا أنها تأتي كحلقة في سلسلة الاهتمامات الغربية بتراثنا، بغرض الوقوف على جذوره، وينابيعه، وقيمه الأولى.. وفي هذا الصدد يجب أن أشير إلى أن هذه العقلية الأكاديمية الغربية لا تستقطب فحسب الطلبة أو

المعيدين بهدف تسخير إمكانياتهم فى سبيل تصنيف أو تبويب معلومات مُعينة، فى فرع ما من تراثنا، ولكن أيضا تجتذب عدداً من الأساتذة أو الباحثين المُدربين للعمل فى أقسامها التى تهتم بالشئون العربية.. وإلا فما معنى أن يأتى باحث مثل الدكتور "أنور عبد الملك"؛ ليعمل فى مركز بحث فرنسى حول موضوعات عربية؟!

.. ما كنت أخشاه ــ بحق ــ هو أن نقع فى الفخ الغربى، وللأسف كل هذه الظواهر التى أرصدها بمرارة، سواء بين الطلبة والدارسين، أو الباحثين المعروفين، تؤكد أن السم المدسوس فى العسل لم نفطن إليه بعد!».

يصمت الدكتور "لويس" لحظة ثم يتابع، فيقول: «لو تأملتم معى حياتنا الثقافية اليوم؛ لوجدتم أننا أصبحنا عاجزين عن مواصلة طريق البحث العلمى، واكتفينا ــ فى أغلب الأحيان ــ برفع سلاح الاتهام.. فإذا بحثنا فى شعر المتنبى، أو فى دواوين أبى العلاء المعرى، أو فى مقدمة ابن خلدون، لا نحاول أن نسبر أغوار الأفكار التى تأثر بها هذا الشاعر أو ذاك الكاتب، وإذا وقعنا على شىء ــ هو من قبيل التأثر ــ اندفعنا وراء مقولة أن أبا العلاء سارق من شاعر آخر، أو أن ابن خلدون لص. أخذ أفكار مفكرين آخرين، ونسبها إلى نفسه!..»

إن هذه الظاهرة لم تنتشر ــ انتشار النار فى الهشيم ــ إلا فى فكرنا العربى، وهى تعكس ــ بطبيعة الحال ــ عجزنا عن استخدام المناهج العلمية فى البحث؛ لأننا لم نحاول يوماً أن نقتحم هذا الباب، مثلما فعل "طه حسين" مثلاً عندما سعى إلى تطبيق المناهج العلمية فى دراساته حول الأدب العربى والشعر الجاهلى تحديداً.

«.. وإذا كان لى أن أستطرد، فتأملوا معى ظاهرة أخرى، باتت

معروفة بين أوساط المثقفين اليوم، وهى المقولة التى تذهب إلى أننا نملك كل شيء ولسنا بحاجة إلى أية إضافة من أحد.. فهذا هو "توفيق الحكيم" نفسه عندما سافر إلى باريس، لم يحاول أن يقف على جذور الفكر الأوروبى، كما كان ينبغى لمثقف مثله أن يفعل، وإنما اكتفى بأن يتكوم على ذاته، ويكتب مادحاً روحانية الشرق فى مواجهة مادية الغرب!، ونسى أن الأجيال كانت تنتظر منه أن يُقدم لنا الفكر الأوروبى؛ لنفهمه، ونعرف كيفية التعامل معه، ومن ثم تضيق الفجوة التى تفصل بيننا فى الشرق، وبينهم فى الغرب.. فلا نعيش عالة عليهم فى الفكر والثقافة والتكنولوجيا، كما هو حادث الآن!..

«.. باختصار إذا كان لى أن أتهم أحداً فى هذا المجال فلن أتردد فى اتهام المستشرقين، وعلى رأسهم شيخهم الكبير "جاك بيرك"؛ لأنه - ومن نسج على منواله - قد زرع كل هذه الاهتمامات الساذجة، والسهلة فى نفوسنا، فأصبح كل الدارسين والباحثين "تروسا" فى عجلة الأطماع الثقافية الغربية. تفكر، وتبحث، وتكتب فى الموضوعات التى تهمهم بالدرجة الأولى، مُكتفين بترديد مقولات مُثبطة، مثل:

- معتقدات الشرق هى أحسن المعتقدات! أو أن التراث الشرقى هو وحده الجدير بالدراسة من دون العلوم الأخرى!..

«.. ومن هنا طرح "جاك بيرك" وتلاميذه من الباحثين المصريين قضايا غربية لا تهم الفكر العربى كثيراً، مثل قضية الأصالة والمعاصرة التى ألح على أنها دخيلة على حياتنا الفكرية! وفى إطار هذه الدعوة المزعومة لـ "إحياء التراث" نسينا أن نعرف أسلحة الغرب الفكرية، وأغفلنا أهمية النقد الذاتى، واكتفينا بذكر الأمجاد العربية!. وللأسف،

ما أراده اليوم بين الدارسين، والطلبة لا يخرج عن هذا البرنامج الذى ليس لنا فيه غير "التنفيذ"، بينما تكفلت عقلية "بيرك" وأنصاره بوضعه، وتصميمه».

أخيراً وحول ما تنبغى دراسته فى الجامعات الأوروبية، يختم الدكتور "لويس عوض" حديثه فيقول: «لابد أن نبدأ بدراسة التراث اليونانى القديم؛ لنقف على أهم الأفكار الرائدة فى دنيا الفكر والثقافة الأوروبيتين، وأرجو ألا يفهم البعض عنى أننى لا أرى جدوى من دراسة تراثنا، وماضينا الزاخر؛ لأن شيئاً كهذا لم يخطر ببالى على الإطلاق، وإن ما أرجوه أن يتعلم الدارسون أدوات البحث العلمى، ثم يبدأون بدراسة تراثنا؛ لأن أسلحة البحث العلمى هى وحدها الكفيلة بأن تجعلنا أكثر عقلانية كأسلافنا من المُعتزلة، فى معالجة قضايانا الفكرية والثقافية.. وعقيدتى هى أنه لن يُقيل عثرتنا الثقافية التى نتحدث عنها طويلاً فى هذه الأيام، غير تطبيق مناهج البحث العلمى الصحيحة فى كل مانقرأ، ونكتب..».

فى نهاية الندوة، كنا نجلس فى صمت ينظر أحدُنا للآخر على استحياء، وكأننا مجرمون قد افتضح أمرنا..

ولم يعطنا الدكتور لويس أى فرصة للرد أو التعليق، وانصرف بعد أن أضاف إلى همومنا الحياتية فى الغُربة هماً آخر هو الهم الأكاديمى العميق والجارح، والذى لا يعرفه إلا من يكابد أهواله!

(٣)

لم ينس بعضنا لقاءنا الماضى بالدكتور "لويس عوض" عندما انتقد بعنف الدارسين العرب والمصريين الذين يعدون أطروحات علمية حول قضايا تراثية عربية وإسلامية فى الجامعات الفرنسية، وعلى الرغم من أن شيخ المستشرقين الفرنسيين "جاك بيرك" قد علم باتهام د. لويس له، وكذلك الدكتور "أنور عبدالملك" إلا أنهما رفضا الرد أو التعليق، بينما استعد بعض الدارسين العرب للدفاع عن وجهة نظرهم فى لقائهم به هذه المرة.

إلا أن الدكتور "لويس عوض"، عندما التقينا به فى صيف عام ١٩٩٠، وبحضور الفنان "يوسف فرنسيس" مدير المركز، كان يبدو كعادته، أنه جهّز نفسه للحديث فى موضوع آخر.. وكأنه اعتاد أن يكتفى فى لقاءاته بإحداث الصدمات فقط، دون أن يكون مُهتماً بمتابعتها أو رصد نتائجها..

ولست أدرى على وجه التحديد، لماذا بدأ الدكتور "لويس عوض" بالحديث عن الناصرية، ففتح شهية الحاضرين، فسأله أحدهم عن رأيه فيها، وتقييمه لما خلفته لنا من إرث فى دنيا الثقافة والفكر.. فأجاب

يقول:

«الناصرية على كل حال، هى كلمة مُرتجلة؛ لأن "عبدالناصر" لم يأت من فراغ، وإنما كان ابن البيئة المصرية التى أنجبته، كما كان مُخاض الشعب المصرى، ولذلك جاء كرمز يمثل جميع الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التى كانت تموج بها أرض مصر فى الفترة من عام ١٩٣٠، وحتى قيام الثورة فى عام ١٩٥٢، وهى الفترة التى تكوّن فيها "عبدالناصر"، فلا ينبغى أن ننسى أن "عبدالناصر" كان يبزّ الجميع فى الفهم والاستيعاب والتعلم؛ لأنه كان يملك قدرات خاصة على الحركة والنمو..

حظر سياسى.. وانفراج أدبى

«وبالنسبة للأجواء الثقافية فى عصر "عبدالناصر"، فاللافت للنظر أنها كانت تتميز بعدة ظواهر منها أن ثورة يوليو كانت شديدة الضيق بالفكر، ومع ذلك لوحظ أنها كانت تشجع الإبداع الأدبى، فمازلت أذكر أن الثورة فى أيامها الأولى لم تتردد فى اضطهاد أساتذة الجامعات، الذين كانوا يمثلون عقل مصر المُفكر، كما استبعدت من الحياة العامة كل شخص يتبين أن له رؤية سياسية أو اقتصادية لمستقبل مصر..

«لكن المفارقة الغريبة هى أنها غضّت الطرف بإرادتها عن المُبدعين، والفنانين، وتركت لهم مساحة هائلة للحركة دون أى قيود، فازدهر "يوسف إدريس" و"نجيب محفوظ" و"توفيق الحكيم" لا كمفكرين، وإنما بوصفهم أدباء مُبدعين، وكان المسرح هو أكبر جهة استفادت من الثورة، فازدهرت الحركة المسرحية، ولمعت أسماء "ألفريد فرج"، و"نعمان عاشور"، و"يوسف إدريس" أيضاً ككتّاب مسرح بارعين، وتميزت هذه

الفترة بالزواج السعيد الذى تم بين الأدب والحياة، فراجت نظرية الالتزام فى الأدب والفن، وظهرت مسرحيات "سعد الدين وهبة" التى كانت تحمل مضامين اجتماعية رائدة، كما كتب "نعمان عاشور" مسرحيات تتهكم على ثورة يوليو نفسها، وتنتقد بشدة مشروعها الاجتماعى الذى يرمى إلى توزيع الأراضى على الفلاحين وإزالة الفوارق بين الطبقات..

«أما "يوسف إدريس" فلم يتحرج من ضرب جذور النظرية الاشتراكية فى مسرحيته الشهيرة "الفرافير"، وظل هذا الحال قائماً، حتى وقعت الهزيمة فى عام ١٩٦٧، فحدث هناك ضمور فى الأدب والفن، وانعكس ذلك على وزارة الثقافة وكافة المؤسسات التابعة لها، وأخذت الكتابات السياسية كل المساحات المُتاحة فى وسائل الإعلام، وفوجىء الكُتّاب والمبدعون بأنهم أصبحوا "زائدين عن الحاجة" ولا مكان لهم لا فى دنيا الفكر ولا فى دنيا الواقع، وكانوا يتقاضون رواتبهم دون أن يكتبوا..»

«وفى نهاية الستينات فتحت الدول العربية أبوابها للفنانين والمخرجين المصريين، فهاجر إليها عدد كبير، خصوصاً بعد أن فُتحت أبواب الهجرة فى آخر عهد «عبدالناصر».. وهنا لا أنسى أن عام ١٩٧٠ كان هو عام المُصادرات الكبرى، فقد كشّرت السلطة عن أنيابها، وصادرت كل عمل يشتمّ منه - ولو من بعيد - أى دعوة للتحرر الفكرى أو الذهنى.. مثل مسرحية "سر الكون" لنعمان عاشور، بالإضافة لمسرحيات أخرى ليوسف إدريس..

وما أذكره هو أن القائمين على الثقافة فى ذلك الوقت قد اعترضوا على أكثر من ست مسرحيات، وأصبح واضحاً أن ثمة جهات غير ثقافية

أخذت تضيق بالكلمة وتعبث بالفكر..».

يصمت د. "لويس عوض" لحظة ثم يتابع، فيقول: «بعد موت "عبدالناصر"، تأزمت الأوضاع تماماً، وباعتماد سياسة الانفتاح التي صفق لها من صفق وقتئذ ظهرت علامة استفهام كبيرة حول شرعية وزارة الثقافة، والمؤسف أن "يوسف إدريس" نفسه قد استخدمه البعض؛ لضرب الإبداع والمبدعين، فكتب ذات يوم ينتقد "نظام التفرغ" الذي كانت تأخذ به وزارة الثقافة بالنسبة للفنانين التشكيليين، كما قام "رشاد رشدي" بكتابة تقرير للرئيس "السادات" انتقد فيه وزارة الثقافة والأجهزة التابعة لها، وقال: إنها تقوم بدور "الوصي" على الفن، وطالب بتقليص مهامها، كما اتهم الدولة "بالمحاباة" خصوصاً فيما يتعلق بالفكر اليساري، وكان هذا التقرير هو بداية الهجوم على الناصرية..

«وأذكر أن اجتماعاً قد تم بين "مصطفى خليل" رئيس الوزراء في ذلك الوقت، و"توفيق الحكيم"، و"نجيب محفوظ"، وانضم إليهم "ثروت أباظة"، حيث دافع الجميع عن وجهة نظر "رشاد رشدي". عقب ذلك، تشكلت وزارة جديدة ألغى فيها "الرئيس السادات" وزارة الثقافة "كوزارة مستقلة"، وتم إلحاقها بوزارة التعليم..

«ولقد كتبت مقالة في ذلك الوقت طالبت فيها بعدم إلغاء وزارة الثقافة؛ لأن هذا الإلغاء هو مُجازفة كبرى، وبعد فترة عادت وزارة الثقافة لكن بلا ميزانية، وحدثت هناك تعديلات في أوضاع بعض المؤسسات والهيئات الثقافية، مثل "الهيئة العامة للكتّاب" التي كان يرأسها في ذلك الوقت الدكتور "الشنيطي"، فكانت النتيجة المباشرة لذلك أن تضخمت الأجهزة الإدارية، وكانت الميزانية المخصصة لهذه الأجهزة

تكفى بالكاد لدفع رواتب الإداريين. أما الفنانون فقد تواروا فى الخلف، وكانوا يموتون كمداً!.. ومرة أخرى وجد هؤلاء الفنانون المساكين أنه لا حل أمامهم سوى الهجرة، فتضاعف استنزاف الدول العربية للقوى البشرية والفكرية فى مصر».

أدب "البوتيكات" ومسرح "التسلية"..

يصمت د. "لويس عوض" لحظة، ثم يضيف قائلاً: «المشكلة الحقيقية هى أن غياب هؤلاء الفنانين عن مصر لعدة سنوات بسبب هذا الجو الثقافى المُتردى، حوّل مصر الثقافية إلى صحراء جرداء، وعندما عادوا إليها من هجرتهم فى العراق أو فى دول الخليج، لم يعملوا على انتشالها من الغرق - كما كان متوقعاً ومطلوباً - بل كانوا عوامل مساعدة فى إغراقها أكثر.. فتسببوا فى ضياع كل شىء يمت للثقافة بصلة. فعلى سبيل المثال، لقد أضاع "كرم مطاوع" و"سعد أردش" وآخرون المسرح؛ لأنهم كانوا قد تعوّدوا على الإنفاق والبذخ فى الأعمال المسرحية التى قاموا بها طوال سنوات غربتهم، ولم يفطنوا إلى أن ميزانية المسرح فى مصر ضئيلة، فضاعوها بلا طائل، فأنفق كرم مطاوع نحو ٢٥٠ ألف جنيه على مسرحية "إيزيس".. هل تتصوروا هذا؟!

«ومع ظاهرة الانفتاح التى ضربت بجذورها فى أعماق المجتمع المصرى، انقرض مسرح الدولة وازدهر مسرح القطاع الخاص، ولم يعد فى مصر سوى "مسرح التسلية"!».

وفى صوت خافت أثقله الحزن يواصل الدكتور "لويس عوض" حديثه، فيقول: «لا تكونوا متفائلين يا أبنائى أكثر مما ينبغى، فالحال فى الأدب ليس بأسعد حظاً من حال المسرح، ودعونى أسألكم: أين هو الأدب

الجاد اليوم فى مصر؟ قد تحولت الصفحات الأدبية فى الصحف المصرية إلى ما يُشبه البوتيكات الثقافية أو فاترينات الأدب، لا تنشر سوى أخبار الإصدارات الجديدة! وغابت عن حياتنا المقالة النقدية التى كانت تشبع الذوق وتشذب الوجدان، وتكشف لنا عن أصالة العمل الأدبى.. أما إذا تأملتم معى القصص التى يُسمح لها بالنشر، فلا شك أنكم ستحزنون إذا علمتم أن معظم من يكتبون لا قيمة أدبية كبيرة لهم، ولا مضمون اجتماعى لأدبهم!..

«وعادت دعوة الفن من أجل الفن تُسيطر على مجلات أدبية معروفة، مثل "إبداع" و"فصول" والتى تبدو من خلال ما تنشره من دراسات وكأن أصحابها يعيشون فى عزلة تامة عن المجتمع والجمهور».

خيّم وجوم كئيب على وجوه الحاضرين، فحاولتُ - من جانبى - أن أكسره، فسألت الدكتور "لويس عوض": هل يعنى ذلك أن لا أمل فى أى مستقبل ثقافى مُشرق لمصر فى السنوات المقبلة؟

فأجاب الرجل على الفور: «الإصلاح الثقافى ممكن، لكن لن يأتى أكله قبل عشر سنوات؛ لأنه بطىء وهذا هو منطق الأشياء، وأعتقد أننا نعيش حالياً مرحلة الانتقال التى تقودنا حتماً إلى بحبوحة ثقافية، يعود فيها الأدب والفن الجيد إلى الظهور.. لكن هذا الأمر مشروط بروح الاقتحام التى يجب أن تتقمص منذ الآن أجساد جميع الأدباء والمبدعين، وأن تتدخل الدولة؛ لحمايتهم من الفكر الغوغائى الذى أصبح يُشكل خطراً على الفكر الحر الجرىء.

فكبار الكُتّاب مثل "توفيق الحكيم" و"يوسف إدريس" و"عبدالرحمن الشرقاوى" قد اتهمتهم الغوغاء بالكفر، وأصبح كل دورهم فى الفترة الأخيرة من حياتهم ينحصر فى الدفاع فقط عن أنفسهم، وقد ألقى

كثيراً أن يتراجع د. "زكى نجيب محفوظ" أمام من اتهموه بالكفر، عندما أصدر كتابه "خرافة الميتافيزيقا"، وعاد ليصدره تحت عنوان جديد هو "موقف من الميتافيزيقا" بعد أن لجأ إلى أسلوب توفيقى أو "تلفيقى" لا فرق، بين الغيبيات من ناحية، والعقلانية من ناحية أخرى، وعلى كل حال أنا لا ألوم "زكى نجيب محفوظ"؛ لأنى كنت أعلم أنه يقاتل فى معركة شبه خاسرة، عندما تخلى عنه الناس وكذلك الدولة..

وفى نهاية اللقاء لخص الدكتور "لويس عوض" حديثه معنا، فقال:

«قناعتى هى أن مصر لن تتقدم إلا إذا انحازت الدولة للقيم الجديدة، ووقفت فى صف الفكر الحر، وإلا فإن الشارع المصرى الغوغائى هو الذى سينتصر فى معركته مع المفكرين ورواد التنوير، وتقفز أسوأ عناصره إلى كراسى الحكم وعندئذ، يكون على مصر السلام..».

د. أحمد ضيف:

«..ثم اجتزت الجانب الشرقي (من حديقة لوكسمبورج) ومررت بقصر الشيوخ، وإذا الكساء الأبيض قد وهبه هيبة ووقاراً. أما التماثيل فكان على رأس كل تمثال تاج من فضة، وعلى جسمه كساءً بالٍ من حرير أبيض، فلما وصلت إلى الجهة الغربية رأيت بعض الأطفال والفتيات يتقاذفون بقطع الثلج، فيأخذ أحدهم قبضة منه، ويلقي بها على رفيقه فيغمره بمسحوق كمسحوق السكر.. وقد تبعتني فتاة إلى أن كادت تُخرجني من الحديقة وأنا أعدو أمامها، وهي تقفو أثري..».

كان "أحمد ضيف" هو أول مبعوث مصرى تُرسله الجامعة المصرية إلى باريس؛ لدراسة الأدب، فذهب إليها عام ١٩٠٩، وكان عمره لا يتجاوز تسعة وعشرين عاماً، وأعد أطروحة لنيل درجة دكتوراه الجامعة فى موضوع بعنوان: "المذهب الوجدانى فى النقد الأدبى عند العرب". وقد أمضى "أحمد ضيف" فى باريس ثمانية أعوام. زامل فى فترة منها "طه حسين"، وكانا قريبين من بعضهما، وينهلان معاً من نبع الثقافة الفرنسية ويتحملان فى سبيل ذلك ألواناً من المرّ والشر، تركت آثارها على روحيهما ردحاً من الزمن..

يصف "طه حسين" هذه العلاقة، فيقول: «الدكتور "أحمد ضيف" أخ لى، لا تصل بينى وبينه حياتنا فى الجامعة المصرية وحدها، بل تصل بينى وبينه حياة قضيناها معاً فى فرنسا، كان فيها الحلو والمرّ، وكان فيها الخير والشر، وكنا نبلو حلوها ومرّها، ونحتمل خيرها وشرها، أخوين صادقين، لا يعدل أحدهما بصاحبه إنساناً ولا يمودة صاحبه شيئاً آخر..».

لكن "أحمد ضيف" كان من المصريين القلائل الذين تنفسوا مناخ الحرية الحقيقى وعاشوا فيه بوجدانياتهم، وأرقتهم كثيراً مشكلة "صدام

الثقافات" وعلاقة الشرق بالغرب، كما ظهرت بعد ذلك فى نتاجه الفكرى والأدبى، والذى عبَّر عن جانب منه فى المقالات التى كان يبعث بها من باريس؛ لتنشر فى الصحف والمجلات المصرية الصادرة فى ذلك الوقت، وأبرزها مجلة «السفور».

وقد لازمه هذا إلى نوع من التفكير حتى بعد عودته إلى مصر عام ١٩١٨ والتحاقه بالعمل فى الجامعة المصرية ومدرسة المعلمين العليا، فلم يتردد فى أن يشترك مع أحد الأدباء الفرنسيين - كانت تربطه به علاقة صداقة قوية فى هذه الفترة، ويدعى "فرانسوا بونجان" - لكتابة روايتين باللغة الفرنسية تكمل إحداهما الأخرى. الأولى بعنوان «منصور: قصة طفل من مصر»، والثانية «منصور فى الأزهر» وعلى الرغم من أن "فرانسوا بونجان" قد عاش فى القاهرة خمس سنوات، وعمل فى إحدى مدارسها كمدرس للغة الفرنسية إلا أن النقاد يعتقدون أن القصة الأولى تروى جوانب من طفولة "أحمد ضيف" وصباه، ويرجح أنه قد رواها لصديقه "بونجان" وساعده فى فهم الواقع المصرى وسبر أغوار الحياة الشعبية فى القاهرة.

وقد صدرت الطبعة الأولى فى عام ١٩٢٤ ولاقت ترحيباً من النقاد والقراء على السواء، مما شجع المؤلفَيْن على إعادة نشرها فى طبعة ثانية، ويُروى أنه بعد صدور رواية "منصور فى الأزهر" حدثت قطيعة بين الرجلين الشريكين، فانفرد "فرانسوا بونجان" بإصدار الرواية الثالثة، وهى بعنوان «الشيخ عبده المصرى»، التى تتحدث كما يبدو من عنوانها عن المصلح الكبير الإمام "محمد عبده"، ويُرجح أيضا أن "أحمد ضيف" هو صاحب مادة هذه الرواية؛ لأن شخصية "منصور" بطل الروايتين الأولى والثانية تُهيمن بشكل واضح على معظم أحداث رواية

«الشيخ عبده المصرى»، فضلاً عن أن البطل الحقيقى "أحمد ضيف" كان من أكثر المُعجبين بالإمام "محمد عبده"، وبمنهجه فى التفكير والإصلاح والحياة.

صراع الثقافات..

والمؤسف أن أحداً من الدارسين فى أقسام الأدب الفرنسى أو الترجمة فى كليات الآداب المصرية، الذين يفدون كل عام إلى باريس، لم يلتفت إلى هذه الروايات التى أعتقد أن تسليط الضوء عليها أكاديمياً، وتحليل ما جاء فيها من رؤى وقناعات سوف يكشف لنا جانباً مهماً من جوانب التفكير الحضارى عند نخبة من أبناء مصر الذين عاشوا الهمّ الثقافى فى بدايات هذا القرن.. سيّما أن البذور الفكرية التى نثرها "أحمد ضيف" فى «منصور.. قصة طفل من مصر»، و «منصور فى الأزهر»، تمثل إحدى الركائز المهمة التى يبنى عليها تصوره لعلاقة الشرق بالغرب، والتى كان قد أسهب فى شرحها فى فصول قصة طويلة بعنوان: «قبل التعارف وبعده» تروى تفاصيل علاقة حب من طرف واحد، تربط بين فتى مصرى وفتاة فرنسية.. ثم يتحطم الحب على صخرة الاختلاف العميق، الضارب بجذوره بينهما، فالشرقى لا يمكن أن يكون غربياً، والغربى لا يمكن أن يكون شرقياً.

أما القصة الثانية، التى كتبها "أحمد ضيف" فكانت بعنوان «شاب مفتون» فظهرت فى شكل دراما أو قصة تمثيلية فى فصل واحد. نشرتها مجلة «الهلال» فى عام ١٩٣٦، وقدمتها بالعبارة التالية: «تمثل هذه القصة ناحية مهمة من نواحى حياتنا الاجتماعية وتصور نفسية بعض الشبان المتعلمين بأوروبا، وكيف تفتنهم المدنية الغربية، ويقعون

ضحية الحب فينسون كل شيء ما عداه، ويزدرون وطنهم ويجحدون حقه عليهم»، والمحقق أن "أحمد ضيف" في هذه التمثيلية قد عزف - كما يقول الناقد د. "على شلش" - على لحن الصراع بين الثقافات بصورة أنضج من الناحية الفنية. فالتمثيلية تدور حول قصة حب ربطت بين "مادلين" الفرنسية"، و "محمود" المصري أثناء دراسته في فرنسا، وكيف أنكر عليه أبواه هذا الحب، واختارا له "سعاد" ابنة خالته الثرية التي تحبه، وإزاء إصرار محمود على حبه ورغبته في السفر للحاق بحبيبته يدخل عليه أحد أصدقائه المتزوجين من فرنسيات، ويدور حوار بين محمود والزوجة الفرنسية، نفهم منه أن الأخيرة غير مُتحمسة لحب محمود ولا لترك فرنسا والرحيل إلى مصر، بل تُلقى عليه بالمسئولية، ثم ينتهي الصراع في نفسه - مع ضغوط أبويه وزوجة صديقه - إلى الرضا بسعاد والبقاء في مصر، فتعانقه أمه بفرح نتيجة إعلانه تخليه عن رأيه السابق..

لكن لا يجب أن نفهم من ذلك أن "أحمد ضيف" يُرجح كفة «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا»، عندما وضع حق الأبوين على الابن فوق حق الابن في الحب، والدليل على ذلك أن زوجة صديقه فرنسية، كما أن مناقشته معها قد لعبت دوراً في إقناعه بالبقاء في مصر وعدم الرحيل إلى فرنسا.

أحزان باريسية في رواية مجهولة..

وأياً كان أمر المعاني التي تضمنتها هذه التمثيلية وقبلها رواية «قبل التعارف وبعده»، فالثابت أن قضية الغُربة، والاغتراب ثم الصدمة الحضارية التي يلقاها الشرقي عندما يجد نفسه في قلب أوروبا، قد شغلت "أحمد ضيف" طويلاً؛ لأنه وعلى الرغم من أنه قد عاد من فرنسا

عام ١٩١٨، إلا أنه ظل مشغولاً بالقصة حتى وفاته فى عام ١٩٤٥.. وأكبر دليل على ذلك روايته الطويلة «أنا الفريق» التى نشرها فى خمس حلقات بمجلة "الثقافة" قبيل وفاته بنحو خمس سنوات.. وهى أطول ما كتب من قصص عربية، ومع ذلك لم يجمعها فى كتاب، ولم يهتم بها أحد.

وتبدأ أحداث القصة فى باريس زمن الحرب العالمية الأولى، حيث يدرس بطلها (وراويها فى الوقت نفسه)، ولكن ازدياد وطأة الحرب العالمية الأولى على الحياة فى العاصمة الفرنسية يضطره إلى الهجرة نحو الجنوب، فيختار مدينة «بوردو»، وهناك يقيم فى فندق صغير تقطنه امرأة عجوز لا يلبث أن يكتشف أنها نبيلة من طبقة النبلاء الروس الذين هربوا من الثورة الشيوعية عام ١٩١٧.

ولا يلبث الراوى أيضا أن يقيم علاقات ودية مع خادم الفندق وإحدى الأسر الفرنسية بالمدينة، وعن طريق هذه العلاقات يدخل فى مناقشات مُطولة حول ما حدث فى روسيا وثورتها، واشتراكيتها وما حدث فى تلك الحرب التى داهمت أوروبا بسبب خلافات ساستها، ومن هذه المناقشات ندرك أن الراوى مُتعاطف مع الاشتراكية وكاره للحرب، ثم يقرر الراوى أن يعود إلى مصر فيتجه إلى مرسيليا، حيث يتعرف هناك إلى عالم مصرى مهاجر منذ ٢٥ سنة، ولكنه غير آسف على هجرته أو مشوق لرؤية وطنه؛ لأنه يعتقد أن مصر لا تحترم غير الدخلاء، ولا تثق بأهلها، ولا يتبادل هؤلاء سوى الحقد!

وتتعطل الباخرة التى حجز الراوى مكاناً عليها، وحين تقلع بعد إصلاح العطل، لا تلبث أن تتعطل مرة أخرى فى عرض البحر، فتعود

أدراجها ولا تشرع فى رحلتها إلا بعد أيام، وسرعان ما يصاب الراوى بدوار البحر، وعندما يفيق منه تصاب الباخرة ذاتها بطوربيد يشعل النار فيها، ويقتل قبطانها، ويضطر ركابها إلى القفز فى الماء.. ولكن الراوى يخونه الحظ فيسقط، ويحاول التعلق بالحياة فى الماء حين يقع على قطعة من الخشب، فيقضى ليله متعلقاً بها، حتى تنتشله بارجة حربية إنجليزية، وتقوم بتوصيله مع بعض رفاقه إلى الإسكندرية، وبعد شهر من وصوله يتسلم رسالة موجهة إلى أسرته من شركة الملاحة الفرنسية مالكة الباخرة الغريقة، ويفض الرسالة، فإذا بالشركة تُبدى أسفها على ما حدث وتُعزّى الأسرة فى فقيدها الذى كان من الغارقين!!

ولا شك أن الرواية بأحداثها السابقة تعكس هموم الراوى الخاصة بالصراع بين الشرق والغرب، ويرى النقاد أنها تقترب فى بعض أحداثها من رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم التى كانت قد صدرت قبلها بعدّة أشهر، باعتبار أن الحكيم يُعالج ذات الموضوع، وتدور أحداثها حول طالب مصرى يدرس بباريس ويلتقى بشخصيات مماثلة ولا سيما الروسى الأبيض الهارب من الثورة الشيوعية، وإذا كانت باريس قد مارست نفوذها أو تأثيرها القوى على "أحمد ضيف" طوال سنوات عمره الباقية، فالمحقق أنه كان شديد الإعجاب بها، حافظاً لقدرها، ومدركاً لعمق تأثيرها على نفسه ووجدانه.

ويتضح ذلك مما كان يكتبه فى ذلك الوقت عن صفات أهل باريس، وخصوصاً قدرتهم على تحمل أهوال الحرب العالمية الأولى.. فيقول: «اعتاد الناس هنا تحمل الآلام من جراء هذه الحرب، وليس لديهم الآن أصدق من الأثر الشهير: "نعيش لنتألم".. تتكلم الفتاة هنا فتذكر خطيبها أو أخاها، فتقول: لم يصل إلينا شىء من أخباره منذ زمن

طويل، ولعله قُتل أو أسر، وقالت لى سيدة فى أثناء حديثها: كنت أود أن أتعلم الاشتغال بآلة الكتابة لعلّى أجنى من وراء ذلك شيئاً، فإننى لا أضمن حياة زوجى؛ لأن الموت لا يُبقى على أحد فى ساحة القتال».

ثم يسترسل "أحمد ضيف" واصفاً هذه الحالة، فيقول: «سألت فتاة: هل تصل إليك أخبار من أخيك؟ فقالت: أيهما؟ الذى اختفى أثره من أول الحرب، أما هذا فلا أدرى عنه شيئاً. وأما الثانى فربما أدرك أخاه، لأنه فى الصف الأول من صفوف القتال. فلا أعلم عنه شيئاً منذ شهر.

وكانت الفتاة تصلح قبعتها أثناء حديثها، فنظرت فى المرآة بعد أن وضعتها على رأسها، وسألتنى:

ـ أتعجبك هذه القبعة؟ ولم تنتظر الجواب، وقالت: هى من عملى.

وبدأت تغنى صوتاً مشهوراً، وتقول: لن يتسنى لك أن تعرف ما يجول بخاطرى من حب وغرام، ولا من يملأ فؤادى حبه الآن، ولا إن كنت أحبك أو أبغضك، ولا إن كنت أتألم من أجلك أو أسخر بك..

فقلت فى نفسى: يا سبحان الله، ما أشجع هؤلاء الناس (أهل باريس)، وما أصبرهم على النار، وأكثر من ذلك شجاعة وصبراً تكون الأمة الفرنسية المنكوبة الآن.

"ويسترسل "أحمد ضيف" شارحاً أحوال الفرنسيين إبان هذه الحرب، فيقول: «إن باريس لم تكن تبعد عن ميدان القتال سوى بنحو مائة من الكيلو مترات، بينما أكثر من مائة ألف من سكانها يملأون دور التمثيل واللهو؛ ليتناسوا ألم "الموت الذى يحصد النفوس بلا شفقة ولا رحمة..»

ثم يروى تفاصيل إحدى الليالى التى انطلقت فيها صفارات الإنذار فى جوف الليل لتوقظ النيام، وتطلب إليهم أن يسارعوا بالنزول إلى

الخنادق السفلية للاحتماء من القنابل التى ترميها طائرات الأعداء فى سماء باريس..

يقول "أحمد ضيف": «خرج كثير من السكان إلى الطرق والشوارع يرقبون السماء لعلهم يرون واقعة هوائية؛ لأنهم يحسبون ذلك منظراً جميلاً لا تتسنى رؤيته كل يوم! وحمل بعضهم أطفاله الصغار ونزل بهم تحت الأرض فى الطبقة السفلى، بينما فضّل بعضهم الآخر حرارة الفراش مع الاستسلام إلى القضاء على تذوق ألم البرد.. ولم يكن يعلم أنه بعد دقائق معدودات سينقض الخطر، وتمطر السماء موتاً..»

مدينة الفن والجمال

ثم يسجل "أحمد ضيف" انبهاره بهذه المدينة مشيراً إلى أنها حتماً ستبقى خالدة رغم الخسائر التى تلحق بها، والقتل الذى غيّب أبناءها.. يقول: «ألا يا عاصمة العلوم والفنون ومأوى اللهو والسرور هلمّى إلى القتال والحرب سجال، وسواء عليك أقُتل أبناؤك فى ساحة الوغى والقتال، أم داهم الموت العجزة والأمهات والأطفال وهم فى منازلهم آمنين.. مادام لابد من موت الأفراد؛ لكى تحيا الأمم».

وعلى أية حال لقد ظل "أحمد ضيف" مفتوناً بباريس، ولم يفارقه إعجابه بها، حتى بعد أن تركها وعاد؛ ليعيش فى مصر.. فها هو يكتب مقالة فى مجلة «الهلال» عام ١٩٣٥ بعنوان: «باريس.. مدينة الفن والجمال» يروى فيها جانباً من ذكرياته عن هذه المدينة العجيبة، وموقعها الكبير فى نفسه، ويبدى إعجابه بأدباء باريس الذين يكتبون للإصلاح والنقد وبث المذاهب، والدعاية لأدبهم وبلادهم مشيراً إلى أن الحياة الأدبية الباريسية قلّ أن توجد حياة مثلها فى أى من الأمم الأخرى من

حيث مدارس التحليل النفسى أو الاجتماعى أو الفكر الفلسفى.. وفى مقالته يشيد بحرية التأليف الأدبى فى باريس، ويرى أنها أعظم دليل على قوة الفكر ونتاجه فى باريس، وأن الذوق الفنى فيها متفوّق على سواه حتى فى العلوم وآثار العلماء.

ولم ينس "أحمد ضيف" أن يشير إلى الصبغة القومية كميزة للأمم المتحضرة، وهى صبغة تعكس نفسية الأمم فى الفنون والآداب، وتجذب إلى تلك المدينة كثيراً من مفكرى الأمم الأخرى، ومن أصحاب الجد واللهو أيضا. أما أحب الأماكن إلى قلبه فهو حديقة لكسمبورج، التى كان يقضى فيها أوقات فراغه، متأملاً أو قارئاً أو مُستريحاً من عناء المحاضرات الطويلة، كما كان يزورها مرتين على الأقل يومياً فى الذهاب والعودة من بيته إلى الجامعة.

وفى صباح يوم شتوى شديد البرودة، قصد الجامعة، واخترق حديقة لكسمبورج فوجد أرضها كسمائها مُغطاة بطبقة من الثلج الناعم لا يقل سمكه عن شبر فى طرق السير، وثلاثة أشبار أو أربعة فى الأرض والأماكن المنعزلة.

ويذكر "أحمد ضيف" فى مقالة بعنوان: «باريس فى حُلة بيضاء» أنه كان يحب منظر الثلوج على الأرض «لأنه فن جميل من فنون الطبيعة؛ ولأنه غريب عنا، ولا يوجد فى بلادنا..».

ويضيف: «أخذت طريقى فى الحديقة وأنا لا أدرى كيف أخترقها، وكلما رميت بقدمى انغرست إلى الكعب ثم انسلت نظيفة نقية، فكنت أشعر بنوع من الارتياح .. ورأيت أشجار الحديقة، وأغصانها الكثيرة الجافة المتشعبة مكسوة ببياض ناصع يتخلل سوادها الأصلى كأنها مُطعمة بالفضة.. أو كأن بها أعمدة من زئبق، وقد تجمع الصقيع على

أغصانها الكثيفة فكوّن شيئاً بالزهر الأبيض المُتفتح، وتحت ذلك أرض بيضاء غبراء. كنت أنظر فى هذه الطرق الخالية فأشعر بالعُزلة وألمح سكوناً تاماً أُسدل على العالم فأهمد حركته الكبيرة، وأحياناً كنت أرى على بُعد إنساناً فألمح شبحاً أسود هادئاً يمرّ تحت هذه الأشجار، فتتساقط عليه بعض ذرات الصقيع، فلا يلتفت كأنه يخترق ميدان حرب بالقرب من العدو فلا يريد أن يشعر به إنسان..

«ثم اجتزت الجانب الشرقى ومررت بقصر الشيوخ وإذا الكساء الأبيض قد وهبه هيبة ووقاراً. أما التماثيل فكان على رأس كل تمثال تاج من فضة، وعلى جسمه كساءً بالٍ من حرير أبيض. فلما وصلت إلى الجهة الغربية رأيت بعض الأطفال والفتيات يتقاذفون بقطع الثلج، فيأخذ أحدهم قبضة منه، ويلقى بها على رفيقه فيغمره بمسحوق كمسحوق السكر.. وقد تبعتنى فتاة إلى أن كادت تُخرجنى من الحديقة وأنا أعدو أمامها وهى تقفو أثرى..».

ويعد هذا الوصف الجميل الذى أبدعه الدكتور "أحمد ضيف" بأسلوب أدبى رفيع يخلص إلى نتيجة شبه مؤكدة فى نظره، يقول فيها: «إن باريس اليوم أبدع ما يستطيع إنسان أن يتصور من الجمال».

بين "طه حسين" و "أحمد ضيف"..

ولعل هذا الإعجاب الشديد بعاصمة الإفرنج، هو الذى دفعه إلى أن ينهل من علومها، وينقل عن مفكريها، ونقادها، ومؤرخيها.. فيكتب يحدثنا عن مذاهب "سانت بيف"، و"هيبوليت تيت"، "وجيل لوميتر". كما لم يتردد فى الإفصاح عن رفضه لبعض آراء الفيلسوف الفرنسى الشهير "أرنست رينان" حول أثر الجنس أو "العرق" فى الأدب مُتهماً

إياه بأنه عدو للأمم السامية.

ويذكر المؤرخون لأدب "أحمد ضيف" - وهم قليلون للأسف - أن أهم ما ترك لنا إلى جانب محاولاته فى القصة والرواية والتمثيلية هو كتابه «مقدمة لدراسة بلاغة العرب» الذى كان حصيلة صلته المباشرة بالثقافة الفرنسية والتخصص فى الأدب من ناحية، كما كان من ناحية أخرى أول جهد جامعى مصرى من نوعه، باعتبار أن "ضيف" هو أول مُتخصص مصرى يُحاضر فى الأدب على أساس المناهج الأوروبية الحديثة. وقد حل بعد عودته من البعثة محل الشيخ "مصطفى القاياتى" فى تدريس الأدب العربى.

أما الكتاب الثانى الذى لا يقل أهمية عن السابق فهو بعنوان «بلاغة العرب فى الأندلس»، إلا أنه لم يحظ برضا زميله "طه حسين" الذى ما إن قرأه بعد عودته من باريس، حتى كتب فصلاً نقدياً نشرته جريدة «السياسة» فى عام ١٩٢٥، اتهم فيه "أحمد ضيف" بأنه يُرسل القول على علاته وأنه يجهل اللغة أو يُهملها، ونصح "أحمد ضيف" فى نهاية الفصل بأن يحرص فى كتبه المقبلة على الأناة العلمية التى تنقصه، والتى تكفل من غير شك لمؤلفاته ما هى أهل له من الإتقان والفوز!

ويرى النقاد أن هذا الكلام العنيف كان له وقع الخنجر المسموم فى قلب "أحمد ضيف": لأن "طه حسين" ضربه فى الصميم وشكَّك فى قدراته كمعلم وباحث، وذهب إلى القول بأن رجلاً مثله غير ناضج، لن يوفق فى التعليم، ومن ثم فى تخريج تلاميذ وباحثين علميين. أما أشد ما آلم "أحمد ضيف" فهو أنه كان أسبق من "طه حسين" فى التخصص فى الأدب، وفى الدراسة بباريس، ثم فى العودة إلى مصر. لكن نجم "طه حسين" الساطع كاد يغطى عليه، ويخفيه خصوصاً بعد عودة "طه"

إلى مصر ودعوته بحماس للأفكار التي تعلمّها في باريس، والتي كان قد سبقه إليها "أحمد ضيف".. وهو ما يعني أن نوعاً من المنافسة الحامية كان قائماً بين الرجلين، وقد انتصر فيها "طه حسين" لعدة أسباب. منها أن "أحمد ضيف" تقوقع داخل الجامعة، ولم يظهر على الناس في صحيفة أو مجلة عامة ذائعة مثلما فعل "طه حسين" الذي لم يكتف بإلقاء محاضراته في الجامعة، وإنما حرص على أن يعرض مكتسباته الأدبية التي جاء بها من باريس في الصحف الأسبوعية ذائعة الصيت، مما أتاح له فضاءً جماهيرياً أوسع.

كما يروى في هذا الخصوص أن العلاقة بين "طه حسين" و"أحمد ضيف" قد ساءت كثيراً خصوصاً بعدما صدر قرار غامض (لم تعرف أسبابه حتى الآن!) يقضي بنقل الدكتور "أحمد ضيف" إلى مدرسة المعلمين العليا، ويعين "طه حسين" كأستاذ للأدب العربي في الجامعة بدلاً منه.

ويُقال إن "أحمد ضيف" ظل في مدرسة المعلمين سبع سنوات، ثم انتقل في عام ١٩٣٢ إلى مدرسة "دار العلوم" التي كان قد تخرج فيها، ورُقي وكيلاً لها عام ١٩٣٨، وظل بها حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٤٠، وبعدها عمل - حتى وفاته - أستاذاً غير متفرغ بكلية الآداب بالجامعة التي أُبعد عنها من قبل.

يبقى أخيراً أن نذكر أن "أحمد ضيف" قد انفرد بدعوتين، كانتا في جانب كبير منهما من مكتسبات دراسته الباريسية. الأولى: هي الدعوة للأدب القومي، وتعني ضرورة تعبير الأدب عن الروح القومية للمجتمع الذي يُنتجه. والثانية: هي دراسة الأدب الشعبي، وبذلك تكون شخصية"أحمد ضيف" إحدى الشخصيات المصرية الخصبة التي عاشت

الغربة في باريس قلباً وقالباً، وسجلت لنا انطباعاتها ورؤاها حول ذات القضايا الثقافية والحضارية التي يعيشها الباحثون المغتربون في باريس اليوم، إلى جانب دوره الرائد في الأدب والذوق والحياة، والذي جاء كأحد مكتسبات السنوات الثماني التي أمضاها الرجل في عاصمة الفرنجة.

د. محمد صبرى السوربونى..

يقول "غالى شكرى" إنه حمل الأوراق بعد أن فرغ من صياغة الحوار الصياغة النهائية، وذهب إلى الدكتور السوربونى فى منزله، وقدمها إليه.. وقبل أن يهم بالجلوس فوجئ بالدكتور السوربونى ينهال على الأوراق تقطيعاً وتمزيقاً، حتى أصبحت أكبر ورقة فيها لا تزيد على حجم علبة الكبريت!

فصرخ "غالى شكرى" على الرغم منه، وقال مُلتاعاً:

- لماذا فعلت ذلك يا دكتور؟!

فأجابه "صبرى السوربونى" فى صوت مُشبع باليأس والإحباط:

- صدقنى يا ولدى.. ليس فى حياتى ما يستحق أن يُقال أو يُكتب، ثم أخفض ناظريه، واستسلم لصمت عميق!

أول ما يلفت النظر إلى "محمد صبرى السوربونى" هو لقبه، وكيف هو المصرى القُح الذى وُلد فى إحدى قرى محافظة القليوبية، يحمل لقباً منسوباً إلى إحدى أعرق جامعات العالم، وهى جامعة "السوربون".. ثم نكتشف أن هذا اللقب ليس أصيلاً فيه، وإنما أُقحم على اسمه وأصبح معروفاً به، والسبب أنه كان حريصاً أن يكتب بجوار اسمه عبارة «حاصل على دكتوراه الدولة من السوربون»، مما جعل أصدقاءه يطلقون عليه من قبيل الاختصار والإرضاء أيضاً اسم «السوربونى»..

وأياً كان الأمر، فالثابت أن هذا الرجل وُلد عام ١٨٨٠، وتلقى تعليمه الابتدائى فى مدرسة "النحاسين" أمام جامع "قلاوون"، والثانوى فى المدرسة الخديوية، وهو من العصاميين القلائل الذين اعتمدوا على إمكاناتهم الذاتية، وعبروا البحار؛ لكى يواصلوا تكوينهم الفكرى والثقافى فى الجامعات الأوروبية.. وكانت البداية فى عام ١٩١٣ عندما ركب "صبرى السوربونى" البحر عقب حصوله على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) من منازلهم، ووصل إلى مدينة "مرسيليا"، التى أمضى فيها بضعة أيام، ثم انتقل إلى مدينة "ليون" التى كانت تعج فى ذلك الوقت بالطلبة المصريين.. وفى ضواحى هذه المدينة التحق بإحدى

مدارس تعليم اللغة الفرنسية، ثم عكف على دراسة شعر لامرتين وفيكتور هوجو قبل أن يُقرر الذهاب إلى باريس، والانتظام في كبرى جامعاتها.

وقد زامل "طه حسين" وبدأ معاً بدراسة الليسانس، حيث حصل عليها "طه حسين" في عام ١٩١٨، بينما لم يُوفق "صبري السوربوني" في الحصول عليها إلا في العام التالي.

ويروي "صبري السوربوني" هذه الواقعة، فيقول: «دخلت أنا والدكتور "طه حسين" امتحان الليسانس في عام واحد، وعندما أعلنت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمي ولا اسمه ـ كان ذلك في عام ١٩١٨ ـ وفي اليوم التالي وجدت اسمه محشوراً بين السطور فتوجهت إليه وأخبرته».

وظل "طه حسين" يذكر بامتنان وتقدير بالغين هذا الموقف النبيل من زميله "صبري السوربوني"، فيقول في "الجزء الثالث" من «الأيام»:

«كان الأستاذ الدكتور "صبري السوربوني" هو الذي أقبل ذات مساء فرحاً يكاد يخرجه الفرح عن طوره، مكدوداً يكاد يقطع الإعياء تنفسه؛ لشدة ما جرى بين السوربون وبين "بيت الفتى"؛ ولشدة ما أسرع في صعود السلم إلى بيت الفتى في الطبقة السادسة. فلم يكد يُفتح له الباب حتى أعلن لمن فتح له أن زميله قد ظفر بدرجة الليسانس، ولم يدخل وإنما رجع أدراجه، ولم يرد أن يستريح، وكان الزميل الكريم ـ يقصد "صبري السوربوني" ـ قد تقدم للامتحان، ولم يكد ينظر في النص اللاتيني حتى طواه وقدم صفحته البيضاء، وانصرف ضاحكاً متمثلاً ببيته اللاتيني، ذاك الذي يصور اليأس والقنوط، فكان رائعاً حقاً أن يكون ابتهاجه بفوز زميله بهذه الدرجة العسيرة أملك له، وأشدّ استئثاراً به من إخفاقه هو في الامتحان».

وعندما سُئل "طه حسين" عن "صبرى السوربونى": إلى أى حد كان دءوباً ومُصراً على النجاح؟ أجاب يقول: «.. لم يعرف يأساً أو قنوطاً، ولم يذعن لعقبة أو صعوبة، وإنما حاول وطاول، وألح فى المحاولة والمطاولة، حتى تقدم للامتحان ذات يوم، وتلقى النص اللاتينى فلم ينظر فيه نظرة سريعة وإنما أقبل عليه فترجمه، وقدم إلى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجاح».

وقد انشغل "صبرى السوربونى" طوال مدة إقامته فى باريس بشيئين، هما: التاريخ والأدب، وقد انعكس هذا الانشغال فى أسلوبه، فأصبح أسلوباً تاريخياً مُتأدباً، كما ظهر أيضاً أثر ذلك فى منهجيته الفكرية التى جعلته يُعطى للوثيقة (التاريخية) أو (للنص الأدبى) المكانة التى يستحقها أثناء القراءة والاستقصاء، والتحليل.. فبادر الرجل بتسجيل أطروحته للدكتوراه تحت عنوان «نشأة الروح القومية فى مصر» وتتناول تاريخ مصر الحديث من عصر محمد على حتى الثورة العُرابية، ثم غرق بعد ذلك فى قراءة تاريخ هذه المرحلة، كما أُتيح له أن يلتقى بأعضاء الوفد المصرى الذين سافروا إلى باريس فى ١١ أبريل عام ١٩١٩، حيث عمل «معاوناً» لمحمد كامل سليم السكرتير الخاص لسعد زغلول..

بين التأريخ.. والأدب

ويحكم هذه الصلة تمكن "محمد صبرى السوربونى" من معرفة دقائق المباحثات، كما استفاد من الوثائق والمعلومات التى كان يذكرها قادة الوفد أثناء المشاورات، وبعد أن شعر بأنه يمتلك مادة تاريخية خصبة وغنية، قرر أن يبدأ كتاباته التاريخية، فأصدر الجزء الأول من

«الثورة المصرية» باللغة الفرنسية عام ١٩١٩، وأصدر الجزء الثاني بالفرنسية أيضاً عام ١٩٢١، وكان في عام ١٩٢٠ قد أصدر كتاباً بعنوان «المسألة المصرية»..

وبعد أن حصل على الدكتوراه في عام ١٩٢٤، عاد إلى مصر؛ ليعمل بمدرسة "المعلمين" و"دار العلوم"، ثم توالت مؤلفاته باللغة الفرنسية، فأصدر في عام ١٩٣٠ كتابه «الامبراطورية المصرية في عهد محمد على والمسألة الشرقية»، وأصدر في عام ١٩٣٣ كتاباً بعنوان: «الامبراطورية المصرية في عهد إسماعيل والتدخل الإنكليزي ـ الفرنسي»، وفي عام ١٩٤٧ كلفه رئيس الوزراء "محمود فهمي النقراشي" بأن يضع مؤلفاً بالفرنسية عن مسألة السودان، ظهر فيما بعد باسم «الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر»، وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر وضع كتاب «أسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨»، وأرسل الرئيس عبدالناصر يشكره على هذا الصنيع، وأعقبه بكتاب بعنوان: «فضيحة السويس» عام ١٩٥٨، ندّد فيه بالغرب الاستعماري.

اللافت للنظر أن معظم هذه المؤلفات قد وضعها "محمد صبري" باللغة الفرنسية، كما أنه طبعها من ماله الخاص، وظل وفياً طوال حياته لمبادئه وأفكاره على الرغم من الجحود الذي لقيه من الكثيرين.

وقد أشاد البعض بهذه المؤلفات، فذكر الفقيه القانوني الكبير "عبدالحميد بدوي" أن كتاب «الامبراطورية المصرية في إفريقيا» الذي وضعه "محمد صبري السوربوني" هو أثر نفيس وعظيم يستحق مُؤلفه من أمته كل مظاهر التبجيل والتوقير.

كما أثنى الراحل "فتحي رضوان" ـ وكان من أكثر المتحمسين له ـ على موهبته كمؤرخ يُطيل صبره على الوثيقة، ويجرى لاهثاً وراء الفهم

الصحيح والتاريخ المحقق، والورقة الضائعة والكتاب المندثر؛ ليحصل بعد العناء والجهد على حقيقة صغيرة.

هذا عن انشغال "محمد صبرى السوربونى" بالتاريخ.. فماذا عن الأدب؟.. يذكر المهتمون بحياة "السوربونى" أنه كان مولعاً بالشعر منذ الصغر، ويقال إنه تعثر فى المرحلة الثانوية أكثر من مرة بسبب تعلقه بالشعر، ولا شك أن إقباله على دراسة شعر لامرتين وفيكتور هوجو بُعيد وصوله مباشرة إلى مدينة "ليون" يُفسر لنا، بشكل ما، جانباً من هذا التعلق الذى يُقال إنه نما معه عندما كان يصطحبه والده المهندس الزراعى، وهو يجوب قرى محافظات القليوبية والشرقية. فصار من عشاق الطبيعة، وأولع بالشعراء والمتفننين الذين صوروها فى أنغام شعرية أو لوحات فنية.

ومع قراءاته العميقة فى الشعر العربى القديم والحديث، ارتبط "السوربونى" بالحركة الأدبية منذ العقد الأول من القرن العشرين، وتوطدت صلته بكتّاب ومبدعى مصر، أمثال "المنفلوطى" و"إسماعيل صبرى" و"الزهاوى"، وكان من نتائج هذا الارتباط كتابه «شعر العصر» فى جزءين (١٩١٠ - ١٩١٢) الذى جمع فيه مختارات كثيرة للشعراء المحدثين، وكان هو أيضاً شاعراً ينشر نتاجه فى «الأهرام»، و«المؤيد» ومجلة «الملاجئ العباسية».

وقدم "المنفلوطى" الجزء الأول من «شعراء العصر»، كما قدم "الزهاوى" الجزء الثانى، ثم توالت كتاباته التى جمعها فى كتابه «ادب وتاريخ واجتماع»، وتواصل عطاؤه الأدبى فكتب دراسات أدبية عن كبار الشعراء المعاصرين له مثل "البارودى" و"شوقى" و"إسماعيل صبرى"..

"السوربوني".. بنيوياً

وفى باريس لم يستطع "محمد صبرى السوربونى" أن ينأى بنفسه عن رياض الشعر، وحدائق الأدب، فأطلق لنفسه العنان؛ ليقطف من هنا زهرة، ويجنى من هناك ثمرة، وقرأ مدارس الشعر، وتعرف على الجديد فيها، وزاوج بين ما يحفظ من شعر عربى قديم، وبين ما يرى ويشاهد من اتجاهات شعرية وأدبية حديثة، فكان على سبيل المثال من القليلين الذين استفادوا من "نظرية البنائية" فى النقد، ذكر "البنائية" فى كتابه عن "امرئ القيس" الصادر عام ١٩٤٤ عندما نعى على النقاد العرب القدامى قصور طرائقهم فى النقد، والتمس لهم العذر فى جهلهم بطريقة "النقد البنائية" (بحثاً وتحليلاً).

كما تزود فى قراءاته فى الأدب الأوروبى بحصيلة واسعة انعكست فى تعليقاته على أشعار العرب. فعندما يتحدث عن "هوميروس" و"مونتانى" و"جيته"، و"بيرون" و"شيلى"، و"ألفرد دى موسيه"، و"شيلر"، و"كونت دى ليل"، يذكر من أقوالهم أو أشعارهم ماله مثيل عند العرب مثل:

* نظرة أبى العلاء إلى "الأرض" التى يقول فيها: «ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد». تُقارب نظرة الشاعر الفرد دى فينى إلى «الطبيعة» التى يقول فيها: «إنهم يسمونك أُمّاً وما أنت إلا قبر».

* وقول "أبى العتاهية": «روائح الجنة فى الشباب» يشابهه قول "الكونت دى ليل": «أيها الشباب يا أرج الغاب والشجر»، و"أبو العتاهية" هنا يتمثل الشباب فى "روائح الجنة". أما "الكونت دى ليل" فقد تمثله فى "أرج الغاب". وهو مايعنى أن قوة الحس والتخيل عندهما واحدة.

* وصَفَ عربيٌّ قدمَيْن، فقال: «ويحمل ذلك قدمان كحذو اللسان تبارك الله، مع صغرهما، كيف تُطيقان حمل ما فوقهما»، ويقول "صبرى السوربونى": «إنى لا أعرف لذلك نظيراً إلا قول "فيكتور هوجو": «كانت تسير إلى جانبى وقدمها الفتانة تسخر بصغرهما من الأقذار تضحك بجوار قدمى».

والأمثلة من هذا وافرة كاثرة فى كتبه، وتأتى فى موضعها من السياق، وهى إن دلت على غزارة محصوله الأدبى، فإنها كما يقول "أحمد حسين الطماوى" - كاتب سيرة السوربونى - تُظهر أيضاً وحدة المشاعر الإنسانية، وصحة تخيل بعض الشعراء للأشياء.

وفى إطار المزاوجة بين الأدبين العربى، والأوروبى، نجد أن السوربونى يوازن دائماً فى سياق كلامه بين الأدبين العربى والغربى فى النواحى التى يتطرق إليها، فيجلب نصوصاً أجنبية ويضعها بجانب نصوص عربية، ويعنى بالمذاق الأدبى والجوهر الفنى والإنسانى، ومن هذه الموازنات إشاراته المتكررة إلى أن الشعر العربى يمتاز عن الشعر الأوروبى بمقاطعه التى تتكون من بيتين إلى ستة، وقل أن نجد نظير هذا فى الشعر الافرنجى الذى يتميز بالقصائد الطوال بالحوادث الكبرى واللوحات الواسعة من مناظر الطبيعة وتاريخ الإنسان. ويُبين أن من عادة العرب التغنى بالشعر فى حين أن الإفرنج ينشدون شعرهم تمثيلاً أو مجرد إلقاء محكم لا يصحبه غناء، وقد تصحبه الموسيقى.

ويوضح أن الشعر الجاهلى يمتاز على الشعر الإفرنجى بتصوير البادية وحيوانها، ويرى أن الشعر الجاهلى يُكمل الشعر الإفرنجى، كما يكمله فنا التصوير والحفر. اللذان يسدان ما يعتوره من نقص فى هذه

الناحية، أى أن التصوير الفنى والنحت سدا نقصاً فى الشعر الإفرنجى فى مجال التصوير الحيوانى، ثم يُعطى السوربونى حكماً على الأدبين العربى والأوروبى، يرى النقاد أنه حكم عادل، فهو لا يسلب الأدب الأوروبى حقه أو يجور عليه من أجل إنصاف الشعر العربى، وإنما يقول ما ترسخ فى اعتقاده.. ومن هذا قوله فى "الشوقيات المجهولة": «ليس فى شعراء العرب نداً لجيته أو شكسبير، وليس فى الشعر العربى ذلك السبح الطويل فى أجواء الطبيعة والحياة، ولكن للشعر العربى خصائصه وميزاته، فقد استبحر فى الحب وصور أدق العواطف، كان الإعرابى خبيراً بالمرأة لمخالطته إياها..».

وقد أبدع الإفرنج فى تحليل الحب، ولكن القليل منهم انقطعوا لشعر الحب، وأفنوا العمر فى التشبيب والتغنى بالمحبوبة كما عند العرب. كما أن شعر الحكمة والحماسة والفخر عند العرب لا نظير له عند الإفرنج؛ لأن العبقرية العربية وحدها هى التى فاضت به، ولهم فى بكاء الديار والأيام والنعيم الزائل صرخات فى الكون، لاتقل فى بهائها وروعها عن صرخات الإفرنج أمام الوجود المغلق والسكون المزعج فى الفضاء».

وإذا كانت مثل هذه الموازنات ترد فى شكل خطوط عريضة وتفتقد التفصيل والتأنى، فإنه فى كتابه «أدب وتاريخ واجتماع» عقد فصلاً كبيراً وازن فيه بين "امرىء القيس" و"جيته"، وكان الأساس الذى أقام عليه الموازنة هو «تمثل كل منهما للواقع وولعهما بالحقائق وعدم الإسهاب فى الخيال، والانصراف إلى الأشكال والمرئيات، والمناظر البيئية التى تقع فى نطاق الحس..»

وفى ميدان الفن التشكيلى لا ننسى أن "السوربونى" زاوج بين الفن

والشعر؛ لأنهما كما يقول: "متشابهان فى المصادر والينابيع"، ويذكر النقاد شرحاً وافياً ضمّنه كتابه «الشعر الجاهلى خصائصه وأعلامه». يوازن فيه بين بيت من الشعر لضابئ بن الحارث البرجمى يصوّر مطاردة كلاب لثور، وبين لوحة فى متحف اللوفر للفنان البلچيكى "اسيندر" يرسم فيها حركات الكلاب وهى تطارد الثيتل..

عودته إلى أوروبا..

وقد عاد "السوربونى" إلى الحياة الأوروبية ثانية عندما أوفد؛ ليشغل منصب مدير البعثات التعليمية المصرية فى أوروبا، وكان مقر هذه الإدارة فى جنيف.. وفى هذه المدينة تعرف إلى فتاة سويسرية اقترن بها فى عام ١٩٣٨، وانتقل إلى مصر وأنجب منها بنتاً وولدين. هم: منى، وإسماعيل، وعلى، وعندما أنهى مدته فى جنيف عاد؛ ليشغل منصب نائب مدير عام دار الكتب المصرية، وكانت تابعة لوزارة المعارف فى ذلك الوقت، وعندما خلا منصب مدير الدار فى ديسمبر عام ١٩٤٦، رفض عبدالرازق السنهورى وزير المعارف ترقيته؛ ليشغل المكان؛ لأنه كان على خلاف معه، وجاء بمدير جديد مُتخطياً السوربونى الذى قدم استقالته، وتفرغ لتدريس التاريخ الحديث بالجامعة، ثم عُين فى عام ١٩٥١ مديراً لمعهد الوثائق والمكتبات بجامعة فؤاد الأول.. وفى نفس العام هجرته زوجته فعاش فى منزله بمفرده بعد أن طُرد من وظيفته بعد قيام الثورة، وتفرغ لوضع كتابين هامين هما: «خليل مطران.. أروع ماكتب»، و«الشوقيات المجهولة»، ثم عكف على إصدار موسوعة ضخمة بعنوان: «حضارة العرب فى الكونغو» أنجز منها نحو ألف وستمائة صفحة باللغة الفرنسية، إلا أن الموت لم يُمهله لكى يطبعها، ومات فى

يناير عام ١٩٧٨ بعد معاناة طويلة مع أمراض الشيخوخة.. لكن مؤرخي حياة هذا الرجل يؤكدون أنه كان يشعر بمرارة الظلم والنكران، فقد نظم القصائد الكثيرة ولم يُدخله أحد في عداد الأدباء أو حتى في عداد مؤرخي الأدب.. واتصل بقادة الوفد المصري في باريس، ووضع أكثر من مؤلف في تاريخ مصر الحديث، ولم يعترف به أحد في دنيا التاريخ.. ووضع معظم مؤلفاته باللغة الفرنسية، ولم يلتفت أحد لترجمة أعماله، وأفنى سنوات من عمره بين دهاليز دار الكتب بحثاً عن «الشوقيات المجهولة»، فأصابه من بعض النقاد اتهامات بالتزييف والانتحال، بل إن شوقي نفسه قد جرحه في كبريائه جرحاً غائراً ذات يوم..

يقول "صبري السوربوني": «أذكر أنى رافقت "شوقي" في رحلته إلى أوروبا في صيف عام ١٩٢٣، وكان يفكر وهو في باريس في الذهاب إلى شاطىء البحر، فقلت له: أريد أن أنتهز هذه الفرصة لتأريخ حياتك وشعرك، فبادهني بسؤاله: عايز كام؟!

فأجبت: مش عايز حاجة!

.. وانتهى كل شيء».

لكن عشق "السوربوني" لشوقي لم يمنعه بعد رحيل الأخير من أن يتكبد الأهوال؛ لتجميع الشوقيات المجهولة".

ويُروى أن "صبري السوربوني" قد عزل نفسه في سنواته الأخيرة لا يتصل بأحد، ويكره أن يتصل به الآخرون.. واشتدت عليه سوداويته تجاه الحياة والبشر، حتى شعر بهوانه على نفسه وعلى الناس، وتقمصته روح ناكرة لكل ما قدم أو فعل..

فيذكر الناقد "غالي شكري" أن الدكتور "السوربوني": كان قد وافق بعد إلحاح على أن يُجرى معه حواراً مطوّلاً يشمل كل جوانب الإبداع

الأدبى والنقدى التى قام بها منذ بواكير حياته الفكرية، وحتى ذلك الوقت.. ثم التقى به ثلاث مرات فى منزله بحلمية الزيتون بالقاهرة، وعكف بعد ذلك على تنقيح الحوار وإعداده للنشر، ثم فوجئ بالدكتور "السوربونى" يتصل به ذات مساء، طالباً إليه أن يسمح له بقراءة نص الحوار، حتى يتمكن من تصحيح بعض التواريخ التى يظن أنها غير دقيقة.

ويقول "غالى شكرى" إنه حمل الأوراق بعد أن فرغ من صياغة الحوار الصياغة النهائية، وذهب إلى الدكتور السوربونى فى منزله، وقدمها إليه.. وقبل أن يهم بالجلوس فوجئ بالدكتور السوربونى ينهال على الأوراق تقطيعاً وتمزيقاً، حتى أصبحت أكبر ورقة فيها لا تزيد على حجم علبة الكبريت!

فصرخ "غالى شكرى" على الرغم منه، وقال مُلتاعاً:

ـ لماذا فعلت ذلك يا دكتور؟!

فأجابه "صبرى السوربونى" فى صوت مُشبع باليأس والإحباط:

ـ صدقنى يا ولدى.. ليس فى حياتى ما يستحق أن يُقال أو يُكتب، ثم أخفض ناظريه، واستسلم لصمت عميق!

مصطفى كامل:

أفرنسا يا من رفعت البلايا ☆ عن شــعوب تهزها ذكـراك

انصرى مصر إن مصر بسوء ☆ واحفظى النيل من مهاوى الهلاك

وانشـرى فى الورى الحقائق ☆ حتى تجتلى الخير أمة تهواك

لا أحد يعرف على وجه التحديد عدد المرات التى ذهب فيها الزعيم الوطنى "مصطفى كامل" إلى باريس، لكن الثابت أنه جاءها لأول مرة فى ٢٣ يونيو ١٨٩٣؛ ليؤدى امتحان السنة الأولى بكلية الحقوق.. وكان "مصطفى كامل" طالباً فى مدرسة الحقوق الخديوية، لكن رغبته فى مضاعفة إنجازات حياته دفعته إلى الالتحاق فى العام التالى بمدرسة الحقوق الفرنسية، فكان يقضى نهاره فى المدرسة الأولى، ويقضى المساء فى المدرسة الثانية، وقد بدأ هذا المشوار العلمى المكثف بتعلم اللغة الفرنسية التى أصبح فيما بعد من أبرز المتحدثين بها، وقد تمكن أثناء هذه الزيارة التى استغرقت شهرين، من التعرف عن كثب على الحضارة الأوروبية من خلال الاطلاع على الكتب التى كان يعثر عليها فى المكتبات والمعاهد، ومن خلال الاحتكاك المباشر بأبناء الشعب الفرنسى والتحدث مع ذوى الرأى.. وقد كان سعيداً بهذه الظروف الجديدة التى يعيشها، فكتب فى أول رسالة لأخيه "على فهمى" يقول:

«لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين، وبولونيين، ويابانيين، فرأيتهم جميعاً مُنكبين على العلم، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضة، وأعلاهم ذكاء، ولا ينقصه إلا الإرادة التى هى أُسُ النجاح».

وفى صيف العام التالى (١٨٩٤) عاد إلى باريس؛ لأداء امتحان السنة الثانية، فخطر بباله أن يؤدى امتحان السنتين الثانية والثالثة معاً، إلا أنه اصطدم بلوائح جامعة باريس التى تمنع ذلك. فاستعان باستاذيه "مسيو ديروزاس" ناظر مدرسة الحقوق الفرنسية، و"مسيو مولر" أستاذ الاقتصاد السياسى بها، اللذين نصحاه بأن يكتفى بامتحان السنة الثانية فقط، إشفاقاً على صحته. لكنه رفض، وأمام إصراره اقترحا عليه أن يؤدى الامتحان فى جامعة "تولوز"، لأن لوائحها أكثر مرونة، ويمكن أن تقبل هذا الأمر الذى لا يؤته إلا القليلون، وبالفعل اجتاز "مصطفى كامل" امتحان السنتين بنجاح، وحصل على ليسانس الحقوق، وعمره لا يتجاوز العشرين عاماً.

لقد استرعى نجاح الشاب "مصطفى كامل" اهتمام أبناء مدينة "تولوز"، فكتبت صحيفة «لاديبيش دى تولوز» تقول:

«بين الذين نجحوا فى كليتنا الحقوقية، شاب مصرى هو "مصطفى كامل"، وهذا الشاب لم يكن من الذين قُيِّدوا فى الكلية من مبدأ دراسة الحقوق، بل هذه أول مرة له فيها، من يعلم أنه دخل امتحان يوليو الماضى أمام كلية الحقوق بجامعة باريس، واجتازه بنجاح باهر، فإنه يدهش كثيراً لهذا الذكاء النادر.. ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا؛ لأن تاريخ مصر يشتمل على الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التى تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسموّ مداركهم من زمن بعيد، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا فى مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة فى مدارسها صنفوا التآليف الكثيرة فى دفائن الذكاء المصرى، حتى رفعوه فوق كل ذكاء».

ثم استطردت الصحيفة تشرح أسباب هذا النبوغ، فتقول: «الظاهر

أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التى أوجدت فى المصريين هذا الذكاء النادر. فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة، فضلاً عن ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الأكيدة فى الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة. لابد أن يسترجع مجدها هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيراً، ونجلهم إجلالاً، وليس فى وسعنا بعد الذى شاهدناه من ذكاء "مصطفى كامل"، إلا أن نهنئ مصر به، ونرجو له النجاح التام فى العمل الذى يريد به خدمة بلاده؛ لأن الغيرة التى شاهدناها على مُحيّاه والطلاقة التى تشير إلى مستقبله، والتى تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة، لابد أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال، ثم لا ينس القارئ أنه يبدو على وجه "مصطفى كامل" الصفاء التام فى القول، والفعل، وأن قلبه لا يزال طاهراً كريماً، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة قد هذبت علمه الغربى تهذيباً لم نره فى حياتنا إلا قليلاً..».

وختمت الصحيفة حديثها الذى يشبه الغزل فى الشاب المصرى "مصطفى كامل"، فقالت: «إن مدينة "تولوز" لتفخر بأن يسجِّل فى عداد الذين تخرجوا فى كلياتها شابٌ كهذا الشاب نقى الفؤاد، مُتصفاً بكل ما يزن المرء من علم وأدب، ورأى صائب».

وكانت صحيفة أخرى باسم «جازيت دى تولوز» قد نشرت حديثاً مع "مصطفى كامل" فور اجتيازه امتحان السنتين (الثانية والثالثة فى كلية الحقوق) وسألته عن سبب إصراره على الجمع بين العامين الدارسيين، فأجاب يقول:

«لأننى كنت قد وعدت شخصاً أحترمه (هو أخى "حسين واصف باشا") بذلك؛ ولأنى أردت أن أخرج من قيد طلب العلم إلى ميدان العمل

والدأب، وسأنضم فور عودتي إلى بلدي مصر، إلى صفوف المحامين؛ لأني ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ، ولا يرون فائدة ترجى من التوظف فيها أو الاستظلال بظلها.. وكيف لا يكون الأمر كذلك، والموظف مُنفِّذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شيء لديكم وهو الدستور».

وقد علقت الصحيفة على الحديث بقولها: «هذا كلام ألقاه بتردد وتبصر، "مصطفى كامل" المصري، لكنه كما يبدو، تحمس في الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين، وأنهم استفادوا كثيراً من الدروس التي تلقوها على أساتذة لنا..»

كفاح × كفاح..

وبعد الامتحان، أمضى "مصطفى كامل" شهرين في "تولوز"، وباريس، باحثاً عن المراجع والكتب التي تتناول "المسألة المصرية" ومذكرات السياسيين، وبعض التقارير المهمة من وزارة الخارجية الفرنسية، فملأ بها صندوقين كبيرين، وعاد إلى مصر في ديسمبر عام ١٨٩٤ ليبدأ رحلته كمحام، للدفاع عن قضية واحدة هي قضية الوطن و «إنقاذه من الخطر وإعادته إلى منشئه الأول».

شاء الأقدار أن يبدأ كفاحه قبيل العودة، فالتقى مصادفة بالكولونيل "بارنج" - شقيق اللورد "كرومر" الحاكم الفعلي للبلاد وقتئذ - على ظهر الباخرة التي أقلته من مرسيليا إلى الإسكندرية وأجرى معه حديثاً مطولاً تناول "المسألة المصرية"، نشر جانباً منه في جريدة «الأهرام»، وخلاصته أن الكولونيل يرى ضرورة بقاء الاحتلال الإنجليزي لمصر. أما "مصطفى كامل" فيرى ضرورة الجلاء الذي هو حق لمصر،

وواجب على إنجلترا، وفاقاً لعهودها واحتراماً لمواثيقها.

وعندما سأله الكولونيل عن أنصار المصريين وسفرائهم فى أوروبا الذين تُوكل إليهم مهمة الدعوة إلى جلاء الإنجليز عن مصر، أجابه "مصطفى كامل" يقول: «لنا أوروبا بأسرها.. وإن لم تنصرنا فإن لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما إلى ما نصبو من حرية واستقلال».

لكن ما كاد "مصطفى كامل" يصل إلى مصر ويمضى بها بضعة أشهر حتى اتصل به الخديو "عباس" من خلال أحد أفراد معيّته الخديوية ويُدعى "عبد الرحيم أحمد"، واقترح عليه أن يعود ثانية إلى فرنسا من أجل إقناعها بالضغط على إنجلترا للجلاء عن مصر، وقد وضع "مصطفى كامل" ما يشبه الخطة التى تكفّل الخديو بتمويلها والإنفاق عليها، وتتلخص فى الدعاية لمصر، واستدرار عطف ذوى النفوذ والرأى وإقناعهم بالوقوف بجانب حق مصر، وهو ضرورة جلاء الإنجليز عنها.

وكان "مصطفى كامل" مُتحمساً للعمل الوطنى «من الخارج»؛ لأنه كان قد اكتشف طوال سنوات الدراسة فى فرنسا أن المسألة المصرية مجهولة للرأى العام الأوروبى، بل كانت الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الإنجليزى وليست لها آمال ولا حقوق تُطالب بها.. ولذلك لم يتردد فى قبول اقتراح الخديو "عباس"؛ لأنه أيقن أن الدعاية للقضية المصرية فى الخارج من أمضى الأسلحة فى مجاهدة الاحتلال؛ ولذلك وبعد أقل من خمسة أشهر، حزم "مصطفى كامل" أمتعته وحمل أوراقه وعاد إلى باريس فى أول مايو عام ١٨٩٥، وأقام فى العنوان التالى بباريس: ٢٦ شارع الجامعة. حرص

منذ اللحظة الأولى لوصوله، وبناء على توصية من الخديو "عباس" نفسه، على لقاء شخص سبق أن تعرّف إليه في باريس، عندما كان يؤدي امتحان الحقوق، هو النائب الفرنسي "فرانسوا ديلونكل" المشهور بمعارضته العنيفة للسياسة الإنجليزية، وكان "مصطفى كامل" يتابع مقالاته في الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة في مجلس النواب الفرنسي عن "المسألة المصرية".. كما أنه قد التقى به في مصر، واحتفى به حفاوة خاصة، وشارك في الحفل الذي أُقيم على شرفه بفندق «نيو أوتيل» في الإسكندرية.

وبدأ "مصطفى كامل" رحلته الثانية إلى باريس مناضلاً من أجل القضية المصرية، وليس طالباً كما كان حاله في الرحلة الأولى، وشرع في الاتصال برجال السياسة والصحفيين؛ ليعاونوه في أداء رسالته، وقد كتب لشقيقه "علي فهمي" رسالة يشرح فيها خطته في العمل فيقول: «إنني الآن أقضي ليلي ونهاري في مخالطة كبار السياسيين؛ لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك "المسألة المصرية" وطرحها على بُساط المناقشة من جديد، وإني أجد من نفسي قوة في هذه الأيام ما وجدتها في حياتي، ويبدو أن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قوياً حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة، بيد أني أشعر من جهة أخرى أن البلاد في حاجة لرءوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة.. ولي الأمل أن ينتشر الشعور في البلاد بسرعة، فإنه هو وحده رأس مال مُحرري الأمم والشعوب، وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو».

صورة .. وبيان

ابتكر " مصطفى كامل" طريقة بليغة يلفت بها انتباه كبار رجال السياسة الفرنسيين إلى القضية المصرية، فوضع نداء إلى فرنسا في شكل صورة رمزية قدمها إلى مسيو "هنري بريسون" رئيس مجلس النواب الفرنسي، وتمثل مصر وهي مُقيدة بأصفاد الاحتلال، وتستصرخ فرنسا؛ لتقدم لها العون من أجل نيل حريتها واستقلالها..

وأضاف "مصطفى كامل" ثلاثة أبيات من الشعر إلى الصورة، كتبها باللغتين العربية والفرنسية، وهي:

ويُقال إن "مصطفى كامل" قد طبع من هذه الصورة آلاف النسخ وأرسلها إلى جميع صحف العالم، كما وزعها بالتعاون مع ستة من إخوانه المصريين المقيمين في باريس، على جميع النواب والصحفيين والسياسيين في فرنسا..

لكن أهم من الصورة، كان البيان المرفق بها، والذي يوجهه "مصطفى كامل" إلى رئيس مجلس النواب الفرنسي، ويقول:

حضرة الرئيس.. إنني بأشد انفعال يخالجُ القلبَ تأثيرُه أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب، الذي أنت له نعْمَ الرئيس، هذا اللوحَ الذي يمثلُ مصرَ طالبةً من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حريتها واستقلالها، وأن هذا اللوح ليمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاماً، ولقد برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس، مع ما يعتورها من المصائب الشديدة، على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلب الأمة الأوروبية، ولكن لما اعتراها النُصُبُ جاءت مستغيثة بفرنسا، هذه الدولة

العظيمة التي أعلنت حقوق الإنسان، والتي سارت به منذ قرون في سبيل التقدم والمدنية. جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التي حررت عدة من الأمم فهل تُجاب إلى استغاثتها وتضرعها؟!

ثم يختم البيان قائلاً: «هل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها في العالم الإسلامي الواثق بها؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التي حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها، فلتحيا فرنسا محررة الأمم».

وقد ظلت "الصورة"، والبيان معاً، موضع تعليقات الصحف الفرنسية لعدة أيام، وأجرت صحيفة «الجورنال» حديثاً مع الزعيم الشاب في ٢ يوليو ١٨٩٥ حول المسألة المصرية، علّقت عليه صحيفة «لوكلير» بقولها: «سيكون "لمصطفى كامل" المصري دور مهم في المسألة المصرية؛ لأن أسلوبه السياسي قائم على الصراحة والحق. فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الإنجليزي، الذي كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الانسان».

وبعد يومين اثنين من نشر هذا الحديث الذي كان له تأثير كبير في تبصير الرأي العام الفرنساوي بمساوئ الإنجليز لمصر، سافر "مصطفى كامل" إلى مدينة "تولوز"، حيث ألقى أولى محاضراته في مدرج كلية الآداب، كشف فيها عن تنكر إنجلترا لوعودها، وقد استنجد بأوروبا وفرنسا؛ لمعاونة مصر في استرداد حقوقها المسلوبة، وعلّق عليها رئيس تحرير صحيفة «لاديبيش دي تولوز» يقول:

«إني واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة، حتى يقضي الشعب

المصرى لبانته ويسمع يوماً الحكم له على انجلترا، ولذلك أدعو زملائى أصحاب الصحف إلى تهنئة زميلنا الشاب الغيور، منذ الآن».

ثم عكف "مصطفى كامل" بعد ذلك، على كتابة رسالة موجزة باللغة الفرنسية بعنوان «أخطار الاحتلال البريطانى»، وتحدث فيها ــ ربما لأول مرة ــ عن المشكلة الفلسطينية، وفصل السودان عن مصر قبل حدوثه بأكثر من نصف قرن، كما بيّن فيها أهمية مركز مصر بالنسبة للعالم..

بعد حوالى شهر من كتابته لهذه الرسالة حدث أن ألغى وزير المعارف المصرى البعثة المصرية إلى فرنسا، فطلبت صحيفة «لوكلير» الفرنسية إجراء حوار معه حول هذه القضية، تحدث فيه عن عمق العلاقات بين مصر وفرنسا منذ إنشاء البعثة التعليمية فى عهد "محمد على" وحتى الآن..

وفى مقدمة الحوار، قدمت الصحيفة "مصطفى كامل"، فقالت: «ورد علينا فى الأسبوع الماضى تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر قررت إلغاء الإرسالية فى فرنسا، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر، فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى "مصطفى كامل" وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس؛ لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يُعوّل عليها».

وقبل نهاية العام نظم ندوة فى «الجمعية الجغرافية بباريس»، دعا إليها عدداً كبيراً من رجال السياسة والإعلام الفرنسيين، وتناولت كلمته أبعاد المسألة المصرية، ويُقال إن "مصطفى كامل" قد دعا إلى هذه الندوة الفيلسوف الفرنسى "جون سيمون" الذى اعتذر عن الحضور فى كلمة رقيقة، يقول فيها: «إن كبر سنه وهو فى الحادية والثمانين يمنعه

من الحضور، لكنه لا يمنعه من أن يقول إنه أكثر الناس حباً لمصر، واهتماماً بها».

يا شيخ أحرار إنجلترا.. مهلاً!

ولاشك أن حماسه لم يفتر لحظة واحدة طوال عام ١٨٩٥، وهو عامه الأول في النضال من أجل قضيته الوطنية ، فكان يكتب في الصحف، ويُدلي بالحوارات، ويعقد الندوات، ويلقي المحاضرات، ويلتقي بكبار الساسة، ويؤلف الرسائل باللغة الفرنسية، حتى تمكن في النهاية من إسماع صوت مصر إلى كل ركن في فرنسا، لكنه من مطلع العام الجديد ١٨٩٦، اتجه إلى مخاطبة الرأي العام الأوروبي، واختار شخصية إنجليزية مرموقة هي شخصية مستر "جلادستون" الملقب "بشيخ الأحرار" في إنجلترا، والذي كان رئيساً لوزراء إنجلترا إبان احتلالها لمصر عام ١٨٨٢، وكتب إليه مُذكراً إياه بتصريحاته في البرلمان الإنجليزي، التي كان يقول فيها: «إن بلاده لا تنوى نقض عهودها في الجلاء»، وقد اشتعلت المناقشة مع مستر "جلادستون"، الذي لم يتردد في الرد على الرسائل الثلاث التي أرسلها إليه "مصطفى كامل"، وعلّقت عليها الصحف الفرنسية مثل «لوفيجارو»، و «ديبا»، و «لولكلير»..

وقد بدأ "مصطفى كامل" رسالته الأولى التي كتبها بالإنجليزية، قائلاً:

«سيدي المبجل.. اسمحوا لأحد أبناء وادي النيل، الذي لا أمنية له سوى تحرير بلده، أن يقصدكم اليوم؛ ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر، فقد كنتم منذ احتلت إنجلترا وطننا، أشد نصراء الجلاء.

وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود، فإن عملاً كهذا يمس شرفها أشد المساس».

ومضى يقول: «لقد سجلنا كل تصريحاتكم فى هذا الصدد، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة فى يدكم لأسباب نجهلها جهلاً تاماً، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سالف الزمن، أى أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد، هو الجلاء..

.. ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم فى هذا الوقت الذى اضطربت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا. فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء، كما نظن ذلك، فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟.

وقد رد عليه مستر "جلادستون" برسالة، قال فيها:

«سيدى العزيز..

إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصرياً، ولكننى مجرد تماماً من كل سلطة الآن. أما آرائى فإنها لم تتغير قط، وهى دائماً أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف، ولمصلحة مصر نفسها، العمل الذى من أجله دخلناها.. وأن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين..

«..ولقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب عام ١٨٩٣، ولم يبق عندى شىء أضيفه عليها، وقد كنت مُستعداً لعمل كل ما هو حسن فى سبيل إعطاء آرائى تأثيرها. إلا أننى تركت المنصب، ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين، وإنى أتشرف بأن أكون لك الخاضع

الصادق».

وبعد عدة أشهر عاد "مصطفى كامل" إلى مصر، وألقى كلمة بالفرنسية أمام ممثلى الجاليات الأجنبية فى مدينة الإسكندرية، وكأنه لم ينس رسالته سواء داخل مصر أو خارجها، وفى بداية الصيف عاد ثانية إلى فرنسا مُستأنفاً كفاحه، فأدلى بحديث إلى صحيفة «ليبر بارول» فى ٨ سبتمبر ١٨٩٦. قال فيه: «إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر، وقد علمنا الآن حق العلم أن إنجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطانى للوصول إلى غايتها فى مصر، وليس لها من غاية سوى الاستيلاء عليها. وإنه إذا كانت الأمة المصرية ساكتة اليوم سكوتاً تاماً وصابرة صبراً جميلاً، فإننى لا أستطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين».

ثم واصل حملته فى صحيفة «لوكلير» بمناسبة الذكرى الرابعة عشرة لاحتلال إنجلترا لمصر، فقال فى معرض حديثه مع الصحيفة: «لقد مضى على مصر أربعة عشر عاماً، وهى مقهورة ومضغوط عليها من قوم يُلقبون أنفسهم بممدِّنى العالم! وأن الإنسان عندما يفكر أن الإنجليز مضى عليهم هذا الزمن، وهم يهدمون كل بُنيان فى مصر، ويحاربون أوروبا والمدنية الأوروبية على شواطئ نهر النيل، ويقوضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها، ويقهرون المصريين. كل ذلك ودول أوروبا لم تعمل شيئاً ما ضد الاحتلال، يُظَن أن أوروبا هذه تلاشت، وأنها لا وجود لها اليوم! وليس تذكار ١٤ سبتمبر تذكار حداد للأمة المصرية فقط، بل هو أيضا ـ وأسمح لنفسى أن أقول ذلك ـ تذكار عار وخجل على سياسة أوروبا ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة».

وفى العام التالى أشار فى كلمته، بالفندق الذى كان يُقيم فيه بباريس، إلى الذكرى الخامسة عشرة لاحتلال إنجلترا لمصر، وقال فى الحضور الذى كان يضم مصريين وعثمانيين: «إننى أرى هذا التذكار وأحس آلاماً شديدة لذكراه، آلاماً تختلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور، فالبسوا ثياب الحداد فى ذلك اليوم، واندبوا حظ بلادكم التعسة، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفانى فى سبيل خلاصها».

وعلى الوتيرة نفسها استمر الزعيم الوطنى الشاب "مصطفى كامل" يواصل نضالاته التى انتقل بها إلى العواصم الأوروبية الأخرى، وإن ظلت باريس هى المركز الرئيسى، فسافر إلى فيينا، وبرلين، ولندن، وعرّج على الأستانة، وبودابست، ولم يتوقف عن نشر المقالات، والإدلاء بالأحاديث التى تفضح سياسة الاستعمار الإنجليزى فى مصر، وكان يتعاون معه نفر من أبناء الجالية المصرية المنتشرين فى كل هذه البلدان.

وكان يقطع جولاته هذه، بزيارة سريعة لمصر ثم يعود إلى باريس، ومنها إلى بقية المدن الأخرى حتى أصابه مرض لعين لازمه حتى وفاته فى ١٠ فبراير عام ١٩٠٨. لكن ما لا يمكن أن ننساه هو مقالته التى كتبها عندما بلغه نبأ حادثة "دنشواى"، ونشرتها صحيفة «لوفيجارو» الفرنسية الشهيرة، بعنوان: «إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدّن»، تلك المقالة التى فضح فيها أكاذيب اللورد كرومر؛ إذ كان يدعى أن الفلاحين المصريين يحبون الاحتلال الإنجليزى! وقال الزعيم "مصطفى كامل" فى ختام مقالته: «إن مقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا، ومُحال أن يوجد شيء يُنسينا ذلك المقصد».

هل كانت عسلاً مُصفى؟

لم تكن حياة مصطفى كامل فى باريس عسلاً مُصفى، خصوصاً عندما دب الخلاف بينه والخديو "عباس الثانى" بسبب العضو البرلمانى الفرنسى مسيو "فرانسوا دى لونكل" الذى كان "مصطفى كامل" يراه إنساناً أنانياً، يستخدم "المسألة المصرية"؛ لتحقيق أغراض شخصية، بينما يراه الخديو، غيوراً على مصر، ناهيك عن صداقته الشخصية له.

وقد أوضح "مصطفى كامل" فى رسائله إلى الخديو وجهة نظره، وشرح أسباب رفضه؛ لأن يكون مسيو دى لونكل «الفرنسى» هو المتحدث باسم مصر والمدافع عن استقلالها فى فرنسا وأوروبا.. وذكر أنه يتحدث عن الخديو بخفة فى الأوساط السياسية الفرنسية، كما صدمه بموقفه «اللامبالى» تجاه اللوحة الشهيرة التى تصور مصر مُقيدةً، وتستصرخ فرنسا لنجدتها.. يقول "مصطفى كامل":«لقد أخزنى كل هذه المدة وهو يقول لى يومياً: قدّمها لرئيس الجمهورية! ويوماً آخر يقول: إن رئيس الجمهورية لا يقبل هدايا إلا من الملوك! وفى الختام قال: قدمها إذن لمن تشاء! فقدمتها فى النهاية لرئيس المجلس.»

وأضاف "مصطفى كامل" يقول: «لقد تبين لى أن مسيو "دى لونكل" كان يحب علو اسمه، ويسعى إليه، كما كان لا يُسَرّ مُطلقاً إذا رآنى تعارفت مع أحد؛ لأنه يريد أن أكون طوع عينيه!».

وقد حاول "مصطفى كامل" مرغماً القيام بتصفية الأجواء بينه ومسيو "دى لونكل" طمعاً فى كسب رضا الخديو الذى كان يثق فى "دى لونكل" ثقة كبيرة، ويستمع إلى كل ما يقول دون أدنى نقاش أو مراجعة، لكن الأمور سارت على غير ما يشتهى "مصطفى كامل"، خصوصاً

عندما انقسم المحيطون بالخديو "عباس الثاني" إلى فريقين: فريق يؤيد "دى لونكل" فى خلافه مع "مصطفى كامل"، ويذهب إلى أن الأخير، غض الشباب، عديم الخبرة، ويطمع فى تحقيق زعامة أو مجد شخصى لنفسه، وقد مال هذا الفريق إلى عودة "مصطفى كامل" من باريس؛ لأن الدعاية التى يقوم بها للمسألة المصرية لا طائل من ورائها فى نظرهم..

أما الفريق الثانى: فيرى ان استمرار بقاء مصطفى كامل" فى" باريس هو أمر حيوى بالنسبة لمصر، سيما وأن "مصطفى كامل" يقود حملة إعلامية ضخمة، تقوم على نشر الأحاديث فى الصحف وإلقاء الخطب فى المنتديات، ونشر الرسائل المتوالية عن أهم القضايا المتعلقة بمصر، وكذلك التعارف على الشخصيات المهمة ودعوتهم للولائم عند اللزوم.

وقد انتصر الفريق الأول، ومعظمه من الفرنسيين الذين يعملون فى معية الخديو، وقطع الخديو الراتب الشهرى الذى كان يرسله إلى "مصطفى كامل"، أملاً فى أن يحمله بذلك على العودة إلى مصر، عندما يجد نفسه عاجزاً عن تدبير أموره المعيشية والوفاء بالتزامات حملته الدعائية، وهنا وقع "مصطفى كامل" فى حيرة؛ إذ لم يكن قد تمكن فى ذلك الوقت من تجميع كل خيوط المؤامرة التى حيكت ضده، فكتب عدة رسائل إلى "عبدالرحيم أحمد"، المكلف من قبل الخديو بمتابعة الاتصال مع "مصطفى كامل" فى باريس وأوروبا، يطلب منه أن يسارع بإنقاذه.. فيقول فى إحدى هذه الرسائل:

«أخبرتكم فى خطابى الذى أرسلته من فيينا أن ما لدىّ من النقود لا يكفينى إلا لآخر سبتمبر، ولعلكم لا تستغربون من ذلك، وأنتم تعلمون

أنى أصرف كثيراً جداً فى الولائم الخصوصية والهدايا، وهما الأملان الوحيدان فى جلب الكُتّاب إلينا. أفيدونى عن رأيكم الخاص فى مسألة مصاريفى»، ثم فى رسالة أخرى يقول، فى لهفة لا تخلو من خوف وانزعاج: «أرجوكم ألا تقصروا فى إبلاغ مولاى وولى نعمتى أن ما لدىّ من المادة نفد، ويلزم إرسال ما يأمر به المولى حالاً، حتى لا أبيت فى بلبال بهذا الخصوص».

وفى رسالة يقول: «لعلكم تكونوا بلّغتم السيد العزيز أن المادة نفدت كلها، وأنى فى حاجة إلى غيرها، وعسى الأمر يكون قد صدر لكم وأجريتم اللازم. أفيدونا على أى حال»، لكن الخديو كان قد حسم الأمر، على الأقل من جانبه، ورفض أن يتكفل بنفقات "مصطفى كامل"، كما كان يفعل.. وإنقاذاً للموقف، لجأ "عبدالرحيم أحمد" - وكانت تربطه صلة صداقة ومودة بـ"مصطفى كامل" - إلى حل وسط مع الخديو، وهو أن يكف "مصطفى كامل" عن العمل باسم الخديو، ويبقى فى باريس كما يشاء تحت أية صفة أخرى، كأن يكون طالباً!

جولييت آدم.. وصداقة ممتدة

وهنا أدرك "مصطفى كامل" أن خصمه اللدود مسيو "دى لونكل" قد نجح فى أن يفسد علاقته بالخديو، فأصر - على الأقل من قبيل العناد - على البقاء فى باريس مستعيناً بالنقود التى كان يرسلها إليه صديقه "محمد فريد"، وبدأ يبحث عن بديل لمسيو "دى لونكل" الذى كان يساعده - حسبما كان مُخططاً بالاتفاق مع الخديو - فى التعرف على شخصيات فرنسية وأوروبية، فوجد فى الكاتبة الفرنسية اللامعة وقتئذ السيدة

"جولييت آدم"، خير معين له فى مواصلة رسالته الدعائية، فكتب إليها من "تولوز" أول رسالة فى ١٢ سبتمبر عام ١٨٩٥ يقول فيها:

«سيدتى:

"إنى لا أزال صغيراً، ولكن لى آمالا كباراً، فإننى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون أن وطنى لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما أنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود فى سبيله بجميع قواى وأفديه بشبابى، وأجعل حياتى وقفاً عليه. إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، وقد نلت إجازة الحقوق من "تولوز" قبل سنة، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل الوطن العزيز، وقد قيل لى أكثر من مرة أنى أحاول محالاً، وحقيقةً تصبو نفسى إلى هذا المحال. فأعينينى ياسيدتى، فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى وتقوية عزمى وشدّ أزرى.. وتقبّلى تحية واحتراماً».

والحق، إن "مصطفى كامل" كان مُوفقاً فى اختيار هذه السيدة التى كانت إحدى ثلاث كاتبات شهيرات فى فرنسا، وتصدر فى ذلك الوقت مجلة نصف شهرية باسم «لانوفيل ريفى» - المجلة الجديدة - ونشرة شهرية عنوانها «الكلمة الفرنسية فى الخارج»، وتحظى بمكانة مرموقة فى مختلف الأوساط الأدبية والسياسية، خصوصاً أنها كانت زوجة لمدة عشر سنوات للسيد أدمون آدم، أحد زعماء الحزب الجمهورى فى فرنسا، وعمدة باريس، وتقلد مناصب أخرى مثل عضوية رئاسة مجلس الشيوخ بعد تأسيس الجمهورية الثالثة..

وتوطدت علاقة "مصطفى كامل" بالسيدة "جولييت آدم" التى يسرت له ـ بعد ذلك ـ كل سبل الدعاية للمسألة المصرية، وفتحت له أبواب مجلتها، فدبج فيها المقالات الوطنية التى لفتت أنظار العالم السياسى فى كل بلد متحضر إلى قضية مصر، وحقوق أمة وادى النيل، وعندما عرفت "جولييت آدم" تفاصيل كثيرة عن مصر وصراعها مع الاحتلال الإنجليزى انضمت إلى "مصطفى كامل" فى حملته الدعائية، وكتبت فى الصحف وخطبت فى المحافل السياسية، وعقدت المؤتمرات والاجتماعات فى باريس بهدف إيجاد رأى عام فى فرنسا وفى أوروبا يدعو إلى ضرورة جلاء الإنجليز عن مصر، ويدحض مفتريات الاستعمار، ويفنِّد مزاعمه المفرضة لتبرير وجوده فى مصر..

كما شجعته على أن يترجم خطبه ورسائله ومقالاته عن "المسألة المصرية" إلى اللغة الفرنسية، ثم يصدرها فى كتاب بعنوان «المصريون والإنجليز» يقع فى ٣٢٠ صفحة، اختارت أن تكتب مقدمته، ويقال: إن الكتاب أحدث صدىً طيباً، وكان موضع تعليق الصحف لفترة طويلة، كما أثار جدلاً طويلاً حول "المسألة المصرية" فى كثير من المحافل الأوروبية.

وهكذا وجد "مصطفى كامل" فى هذه السيدة التى كان يعتبرها "أمه الروحية، السند الحقيقى بعد أن تخلى عنه مسيو "دى لونكل"، ومن بعده الخديو "عباس الثانى"، خصوصاً أنه كان يواظب على حضور الصالون الشهير الذى كانت تعقده السيدة "جولييت آدم" فى بيتها، ويحضره كبار رجال السياسة والأدب وكبار المحررين فى الصحف الفرنسية. مما ساعده على التعرف عن قرب بهذه الشخصيات، وأن ينشر مقالاته

السياسية، التى تندد بسياسة إنجلترا فى مصر، فى أكبر وأشهر الصحف الفرنسية، كما استفاد من خبرة "جولييت آدم" فى الشئون السياسية، حيث أطلعته على حيل الاستعمار ومؤامراته.

أفكار.. وأسرار

وظل "مصطفى كامل" وفياً لعلاقته بها طوال سنى عمره القصير، ويكتب إليها من كل مكان يذهب إليه:

* من "مرسيليا" كتب إليها فى يناير عام ١٨٩٦، يقول: «قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا، أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الثناء على المساعدات القيمة جداً.. تلك المساعدات التى أوليتنى إياها.. لأنه واجب مفروض الأداء أن أشكر بكل إخلاص انعطافك العظيم إلى وطنى وإلى شخصى المتواضع».

* ومن "فيينا" كتب إليها فى ٢٠ مارس عام ١٨٩٧، يقول: «ليس لدىّ وقت يسمح لى أن أحادثك فى حالة وطنى العزيز، إن الإنجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يريدون، ويرتكبون أفظع الجرائم فى حق الإنسانية والعدالة ويسخرون أكبر سخرية من أوروبا وعلى الأخص - وأسفاه - من فرنسا! لأن خطة فرنسا فى هذه الأزمات الأخيرة قد دفعت - بلا جدال - الإنجليز إلى إلحاق أشد المظالم بها، والذى زاد الطين بلّة أن هذه الخطة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حباً لبلادكم الجميلة».

* ومن "بودابست" كتب إليها فى ٢٨ مارس ١٨٩٧، يقول: «إننى ما يئست أبداً من مستقبل وطنى ولا من النصر الذى سيكون خاتمة

مسألتنا. لا سيما أن الوطنيين المصريين متحدون الآن، ولنا حزب سرى مخلص للغاية وهو على استعداد لتضحية دائمة فى سبيل الوطن المقدس.. لعلك ترين أننى أجمع حول مسألتنا من العواطف ما يصل إليه جهدى، فإننى أنشر الحقيقة فى كل مكان، ومن جميع الأنحاء؛ لأجعل أعداء الاحتلال أكثر مما كانوا.. فإن مركزنا يشبه من جميع الوجوه مركز رجل داره لص يسرق ويحرق ما يجده فى طريقه ويذبح كل شىء، فواجب صاحب الدار التعس أن يصيح برجال الشرطة ويستغيث بكل إنسان، فواجب كذلك نستغيث بالجميع، ولا نود أبداً أن تشترك أمة حرة من أمم أوروبا أو غيرها مع إنجلترا ضدنا وتعمل على خسارتنا».

* ومن "الإسكندرية" كتب إليها فى ١٢ يونيو عام ١٨٩٧، يقول: «لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه التظاهرة الأهلية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى، والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنىّ لعظم جلالها. ذلك أنها لم تكد تعلن الصحف عن الخطبة التى ألقيتها حتى تظاهرت الوفود من شتى أنحاء الأقاليم.. وقد وافقوا جميعاً بكل سرور ـ وهم محقون فى هذه الموافقة ـ على ما عرضته عليهم أخيراً فى عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء، وأن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم مرتاحون إلى تلك الظاهرة، وهذا القرار».

واستمرت صلات "مصطفى كامل" بالسيدة "جولييت آدم" وطيدةً، فدعاها فى عام ١٩٠٤؛ لزيارة مصر، وأقام لها الحفلات واللقاءات، وقدم لها الهدايا، وزارت أماكن مختلفة داخل مصر التى مكثت فيها ثلاثة أشهر، والتقت بالخديو "عباس" الذى أقام وليمة على شرفها فى قصر القبة، وكتب "مصطفى كامل" مقالة، جاء فيها:

«لقد زارت مصر هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأى والقلم والسياسة، هى مدام "جوليت آدم" الكاتبة الفرنسية ذائعة الصيت. زارت مصر وقد عَشِقَتْهَا من قديم وشغفَتْ بها من عهد شبابها، ودافعتْ عنها بقلمها السيال، السنوات الطوال، فلذلك حَقٌّ لمصر أن ترحب بها، وللمصريين أن يلقَوْها بالشكر والإعظام».

وبعد عودتها إلى باريس كتبت "جولييت آدم" فى جريدة «الجولوا» الفرنسية، تصف مشاعرها تجاه مصر، فتقول: «إن أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة، وسماء مصر هى أول سماء مزقت فيها السحب، حيث سُمِح بذلك للإنسان أن يشعر بوجود الخالق، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية، حتى صبغت العناصر الأخرى بصبغتها، وبقيت فى آن واحد فى حالة الفطرة الأولى، مالكة نفسها على مرّ الزمان. ولم يتحكم الأجنبى فى أمة كما تحكم فيها، ولم تتخلص أمة من الأجنبى بصورة مستمرة كما تخلصت هى، وأن استرداد مصر لنفسها أمر تكرر إلى حد أنه صار قانوناً فى تاريخها، وأنه ليمكن للإنسان أن يؤكد أن مصر ستبقى إلى الأبد: مصر».

القول الأخير:

يبقى ، ونحن نتحدث عن حياة "مصطفى كامل" فى باريس، أن نذكر شيئين:

الأول: هو أن "مصطفى كامل" قد زار مدينة فيشى الشهيرة فى فرنسا، وهناك قرر مع صديقه "محمد فريد" إصدار صحيفتين يوميتين إحداهما بالفرنسية وهى «ليتندار اجيبسيان»، والأخرى

بالإنجليزية، وهى «ذى إچيبشيان ستاندرد» وأسسا من أجل ذلك فى نوفمبر عام ١٩٠٦ شركة مساهمة لإصدار الجريدتين، يبلغ رأس مالها عشرين ألف جنيه، وتصدر الأولى فى المساء، أما الثانية فتصدر فى الصباح، وكان لها مراسلون فى لندن وباريس.

وجاء فى افتتاحية العدد الأول من الجريدتين بقلم "مصطفى كامل": «ليس فى جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحداً من الناس، فإن التسامح والكرم من الصفات التى تفتخر بها مصر على الدوام، وإن المكان هنا لمتسع لكل العاملين ولكافة الرجال المستقيمين النزيهين، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسكنا فى الحال والاستقبال بمبدأنا الذى تضمنته هذه الكلمة "أحرار فى بلادنا، كرماء لضيوفنا"».

أما الشيء الثانى: فهو شعور "مصطفى كامل" باللوعة والأسى طوال مدة غربته ونضاله فى باريس؛ لأن أبناء الجالية المصرية فى باريس أو المصريين المترددين على العاصمة الفرنسية لم يقدموا له أى مساعدة، وانصرفوا، بل إن بعضهم أطلق لسانه فيه، واختلقوا الفريات فى حقه، والحق، إن "مصطفى كامل" قد تألم كثيراً، فكتب إلى أحد أصدقائه، يقول: «إنى لا أستطيع الاعتماد على أحد من أبناء جنسى، وإنى إذا صودرت - أى مُنعت عن العمل - يوماً بأى صورة كانت، لا أجد من أمتى عضداً أو نصيراً، وهذا ما يحزننى كثيراً، فإنى مع ارتياحى للمهمة التى عرضْت نفسى للقيام بها، والغرض الشريف السامى الذى أعمل له - أى غيرى من الذين أحب التشبه بهم كفرانكلين (يقصد الزعيم الأمريكى المعروف) كان يعمل ووراءه أمة تعزز مطالبه، وتدافع

عنه بعكس ما أنا فيه».

ثم يستطرد، فيقول: «فالذين يقصدونني، ويوافقون على أعمالي، إنما يقولون بذلك في مجالسهم الخاصة، وربما خافوا المجاهرة به في المجالس العامة، والذين يعترضون على ويطعنون بي، يقولون ذلك جهاراً. فهم لم يتركوا لفظاً من ألفاظ القباحة والسفاهة إلا ذكروه، ولم يفوتوا صفة من صفات النقائص إلا نسبوها لشخصي. كل ذلك ولا مُدَافع عني، فكأني بقومي وهم ساخطون عليّ ناقمون مني».

وفي رسالة أخرى، بلغ به اليأس كل مبلغ، فكتب يقول لصديقه: «دعني بالله عليك من هذه الأمة التي بلاني الله بأن أكون واحداً من أبنائها!». لكن بعد أن نقل "مصطفى كامل" نشاطه إلى داخل مصر، وأصبح قريباً من نبض الجماهير، شعر بالخطأ الذي ارتكبه في حق مصر مرتين: المرة الأولى عندما أدرك بعد توقيع الاتفاق الودي بين فرنسا وبريطانيا عام ١٩٠٤ أن سياسة الاعتماد على فرنسا وأوروبا غير مجدية، وأن الأمم لن تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها، والمرة الثانية عندما واجه الفلاحون البسطاء في "دنشواي" القتل في شجاعة، فخطب يقول وكأنه يُكفِّر عن ذنبه: «لو لم أولد مصرياً، لوددت أن أكون مصرياً».

سلامة موسى:

«.. وباريس ليست عاصمة فرنسا فقط، وإنما هى عاصمة أوروبا، بل عاصمة العالم، وفيها أكثر من نصف مليون أجنبى، من الإيطاليين والروس البيض ، والحمر، والسنغاليين والفيتناميين، وبها نحو خمسمائة مصرى إلى آلاف من الآسيويين والأفريقيين والأمريكيين.. وهم جميعاً يلقون كرم الضيافة ومميزات التمدن ووجدان الثقافة.. ويتعلمون ويتجرون فى حرية تامة.. ولا يعرف الباريسيون ذلك الاستعراض اللونى أو العنصرى الذى تعرفه أمم أخرى، وليس هنا مطعم أو فندق يمنع الزنجى من دخوله.»

(١)

كانت محبة المعرفة وحدها هى التى دفعت "سلامة موسى" للسفر إلى أوروبا عام ١٩٠٨ فقد ضاقت نفسه إلى حد الانفجار عندما تبين له من الأدب الذى ينقله إلى العربية "فرح أنطون"، ومن نظرية التطور التى يشرحها "يعقوب صروف" أن هناك عالماً رحباً من المعارف لا يعرف عنها إلا أقل القليل، فقرر أن يجعل كل همه واهتمامه فى حياته أن ينفذ إليها وأن يفتح أبوابها المغلقة.. وزاد من حماسه لهذه المغامرة الفريدة أنه أدرك فى هذا الوقت المبكر من عمره ـ حيث كان سنه لا يتجاوز التاسعة عشرة ـ أن جهله عميق، وأنه فى مصر يعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر من التفكير الخصب؛ لذلك قرر أن يترك مصر ويرحل إلى أوروبا بحثاً عن الحياة؛ ليربى نفسه، ويُولد من جديد..

وقد ساعده على ذلك، أن أحواله كانت ميسورة بسبب ميراثه من والده الذى مات وهو دون السنتين، وكان يكفل له دخلاً ثابتاً كل شهر قدره ٢٥ أو ٣٠ جنيهاً؛ لذلك لم يشعر بالحاجة إلى إعداد مهنى لكى يتكسّب منه، خصوصاً أن الوظائف لم تكن فى ذلك الوقت مُغرية؛ لأن الحاصل على الدبلوم لم يكن يزيد راتبه على ثمانية جنيهات..

ثم هناك ميزة أخرى، وهى أن "سلامة موسى" لم يكن مُسرفاً أو مُستهتراً فى مزاجه، فجعل كل قصده أن ينير عقله، ويقشع الظلام المُخيم عليه، وشرع يأخذ تربية نفسه بيديه، ويُخصص برنامجاً مُحدداً ليس فقط للدرس ولكن أيضاً للحياة؛ لأنه شعر بأنه «كان يعيش ليدرس، ويدرس ليعيش...». وبلا أدنى تردد حزم أمتعته، وحمل معه بعض الأوراق الشخصية التى يتصور أنها تلزمه فى رحلته، ثم اتجه إلى الباخرة التى ستقله لباريس.

يقول: «قصدت باريس عن طريق استامبول، وكانت الدولة العثمانية "تركيا" فى تضعضعها قد شاع فيها التفكك والانحلال، وكانت غايتى من اختيار هذا الطريق أن أرى أوروبا قبل أن أهبط باريس.. فقطعته على مراحل قصيرة كى أرى العواصم الأوروبية..» وكانت أول مهمة يُكرس لها "سلامة موسى" كل جهده منذ اللحظات الأولى التى وطئت فيها أقدامُه أرض باريس هى إتقان التحدث باللغة الفرنسية، التى لم يكن يعرف منها إلا بضع كلمات وعبارات قصيرة، مثل سائر مثقفى مصر فى هذا الزمان؛ ولأنه ريفى فى الأصل، فقد انجذب إلى الريف الفرنسى، واختار قرية تقع فى الضواحى الباريسية تحمل اسم «موليرى» يصفها بأنها قرية من قرى العصور الوسطى، وشاءت أقداره أن يحظى بإعجاب ناظر مدرستها الذى أثنى على طموحه، وأبدى استعداده لمساعدته، فاقترح عليه أن ينضم إلى أسرته ويعتبر نفسه واحداً من أبنائها..

اللغة الفرنسية أولاً..

ويروى "سلامة موسى" كيف أتقن اللغة الفرنسية، فيقول: «حبست

نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى "مواييرى" من قرى القرون الوسطى، واندمجت فى عائلة ناظر المدرسة، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى عُرفت بين المعلمين بعبارة «كيه فو ديرسا» أى «ما المعنى» وذلك لإلحاحى على السؤال».

ويستطرد "سلامة موسى" قائلاً: «ولم تمض أشهر، حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية، بل الكتاب، فى فهم وتعقل بمساعدة المعلم، وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيماً؛ لأنها وجهتنى فى السياسة وجهة عالمية، وكانت جرائدنا فى مصر تعجز عنها فى ذلك الوقت.. ودأبت على قراءة الجرائد الفرنسية التى كانت تباع بأثمان التراب، وتعرفت من خلالها على الأحزاب الفرنسية، وشغفت بقراءة جريدة «الأومانيتيه» التى كانت تعبر عن آراء الاشتراكيين، وكانت الاشتراكية فى ذلك الوقت ـ رؤية جديدة ـ حملتنى على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع اهتمامى، وألبستنى الجرائد الفرنسية، العقلية السياسية الأوروبية، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكى، وكانت جرائدنا فى مصر «محلية»، قد أنهكها الكفاح؛ للاستقلال، وحال بينها وبين دراسة الشئون العالمية. ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة، وخاصة أن إقامتى فى فرنسا صادفت تلك السنوات التى سبقت الحرب الكوكبية الأولى، فكانت الضمائر تختمر لمن يتشمم الأخبار، ويتنسم الطوالع..

.. ويعترف "سلامة موسى" بأنه تعلم اللغة الفرنسية فى سرعة عجيبة، وقد هداه تفكيره إلى طريقة فى التعليم، التفت إليها المربُّون بعد ذلك. وهى أن الجملة، وليست الكلمة هى التى يجب أن تُحفظ، وتُستذكر.. ولذلك لم يجد مشقة فى مشاهدة المسارح الفرنسية،

ويستمتع برؤية "سارة برنار" أشهر نجوم المسرح والمجتمع الفرنسي في ذلك الوقت، وهي تمثل «العقاب الصغير»، ولكنها كانت في كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية.

ويسجل "سلامة موسى" سعادته باللغة الفرنسية التي تكشفت له أسرارها، فيذكر أن تعلمه لها كان بمثابة «التزوج من الثقافة الأوروبية»؛ لأنه في مصر كان يعيش «عزوبة ثقافية» لا يقرأ غير اللغة العربية، ولا يستنير عن شئون هذا العالم حتى بقراءة الجريدة العربية.. ثم ها هو يجد في اللغة الفرنسية أخيراً لغة الإفصاح، ولغة الأدب الحر الذي يمتاز بعبقرية خاصة في الدقة والوضوح.. يقول: «إذا سألني القارئ هل وجدت في الإنجليزية أديباً له مرانة الفن ودقة الحس وأناقة التفكير وجمال التعبير مثل "أناتول فرانس"؟ هل وجدت أديباً في الإنجليزية له حكمة "فولتير" وثورة "روسو"، وجنونهما المقدس في خدمة الحق والفن؟ فإني أجيب: لا، بل إني أعترف أن هناك آخرين غير "أناتول فرانس"، و"فولتير"، و"روسو" ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية، ولا يوجد من يُضارعهم من أدباء الإنجليز أو الأمريكيين..».. ولقد كان الريف الفرنسي هو أول ما وقع في نفس "سلامة موسى" موقعاً طيباً، فأعجب به إلى حد الانبهار، لأنه كان ينظر إليه دون أن تهرب من مخيلته صورة الريف المصري.. وشتان ما بين الريفين!.

أهرام من التفاح..

يقول: «إننا في مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين؛ لأننا نتوقع الغبار على السكك والإهمال الصحي في المساكن، وريفنا - فضلاً عن هذا - صحراء الروح لما يخيمّ عليه من جهل وفاقة وقذر

للجسم كأنه الدنس للنفس، ولكن ريف فرنسا جنة العين، وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشياً على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقوق تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الذكية.. ومازلت أذكر ذات مرة أنى رأيت على مسافة فى جولاتى هرماً صغيراً أحمر أثار استطلاعى، فقصدت إليه، فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح، حتى كاد يخفى أوراقها».

عن القرية الفرنسية يقول"سلامة موسى": «إنها، ومهما صغرت، تشتمل على المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة. ففيها المطعم والحانة، والفندق، والسوق الأسبوعية؛ ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف، كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الإسكندرية أو رأس البر».

وينتقل فى حديثه عن المجتمع الفرنسى إلى الأسرة، وعلاقة أفرادها بعضهم البعض، وكذلك علاقتهم بالسماء والتدين، فيقول: «فى الحرب الكوكبية الثانية أثار الماريشال "بيتان" شبهات وشكوكاً بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين بأن هذا المجتمع مريض، تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان، والواقع أن كل هذا وهم. فإنه ليست فى أوروبا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية، ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركيا لا تخرج فيه السلطة عن الأب، وليس فى كل أوروبا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون.. وحسب القارئ أن يعرف أن جميع الكنائس فى فرنسا - وبعضها ينفرد فى ريف ناء - تترك مفتوحة ليلاً ونهاراً، ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يُقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات، وهذا على الرغم من حرية الفكر

المستفيضة. لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة».

ويروى "سلامة موسى" هذه الواقعة مُسترسلاً، فيقول: «ما زلت أذكر منظراً كان له أثر الصدمة الموجعة لأول شهر كنت فيه فى باريس فى عام ١٩٠٨، فقد رأيت جنازة تسير فى أحد الشوارع تتقدمها راية مكتوب عليها: "لا رب ولا سيد".. ومثل هذا المنظر يوهم بأن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والإلحاد، ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد، كانت تُكذب هذا الوهم. فإن كاهن القرية هو الرئيس الروحى الذى يخاطب السكان بلهجة الأمر. تحيط به هيبة التقاليد، والواقع أنه ليست فى أوروبا كلها كنيسة حيَّة كالكنيسة الفرنسية».

المرأة التى أحبها..

أما التجربة الثانية التى حركت الوجدان الاجتماعى لسلامة موسى فور وصوله لباريس فهى تجربته مع المرأة الفرنسية، خصوصاً إذا علمنا أنه طوال عمره فى مصر قبل سفره إلى فرنسا لم يتحدث إلى آنسة أو جلس إلى سيدة، أو فتح عينيه فى وجه امرأة، لكنه يعترف بأن باريس لم تكن تعنى له – مثل كثير من المصطافين – الانغماس الجنسى؛ لسببين. الأول: هو أن شهواته الملتهبة فى تلك السنين، كانت شهوات ذهنية أكثر مما هى جنسية، وكانت الدهشة عنده على أعظم ما تكون حين وجد نفسه فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأ فيه فى مصر، ولم تكن دهشته مُنبهة فقط، بل كانت صدمة موقظة.

يقول: «كنت فى مصر قبل عام ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى

شعائره، ولا أجد غرابة أو عيباً في التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة "السَّنِية" الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض، وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفاً. والبيت في مصر خِدْرٌ كامل، ونساؤنا مُخَدَّرات كاملات، ولا أكاد أذكر أني طوال عمري في مصر قبل سفري إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة، أو قعدت إلى سيدة، أو فتحت عيني في وجه امرأة عصرية. فلما وجدت المجتمع الباريسي واختلطت به، ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها، وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقاً جديداً يتفتح أمامي. لم يستطع "يعقوب صروف" أو "فرح أنطون" أن يفتحاه لي من قبل.. ولم أتحمس له، ولا أدرى العلة لغيابه عن وجداني، في ذلك الوقت. لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكاً يغمر كياني، فلا أجد اللعثمة في لساني فقط، بل التخاذل أيضاً في سائر أعضائي؛ وقد احتجت إلى سنوات كثيرة، حتى أتغلب على هذا الشعور التعس الذي غرسته في نفسي تسع عشرة سنة من الفصل بين الجنسين في مصر».

ويفسر "سلامة موسى" حالته هذه، فيقول: واضح أن هذا الشلل النفسي منع عاطفة الحب أو كظمها في الوقت الذي كان يجب أن تنفرج فيه أو تتسامى. ذلك أن للحب فناً كنا نجهله نحن في مصر في تلك السنين، وكانت أية محاولة مني نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهي بخيبة تكوي القلب والعقل معاً»، ويذكر أنه كان يدمن التفكير في حال المرأة المصرية والمرأة الأوروبية، ويرى أن المرأة الأوروبية تملك جزءاً كبيراً من مصيرها، وتقرره بنفسها إلى أن وقع على الدراما التي كتبها "هنريك أبسن" بعنوان: «بيت الدُمية» أو «بيت العروس»، فانكشفت له الحقائق المرة، وانبسطت أمامه آفاق جديدة؛ لأن ما كان يتوهمه عن

حرية المرأة أو استقلالها فى أوروبا لم يكن فى نظر "أبسن" سوى طلاء سطحى يخفى حقيقة الاستعباد القائمة. فالمرأة لم تكن تلقى من المجتمع سوى التدليل؛ لأنها «لعبة الرجل» أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال، أطفال الرجال الذين لا يطيقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء.. ومغزى هذه الدراما أن المرأة يجب أن ترفع من الأنثوية إلى الإنسانية، ويجب أن ترفض التدليل، أو أن تربى نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا، لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أماً..

ويصف سلامة موسى حالته بعد أن قرأ هذا الكتاب الذى يسميه «دراما» فيقول: «عندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة.. واتضح لى أن المرأة الأوروبية كالمرأة الشرقية سواء بسواء، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط. أو هو - فقط - فرق الدرجة فى الاستعباد، وهو استعباد بعيد أحياناً عن أية رحمة أو رأفة؛ لأن المرأة التى تعمل كالرجل لا تحصل على أجره، وفى أقطار أوروبية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه، وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة، كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية».

وليس سراً أن الأفكار التى ساقها «إبسن» فى كتابه أو درامته «بيت الدُمية» قد وجدنا لها أصداء فى كتاب "سلامة موسى" الشهير: «المرأة ليست لعبة الرجل».. لكن الثابت أن الحال فى أوروبا تجاه المرأة قد تغيرت كثيراً، كما يقول "سلامة موسى" نفسه، وكثير من هذا التغيير الذى وقع بين عامى ١٩١٠ - عندما قرأ "سلامة موسى" كتاب "إبسن" أثناء إقامته الأولى فى باريس - وعام ١٩٤٦ عندما كتب مذكراته.. يُعزى إلى هذه الدراما التى أهابت بالمرأة أن تكون إنساناً له شخصيته، ومكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكانتها فى

البيت. فها هو يقارن بين المرأة الباريسية عندما رآها عام ١٩١٢ ثم عندما رآها مرة أخرى في عام ١٩٥٢، ويقول: «قبل أربعين عاماً لا أنكر أني رأيت امرأة تتخذ البنطلون وتسير به في مشية مألوفة، كما تفعل الحسناء والشمطاء في باريس في هذه الأيام.. ولقد قلت إن البنطلون قد انتشر بين الفتيات والسيدات، ولكني أرجو ألا يظن أحد أن للفرنسيات يستهترن في اتخاذ البنطلون. فإن كل ما فهمته من تفشي هذا الزي أنه يعين المرأة على العمل والحركة أكثرمما يعينها الفستان».

ثم يسجل سلامة موسى إعجابه برشاقة المرأة الفرنسية فيقول: «الرشاقة سمة فرنسية، ومن ليس رشيقاً في الزي أو اللهجة أو الإيماءة فليس فرنسياً، ولقد رأيت سيدات وفتيات يسرن تحت وابل المطر وعلى رأس كل منهن طرطور، وعلى جسمها معطف يتسع لاثنين من حجمها، ومع ذلك كنت أتعجب من جمال الطرطور والمعطف.. رشاقة في التفصيل، واختيار في الألوان، ورشاقة في المشية والنظرة والقوام».

ويذكر ما قالته له سيدة يونانية من أن الباريسية ليست جميلة ولكنها تتجمل، فتعنى بهندامها وتنسيق شعرها، وتشترى المساحيق الغالية؛ كي تكسب وجهها بهاء ونضرة، ويخلص "سلامة موسى" من ذلك إلى حكم ارتاح له نفسه، فيصدره باطمئنان على المرأة الباريسية، فيقول: «إن هذا كله يدل على أن نفسها جميلة، إذ هي تنشد الجمال حين تفتقده، وهي تتأنق؛ لأن نفسها أنيقة، وكل هذا يرفع منها ولا يخفض، وإنما نحن نستنكر الجمال أو التأنق حين نجدهما باهظين مُسرفين قد زادا على الحد، وهذا ما لا تقع فيه الباريسية.أو حين نجدهما في غير مكانهما.. وهذا ما لم أره في باريس على كل حال».

(٢)

.. كانت المقاهى الفرنسية من أكثر الأشياء التى لفتت نظر "سلامة موسى" واستحوذت على إعجابه الشديد؛ لأنها كانت أشبه بالنوادى التى تجمع فى داخلها أنشطة عديدة، فهى «حانة، وناد، ومطعم.»؛ ولأنه كان يقارن بينها وما كان يعرفه فى مصر، فتزداد نفسه إعجاباً بما يرى فى فرنسا، و«حسرة» على ما يوجد فى مصر.. يقول:«"الحانة" أو "المقهى" على الرغم من اسمها وشهرتها، هى فى باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء.. وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جانب الشراب».

ثم يستطرد فى حديثه عن أجواء المقاهى التى تشتهر بتقديم النبيذ لروادها.. فالكل يشرب النبيذ: الخادم والسيد والطفل، والكهل، والمرأة والرجل، وهو ما دفع "سلامة موسى إلى الاعتقاد بأن فرنسا لا يوجد بها ماء، أو بها ماء، لكن الشعب يتجاهله.. فيرى أنه عندما سأل رجلاً عن النبيذ، كانت الإجابة عبارة عن قصائد وأبيات شعرية غزلاً فى النبيذ بمختلف أنواعه. أما أطرف ما ذكره الرجل لسلامة موسى عن مميزات النبيذ أنها «تصالح الزوجين المتشاجرين، ولولاها لزاد الطلاق فى

فرنسا!»، ثم ختم حديثه بأنه لا يجوز أن يعيب أحد على النبيذ، التى باركها السيد المسيح، ودعا يعقوب، بأن يوفرها الله لأبنائه.

ثم يبدى "سلامة موسى" دهشته من المكانة التى يحتلها النبيذ فى نفوس الجميع إلى حد أصبحت لها ثقافة لا يحيط بها الكثيرون، فيقول: «قرأت هذا الأسبوع مقالاً عن كتاب عنوانه "بلاد النبيذ" لمؤلفه "هيلجارتين"، وثمنه ألف ومائة فرنك أى أكثر من جنيه مصرى! كما قرأت مقالاً عن كتاب آخر بعنوان: "الدليل الشعبى إلى النبيذ" لمؤلفه بوستجيت، وثمنه واحد وأربعون قرشاً، ويُعلِّق "سلامة موسى" على ذلك قائلاً: «إن ظهور كتابين فى شهر واحد عن النبيذ بمثل هذا الثمن العالى يوضح لنا قيمة الأنبذة فى أوروبا عامة وفرنسا خاصة.. أجل إن الخمور فى فرنسا هى جزء من التقاليد والآداب». ويضيف قائلاً: «إن الشعب كله يشرب النبيذ.. وكثيراً ما أطلب القهوة فيتطوع النادل بتقديم زجاجة صغيرة من الروم؛ كى أمزجه بالقهوة، ونحن نقنع فى تحية الضيوف بالقهوة، لكنهم فى فرنسا يؤثرون عليها كأساً من النبيذ تفرج عن كظومهم بالحديث الحر».

ثم ينتقل "سلامة موسى" إلى البيوت الفرنسية، التى تفتنه بنظامها الدقيق؛ لأنها تشبه ـ فى كثير من الأحيان كما يقول ـ المتاحف التى تحوى كثيراً من التحف القديمة والطُرف الغالية، والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد البيت، وهى أشبه بالشعائر الاجتماعية التى يتعارف عليها الأفراد، كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادى أو ذكريات روحية، وبعد المقهى والبيت كانت الشوارع الباريسية هى المسرح المُتجدد الذى يؤثره "سلامة موسى" فيمضى معظم وقته متسكعاً فى طرقاتها دون أن تغمض عيناه لحظة واحدة عما يدور من

حوله.. فيذكر أنه كان يتجول فى شوارع باريس ذات مرة، فإذا به يُفاجأ بشاب فى العشرين من عمره، يمدّ إليه بورقة، كان يقوم بتوزيع كميات كبيرة منها على المارة. فشرع "سلامة موسى" يقرؤها فى تمهل وتكاسل فإذا بها تتحدث عن الطلاب فى مصر. يقول:

«لشد ما كان عجبى وأسفى معاً حين قرأت أن هذا اليوم هو ذكرى اصطدام طلبة الجامعة فى القاهرة بالانجليز المستعمرين. أولئك يطلبون حقهم فى الحرية والاستقلال، وهؤلاء يضربونهم بالبنادق احتفاظاً باستبدادهم، واستعمارهم. وقد وقع هذا الاصطدام فى ٢١ فبراير عام ١٩٤٦ فى ميدان إسماعيل (التحرير) بالقاهرة».

ويستطرد سلامة موسى واصفاً شعوره، فيقول: «أصابنى دوار عقب القراءة وتنهدت، وتنحيت إلى قهوة، وجلست أفكر فى هذه الحيوية الباريسية. إنهم يحتفلون بذكرى كوارثنا التى كان "إسماعيل صدقى" يمنعنا من الاحتفال بها، وعدت أقرأ الورقة سطراً، سطراً، وكلمة كلمة: حقوق الشعب. الحرية. الطلبة الأحرار. الاستعمار الانجليزى. الاستبداد. آلام مصر. شباب مصر».

ويذكر "سلامة موسى" أنه شعر بالخجل بعد أن قرأ هذا المنشور، لكنه أدرك أن طلبة باريس إنما يحتفلون بهذا اليوم عطفاً منهم على زملائهم الطلبة فى مصر، وإحساساً بالتضامن البشرى فى بُغْض الاستعمار وضرورة مكافحته سواء أكان فى إفريقيا، أو فى آسيا أو فى أمريكا.. والسبب المباشر لذلك هو أن حيوية التفكير السياسى فى فرنسا تغزوها صحف، وتسهر عليها أحزاب، وتحميها حكومة يأتمنها الشعب، كما تحرص هى على حريات هذا الشعب، وهى حكومة تنهض على مبادئ الدستور الذى ينص على حق الانتخابات للمرأة، وحق

التأميم، وحق الإضراب، والانتخابات بالقائمة..

أما الطلبة فيؤلفون الجمعيات؛ لدرس السياسة، ولا تخشاهم الحكومة؛ لأنها لا تحس فسادها، كما كانت تحس الأحزاب الفاسدة السابقة عندنا، وكذلك ليس عندهم استعمار يكره الحريات ويتوجس منها..

ثم يُسقط "سلامة موسى" ما يرى في باريس على ما نعيشه في مصر، ويقول في مرارة: «لا يزال بعيداً ذلك اليوم الذى نجد فيه الطلبة المصريين يحتفلون بحريات الأمم الأخرى ويذكرون آلام الأمم المُخضعة، ويجب أن يكون بعيداً، لأننا مازلنا غارقين في همومنا يستبد بنا المستعمر، وإن كنا قد تخلصنا من المستبدين الوطنيين، ولكن الإنسانية التي بعثت الطلبة في باريس إلى أن يذكروا آلامنا سوف تنفذ إلى قلوب طلبتنا في المستقبل أيضاً، حيث نتخلص من المستعمرين الإنجليز، وحين نشرع في درس سياستنا الداخلية بروح النزاهة والشرف».

فرنسا في الشباب والشيخوخة..

نعرف إن إقامة "سلامة موسى" لم تطل في باريس التي تركها بعد فترة وعاد إلى مصر، حيث أمضى شهرين مع أهله وأصدقائه، ثم شدَّ الرحال ثانية وتحديداً في عام ١٩٠٩ إلى لندن.. وإن ظل وجدانياً مرتبطاً بباريس طوال حياته إلى أن أتيح له أن يزورها مرة أخرى في ربيع عام ١٩٥١.. لكنه كان مُوفداً من قبل وزارة الخارجية المصرية في مهمة رسمية يروى ظروفها وتفاصيلها ابنه "رءوف" في كتابه: «سلامة موسى.. أبي»، فيقول: في ربيع عام ١٩٥١، أثناء نظر شكوى مصر أمام مجلس الأمن ضد الاحتلال الإنجليزي، أثارت بعض الأوساط

الاستعمارية والصهيونية فى أوروبا موضوع اضطهاد الأقلية القبطية فى مصر، ووزعوا نشرات، وكتبوا مقالات متضمنة بعض الحوادث والشكاوى، ومن بينها بعض ما سبق نشره فى جريدة "مصر" لسلامة.. وكان الدكتور "محمد صلاح الدين" وزير الخارجية وقتها فى باريس.. ويقوم بأعماله فى مصر "إبراهيم فرج" (بك)، ففاتح "سلامة" فى ضرورة سفره بنفسه إلى باريس للرد على هذه النشرات والكتابات.. ووافق سلامة على ذلك».

وقد انتهز "سلامة موسى" هذه الفرصة وأمضى فى باريس نحو أربعين يوماً سعى فيها يتردد روحه وأفكاره واستذاق ذكرياته فى أماكنها، فزار كل الأماكن التى كان يتردد عليها عندما جاءها فى عام ١٩٠٨.. وكتب ما يشبه «اليوميات» عن هذه الرحلة فيذكر أنه زار باريس قبل أربعين عاماً، عندما كان طالباً أو تلميذاً يتعلم اللغة الفرنسية فى مدرسة داخلية بضاحية «موليرى».. لكنه كان يزور العاصمة باريس مرة كل أسبوع، ثم يقضى فيها أكثر من شهر، مدة الإجازة السنوية، وكان فى ذلك ينظر إليها بعين الشباب..

أما الآن وهو فى العقد السابع من عمره، فينظر إليها بعين الشيخوخة أو على الأقل الكهولة، وبين النظرتين بون شاسع.. يقول "سلامة موسى": «لا تليق المقارنة بين باريس فى ١٩١٢ وباريس فى ١٩٥٢؛ وذلك لأنه إذا كانت باريس لم تتغير فإن الناظر إليها قد تغير.

ومع ذلك لن أحاول أن أكون موضوعياً، ولن أستطيع؛ لأن انطباعاتى عن باريس مُتأثرة من ذاتيتى».

ثم يضيف مستطرداً: «قبل أن أتحدث عن هذه الانطباعات يجب أن

أقول إنه على الرغم من التغييرات العديدة، فإن النَّفْسَ - نفس باريس - لم تتغير، ولكل مدينة كبيرة قديمة نفسها التى نحسها من مبانيها القديمة، ومن لهجة سكانها، ومن أسواقها، وأخيراً من طراز العيش فيها».

ثم تتفجر ينابيع إعجاب "سلامة موسى" بباريس، فتفيض فى عبارات جزلة، ومشاعر صادقة عندما يكتب قائلاً: «فى باريس معابد كثيرة للدين والفن والعلم، تصل ماضيها حاضرها، وحاضرها ماضيها. ففيها كنيسة نوتردام، ومسرح الأوبرا، وجامعة السوربون.. وإذا قدر لمدن أوروبا أن تفنى بالقنبلة الذرية بقيت السوربون سليمة. فإن حضارة أوروبا يمكن أن تحيا بعد الموت، وأن تنمو وتسبق..

.. كنت فى عام ١٩١٢ أركب عربة الأمنيبوس التى كانت لا تزال تجرها الخيول.. وقد انقرضت هذه العربة انقراضاً تاماً، وكذلك انقرض الحنطور، والنقل كله يجرى بالوسائل الموطرية (موتور) أجل، لقد داس الأتومبيل الحصان فى باريس وقتله.

« .. وقبل أن أصل إلى باريس كنت أتوقع أن أجد اختلافات كثيرة بين المبانى فى عام ١٩١٢ والمبانى الحالية.. ولكننى لم أجد هذا، فإن الروح الأمريكية فى بناء الشواهق التى تنطح السحاب لم تدخل باريس. ولن تجد مبنى يزيد على ست طبقات، والكثرة الغالبة خمس طبقات، ولكن شارع طرازه، تسير فيه العين لا تجد مبنى يختلف عن آخر، كلها سكة واحدة، وهذا ما يكسب الشارع شخصيته..

.. وفى باريس ثلاثة أشياء عرفتها فى عام ١٩١٢، ومازلت أجدها فيها إلى الآن وهى: الرشاقة، والأنسة، والفن. فالرشاقة سمة، ومن

ليس رشيقاً فى الزى أو اللهجة أو الإيماءة فليس فرنسياً. أما الآنسة فهى مَلَكة فرنسية يتعلمونها جميعاً منذ الطفولة . فليس هناك ذلك الحياء المتردد الذى يشبه الجبن والخوف. فهم يجابهونك بلغة صريحة وابتسامة عريضة تسقطان جميع الحوافز، وتحفزك على الحديث. بل أيضاً على المصارحة.. وأخيراً هناك هذا الفن الذى لا يخلو منه البيت أو الشارع أو المتجر، وكثيراً ما وجدت تماثيل من المرمر أو الحجر كاسية بالذهب - أى مطلية به - فى ميادين الشوارع والتماثيل خاصة فى ضواحى باريس، وأظن أن بها ما لا يقل عن ألف تمثال فى الكنائس والميادين».

فى المتحف ماذا نرى؟!

ثم يتحدث "سلامة موسى" عن زيارته لمتحف التاريخ الطبيعى، فيقول: «زرت المتحف الذى يجاور حديقة النبات.. وهناك فى قاعته الكبرى، وقفت جامداً أولاً، متحمساً ثانياً، أمام هذا الكابوس الذى كان يجوس أرضنا قبل ثمانين مليون سنة. هذا الديناصور الذى كان يزيد على أربعة أضعاف الفيل، وكان مع ذلك يبيض ولا يلد، ولم يكن مخه يبلغ بالمقارنة إلى جسمه، مخ الفأر أو الأرنب..

.. لن أنسى هذا الديناصور، ولن أنسى هذا التاريخ القديم الذى تجمد فيه، والذى عنيت الحكومة الفرنسية بإقامة عظامه وتركيب جسمه؛ كى يستنير المظلم ويتعلم الجاهل، وقبل أن أدخل المتحف وجدت تمثال "لامارك" فنزعت قبعتى له وحييته، وبينى وبين هذا العظيم حب قد تجدد؛ لأنه هو الذى قال إن الصفات المكتسبة فى النبات والحيوان تورث، وأنكر هذا القول أكثر من مائة وخمسين عاماً، ثم عادوا إليه فى

هذه الأيام.. والغلاء فادح فى فرنسا، ولكن الأجور عالية، ولا تقل أجرة الكنّاس الشهرية عن ثلاثين أو أربعين جنيهاً، والعامل المتخصص يحصل بسهولة على ستين أو سبعين جنيهاً. ولكن مع كل هذا الغلاء لا تزال أثمان الخبز والبطاطس مُنخفضة، وأكثر ما يلفت النظر فى باريس هو هذه الحيوية بين الباريسيين. فالنشاط عام، حتى العجوز التى تبلغ السبعين تثب إلى الترام كأنها فى العشرين، والحديث يجرى صريحاً بكلمات لامعة ونكات متوالية تجعلك فى شك من أنها تعلن الحقائق أو تخفى التشاؤم، وكلمات المجاملة كثيرة وتكاد تكون إجبارية. فإن القبعة ترفع عند السلام بحركة آلية، وكلمة "مرْسى" تعقب الإجابة كأنها صوت فوتوغرافى.. واحترام الجمهور عادة أصلية فإن السائقين للأوتوبيسات والأوتومبيلات يقتربون منك وأنت تعبر الشارع فى تؤدة وعناية دون أن يطلقوا البوق..

.. واحترام المرأة هو أقرب إلى الشعائر الدينية منه إلى العادات الاجتماعية، فحيثما توجد امرأة يكون كل من حولها من الرجال خدماً لها. لا يحدثها أحد إلا وهو يبتسم كأنه يسترضيها. ولا تحتاج هى إلى شىء حتى تمتد الأيدى العديدة لمناولتها إياه..

سور أزبكية فرنسا..

«.. قصدت إلى نهر السين، حيث تباع الكتب القديمة الرخيصة، وهى تصفف على مسافة مديدة على كورنيش هذا النهر، وتشبه تلك التى تباع على سور حديقة الأزبكية. مع فرق أصيل هو أن البوليس فى القاهرة يعاكس الباعة. أما فى باريس فلا يلقى باعة الكتب على السين أية معاكسة، واشتريت خمسة مجلدات. منها واحد للشاعر الملعون

«كبلخ» واشتريته بخمسة وعشرين مليماً فقط، مع أن ثمنه الأصلي أربعون قرشاً، وكان جديداً مغلقاً بالصمغ لم يفتح. وأحسست بالشماتة لكساد هذا الشاعر الامبراطوري الذي كان يُحرّض الجنود الإنجليز على بقر بطون السودانيين والمصريين وضربهم بالسياط، حتى يعترفوا بالنقود التي يخفونها، والمدارس والجامعات هي كالماء والهواء في فرنسا، ولا تُفرض على الصبيان والشبان ضريبة للالتحاق بها، ويستطيع الجمهور أن يحضر المحاضرات دون أي اعتراض، وقد حضرت أنا بعض تلك المحاضرات..

.. وباريس ليست عاصمة فرنسا فقط، وإنما هي عاصمة أوروبا بل عاصمة العالم، وفيها أكثر من نصف مليون أجنبي، من الإيطاليين والروس البيض ، والحمر، والسنغاليين والفيتناميين، وبها نحو خمسمائة مصري إلى جانب آلاف من الآسيويين والأفريقيين والأمريكيين.. وهم جميعاً يلقون كرم الضيافة ومميزات التمدن ووجدان الثقافة.. ويتعلمون ويتجرون في حرية تامة.. ولا يعرف الباريسيون ذلك الاستعراض اللوني أو العنصري الذي تعرفه أمم أخرى، وليس هنا مطعم أو فندق يمنع الزنجي من دخوله».

ويعترف "سلامة موسى" بأن حياته الباريسية، هي التي جعلته يلتفت إلى تاريخ مصر القديم؛ لأنه كان يلقى من الباريسيين من هم متيمون بحب هذا التاريخ، إلى حد أنهم كانوا يحفظونه عن ظهر قلب؛ لذلك قرر عقب عودته إلى مصر أن يذهب من فوره إلى جنوب مصر، ليعوّض ما فاته.. يقول:

«عدت إلى مصر بعد قضاء سنة في فرنسا في عام ١٩٠٩، وأذكر

أنى حين نزلت فى الإسكندرية سارعت إلى قطع التذاكر عند شركة كوك؛ لرؤية مدن الصعيد إلى الأقصر. وقضيت شهرين أتنقل من بلدة إلى أخرى أدرس الآثار المصرية، وكان الباعث المؤلم، بل المخزى على هذه الرحلة أنى لم أكن ألقى أحداً فى أوروبا إلا وكان يفاجئنى بالسؤال عن تاريخ الفراعنة الذين كنا نجهلهم تمام الجهل؛ لأن الإنجليز كانوا يشعرون بأن هذا التاريخ الذى يشتعل مجداً وعظمة يجب ألا يعرفه أبناء الفراعنة فى القرن العشرين؛ لئلا يشتعل فيهم مثل هذا المجد أيضاً فيطلبون الاستقلال، ومنذ ذلك الوقت وأنا أهتم بالفراعنة وثقافتهم».

ثم يسجل "سلامة موسى" اعترافه الأخير فى شكل «عهد وميثاق» يذكر فيه فضل فرنسا عليه، فيقول فى كتابه الشهير «تربية سلامة موسى»: «إن فضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى أوروبى التفكير والنزعة، وقد تركت باريس فى نفسى إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن، ولم يتركنى هذا الإحساس إلى الآن، بل إنى أرى أنه من الحق أنْ نَصِفَ المصرى أو الألمانى أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه "فرنسى"، كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشارقة بأنهم "هيلينيون"؛ إذ استشبعوا بالثقافة الإغريقية ونزعوا النزعة الأثينية؛ لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافياً للإغريق فقط، بل كانت وطناً جغرافياً للفرنسيين وحدهم، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية، وأحب "باسكال"، و"رسو"، وعرف "كلود برنار" و"أناتول فرانس"، ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر. لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوروبية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلاً عن مغزى، وأى عزاء أكبر من هذا».

أحمد شوقي:

ولقـــد أقــــولُ وأدمُـــــعي منهلَةٌ ☆ (باريز) لـم يعـــرفك من يغـــزوك
مــــا خلتِ جنات النعـــيم ولا الدُمى ☆ ترمى بمشــهـود النهـار سـفُــوك
زعــمــوك دار خَـلاعــة ومــجـانة ☆ ودعــارة يـا إفكَ مــا زعــمــوك
إن كنت للشـهــوات ريًا فـالفـلا ☆ شــهــواتُهن مــروّياتُ فــيك
تلدين أعـلام البـيـــان وكـــلهم ☆ أصـــحـــابُ تيـجـان ملوك أريك
فاضت على الأجيال حكمة شعرهم ☆ وتفـجّـرت كــالكوثر المعــروك

ذهب أمير الشعراء "أحمد شوقي" إلى باريس لأول مرة في عام ١٨٨٧ بناء على رغبة الخديو "توفيق" الذي أوفده على نفقته الخاصة؛ ليدرس القانون وينظر في آداب الغرب وحياة الناس، وكان قد اختاره من دون شعراء وكتّاب هذه الفترة بسبب معرفته الشخصية به وبأسرته. (فجدة) "أحمد شوقي" (السيدة تمراز) والتي تنحدر من جزر المورة، كانت إحدى معتوقات إبراهيم باشا والي مصر وتدين بالولاء له، ولأحفاده. ويروى أنها دخلت على الخديو "إسماعيل" في إحدى المرات وهي تحمل طفلاً (هو أحمد شوقي) عمره ثلاث سنوات ويعاني من اختلال في أعصاب عينيه، مما يضطره للنظر دائماً إلى أعلى، وعندما سأل الخديو الجدة عن سبب ذلك، فأجابته بأنه وُلد هكذا.

فقال لها: إن دواءه عندي، ثم قام بنثر جنيهات ذهبية على البساط فهبط الطفل إلى الأرض وراح وراء بريق الذهب يجمع ما استطاع جمعه في كفه الصغيرة، وانخفضت نظرته، وصار ينظر نحو الأرض نظرة طبيعية.

فقال الخديو للجدة: «ضعي معه مثل هذا، فإنه لا يلبث أن يعتاد

النظر إلى الأرض، فقالت: هذا دواء لا يخرج إلا من صَيْدَلِيَّتكَ يا مولاى.. فقال ضاحكاً: جيئى إلىّ به متى شئت. إنى آخر من ينثر الذهب فى مصر».

وتؤكد هذه الواقعة - التى يرويها أمير الشعراء بنفسه - صلته الوطيدة بالقصر، منذ نعومة أظفاره، كما يفسّر ولاءه الشديد لأحفاد أسرة "محمد على"، وخصوصاً الخديو "إسماعيل" الذى يقول فيه:

أأخون إسماعيل فى أولاده .. وقد وُلدت بباب اسماعيلا

وبعد أن أمْضَى "أحمد شوقى" عامين فى دراسة الحقوق، ثم عامين آخرين فى دراسة الترجمة، اختاره الخديو "توفيق" (ابن إسماعيل) للعمل فى معيّته، ثم أوفده إلى أوروبا، يذكر "أحمد شوقى" هذه الحكاية، فيقول: «أبلغنى "على باشا مبارك" أن المعيّة الخديوية تطلبنى، فذهبت إلى السراى.. وعندما مثلت بين يدى الخديو "توفيق"، ولم أكن قد رأيته من قبل، وإن كنت قد مدحته مراراً وأنا فى المدرسة، فخاطبنى يقول: قرأت يا "شوقى" فى الجريدة الرسمية أنك حصلت على الشهادة النهائية، وكنت أنتظر ذلك لألحقك بمعيّتى، لكن ليس بها الآن محل خال، فهل لك فى الانتظار ريثما يُهيئ الله لك الخير؟».

وبعد عدة شهور أوفى الخديو "توفيق" بوعده وألحق "أحمد شوقى" بمعيّته، ثم أراد له أن يدرس الآداب الغربية والحقوق فى أوروبا، وخصص له راتباً شهرياً قدره ستة عشر جنيهاً، نصفها من الخاصة ونصفها من المعيّة، وأعطاه يوم سفره مائة جنيه بعث بنصفها إلى مدير

الإرسالية: ليهيئ له جميع ما يحتاج إليه.

الرحلة خارج مصر..

ويصف "أحمد شوقي" رحلته إلى أوروبا، فيقول: «ركبت البحر لأول مرة أؤم مرسيليا، فلما قدمتها وجدت مدير الإرسالية في انتظاري، فأخبرني أن الأمير أمر بأن أقضي عامين في مونبلييه وآخريْن في باريس، وعاد بي إلى مونبلييه على الفور وأدخلني مدرسة الحقوق».

وبعد أن أمضى "أحمد شوقي" عامه الأول في الدراسة، أرسل إلى الخديو "توفيق" يطلب منه أن يأذن له في الحضور إلى مصر، فرفض الخديو، وطلب منه أن يبقى أربع سنوات كاملة في أوروبا، وأرسل إليه خمسين جنيهاً؛ لينفقها في رحلة يختارها إلى أي بلد سوى مصر، وهنا انتهز "أحمد شوقي" الفرصة وقام بجولة في ريف الجنوب الفرنسي امتدت لشهرين، شاهد فيها عن كثب حياة الفلاحين الفرنسيين، وخالطهم ووجدهم قريبين في أنماطهم المعيشية والسلوكية من العرب.

وكتب يصف ذلك، فيقول: «عرفت الفلاح الفرنسي في داره وكنت ألقاه في مزرعته وأماشيه في الأسواق، فيخيل إليَّ أنه قد خلف العرب على إكرام الضيف وصون الجار، وكان أعجب ما رأيت مدينة كركسون" التي وجدتها قسمين، وألفيت القوم عليها صنفين: فمنهم الباقون إلى اليوم على ما كان آباؤهم عليه في القرون الوسطى، ناؤهم ذلك البناء، ولباسهم ذلك اللباس، وعاداتهم وأخلاقهم تلك العادات والأخلاق».

ويعد أن أنهى عامه الدراسى الثانى سافر إلى لندن على نفقة الخديو "توفيق" ومكث فيها شهراً يتجول فى شوارعها وميادينها الواسعة، ويجالس بعض المصريين هناك، وأثناء العام الثالث وقع "أحمد شوقى" مريضاً، ونصحه الأطباء بالسفر إلى إحدى الدول الأفريقية؛ لكى يقضى أياماً تحت شمسها الساطعة فوقع اختياره على الجزائر، وكان دليله فيها أحد القضاة الفرنسيين، وقد وصف "أحمد شوقى" هذه الزيارة وصفاً شيقاً، وتحدث عن افتتانه بطقس الجزائر وشمسها، ولم ينس أن يسجل دهشته لما حدث للغة العربية هناك من مسخ وتشويه على ألسنة العامة.. فكتب يقول: «أما جو الجزائر فلا يعدله بين الأجواء فى صحوه وطيب نسمته مع توقد الشمس إلا جنوب فرنسا، ولم أتأثر فيها كتأثرى من رؤية المصريين فى القهاوى البلدية؛ إذ أكثر أصحابها وغلمانها منهم.. ولا عيب فى الجزائر سوى أنها قد مُسخت مسخاً. فقد عهدت ماسح الأحذية فيها يستنكف من النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لم يجبك إلا بالفرنسية».

وأمضى "أحمد شوقى" سنواته الأربع فى باريس ومونبلييه (حتى عام ١٨٩١)، كما يجب أن يمضيها أى مثقف عربى ظامئ للمعرفة. فكان يقرأ ويطالع كل ما تقع عليه عيناه فى الأدب والشعر، ويستمتع بالفن الباريسى الرفيع فى المسارح، ويحضر حفلات الموسيقى والغناء؛ ولذلك كان طبيعياً أن يتأثر بعدد من الكتاب، وعلى رأسهم "لافونتين" الذى أعجبه أسلوبه الفريد فى نظم الحكايات على ألسنة الحيوانات، وترجم بعض أشعار "لامرتين" ومنها قصيدة "البحيرة". وكان يبعث إلى

الخديو "توفيق" بقصائد المديح بين وقت وآخر يملؤها بمعان وصور وأساليب جديدة بتأثير قراءاته في الشعر الفرنسي، ومن بينها القصيدة التي يقول في مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناءُ والغواني يغرُّهُن الثناءُ

يا لهفتى على النيل!

وكان "أحمد شوقي" يعشق السير على شاطئ نهر السين؛ لأنه يدغدغ مشاعره، ويذكره بالنيل الخالد في مصر، كما ظل لسنوات طويلة يتذكر جولاته التي كان يقوم بها بمفرده في ساعة الأصيل.. فكتب يقول عن فيضان "السين":

أنا لا أدعو على "سين" طغى إن للسين وإن جار زماما
لست بالناسي عليه عيشة كانت الشهد وأحباباً كراما

أما حدائق بولونيا الواقعة في الضواحي القريبة من باريس، فيبدو أنها كانت مرتعاً خصباً لأحلامه وصبواته، فها هو يخاطبها في قصيدة بعنوان «غاب بولونيا»، فيقول:

هلا ذكرت زمان كنّا والزمان كما نريد
تطوى إليك دُجى الليالي والدّجى عنا يذود
فنقول عندك ما نقول وليس غيرك من يعيد
نطفي هوى وصبابة حديثُها وتر وعود
نرى ونسرح في فضائل والرياح به هجود
والطير أقعدها الكرى والناس نامت والوجود

وفي القصيدة نفسها، التي نعتقد أن "شوقي" كتبها بعد سنوات

غربته بفترة طويلة وأثناء إحدى زياراته القصيرة لباريس، حيث يُذكّر «حدائق بولونيا» بشبابه وأيامه الأولى متمنياً أن يعود به الزمان إلى ذكرياته المبعثرة في ربوعها.. يقول:

يا غاب بولونيا ولي ذمم عليك ولي عهودُ
زمن تقضى للهوى ولنا، بظلك، هل يعودُ
حلم أريدُ رجوعه ورجوع أحلامي بعيدُ
وهَب الزمانُ أعادَها هل للشبيبة من يُعيدُ؟

كما أتيح لأمير الشعراء أن يلتقي في باريس بعدد من المثقفين العرب، ويسهر معهم في مقاهي الحي اللاتيني حتى وقت متأخر من الليل، ولعل أشهر هؤلاء المثقفين هو الأمير "شكيب أرسلان" الذي كان صاحب فكرة إطلاق اسم «الشوقيات» على ديوان "شوقي" ويروي "شكيب أرسلان" قصة هذا اللقاء وطبيعة المناقشات التي كانت تسوده، فيقول في مذكراته: «بقيت لا أعرف "شوقي" معرفة شخصية إلى عام ١٨٩١؛ إذ ذهبت من الأستانة إلى فرنسا قاصداً السياحة، وكان "أحمد شوقي" يدرس علم الحقوق في مونبلييه، وفي أثناء العطلة المدرسية جاء إلى باريس ومعه رفيق اسمه "تولار"، وبينما نحن في الحي اللاتيني؛ إذ جمعتنا الأقدار، ولكن لم نجتمع حتى صرنا أخوين وغدونا نجتمع كل يوم مرة أو مرتين، وأكثر تلاقينا كان في مقهى "داكور"، وفي أثناء لقائنا الأول كنا نتذاكر حول أمور كثيرة، ولكن أهم حديث كنا نخوض فيه هو الشعر، وكان مع شوقي ديوان المتنبي، وكان يحفظ منه، ولا شك أنه تأثر به».

من شاعر خصوصي إلى المنفى..!

وبعد أن قضى "أحمد شوقي" في باريس ستة أشهر أخرى أمضاها متنقلاً بين أحيائها ومكتباتها ومسارحها عاد إلى مصر، حيث جعله الخديو "عباس حلمي" شاعراً خاصاً له، وعيّنه رئيساً للقسم الأفرنجي بقصر عابدين.

.. لكن بعد حوالى ربع قرن من عودته إلى مصر وانتظامه في عمله بقصر عابدين، شاءت أقداره أن يعود ثانية إلى أوروبا عندما أجبره الإنجليز على مغادرة مصر، فاختار أن يقيم في إسبانيا.. وها هو يروى قصة نفيه، فيقول: «لما وقعت الحرب الكبرى وشمل العالم هذا الاضطراب الفريد، وانضمت تركيا إلى الألمان عمدت إنجلترا إلى قلب نظام الحكم في مصر، وأعلنت انتهاء حكم الخديو "عباس"، ثم أخذت تنفي عن مصر كل من لهم صلة به، فأمرتني بالرحيل إلى أسبانيا، فجمعت عائلتي واصطحبت مكتبتي وسائر مرافقي، وغادرت مصر إلى برشلونة، وهو ثغر على شاطئ البحر الأبيض يشبه مرسيليا في المدنيّة، ويكاد ينم عما كان فيه من سابق الحضارة العربية في عهد الدولة الأندلسية».

ويستطرد "أحمد شوقي" شارحاً بعض تفاصيل من حياته الجديدة في المنفى، فيقول: «أدخلت أولادي المدارس الراقية، ثم عكفت على قراءة كتب الأدب العربي في غير أوقات النزهة، ومشاهدة السينما، فاستوعبت منها ما لم أكن استوعبت، وطالعتها كلها حتى أكاد أقول إنه ليس في الأدب العربي كتاب لم أستوعبه خلال السنين التي مكثتها في

إسبانيا، وقد ساعدنى فى ذلك طيب الجو اللطيف الذى يشبه جو الإسكندرية وجمال المناظر التى تحاكى ضواحى الأستانة فى نظامها..».

ويضيف: «فى هذا الجو وفى ذلك الوسط الكريم نشأت نشأة أخرى فى الأدب العربى، واستأنفت دراستى له بعناية واهتمام وتوفرت على رياضة الذهن فى ثمرات القرائح العربية منثورها ومنظومها، فحصلت على ثروة لم أفز بها من قبل».

ويُقال إن الغربة الثانية - "المنفى" - كانت أشق وطأة على نفس "أحمد شوقى" من غربته الأولى التى كانت من أجل الدراسة، والسبب هو أن أصدقاء الأمس قد تنكروا له عندما تغيرت إدارة القصر، وصاروا يكرهون لقاءه خشية أن يُتهموا بعلاقتهم مع أحد رجال النظام القديم.

ويعترف "حسين" - الابن الأكبر للشاعر أحمد شوقى - بأن والده قابل قرار نفيه "بارتياح شديد"؛ لأن هروب أصدقائه منه كان قاسياً على نفسه.

ويؤكد "حسين شوقى" أن سنوات المنفى قد قربته هو وأخوته من أبيه الذى كان يهتم بهم بنفسه، فيعلمهم اللغة العربية، ويقرأ معهم القرآن كما قرأ عليهم "ابن الأثير"..

ويضيف مُصوِّراً حياتهم فى إسبانيا، فيقول: «استأجرنا منزلاً فى ضاحية من ضواحى برشلونة تدعى "فلفدريرا" وهى مرتفعة كثيراً عن

قلب المدينة؛ لذلك كان فى استطاعتنا أن نشهد بسهولة بحرنا الأبيض المتوسط الجميل، والسفن وهى رائحة غادية فى ليل نهار، فيشغل منظرها فينا الحنين إلى الوطن. أما النقود التى كانت ترسل إلينا شهرياً من مصر فهى مائتا جنيه كانت تصلنا حوالى مائة وعشرين جنيهاً فقط.. وشرع أبى فى تعلم اللغة الإسبانية وقد تعلمها فعلاً، ولكن نطقه فيها لم يكن سليماً».

أثر المنفى فى "شوقى" ..

وأياً كان الأمر فغُربة "أحمد شوقى" فى إسبانيا كانت مُثمرة، وأبعد أثراً فى تكوينه الفكرى. فعبق التاريخ الإسلامى الذى تنفسه فى إشبيلية وغرناطة هو الذى أوحى له أن يكتب روايتيه «أميرة الأندلس»، و«المعتمد بن عباد»، كما حثّه على مراجعة حياة أعلام الإسلام؛ ليكتب عنهم، مثل "عبد الرحمن الداخل"، كما قرأ آثار "ابن زيدون" و "لسان الدين بن الخطيب".

يبقى أن نذكر أن هذا الانشغال باستعادة التاريخ واستلهامه فى الكتابة وقرض الشعر، لم يجعل شوقى ينسى وطنه، كما لم يَقِه شرور لوعة الفراق، فكتب ذات يوم ثلاثة أبيات بعنوان "من الغائب إلى المُقيم"تقول:

فرد عليه شاعر النيل "حافظ إبراهيم" بأبيات ثلاثة بليغة، بعنوان «من المُقيم إلى الغائب» تقول:

..عودٌ حميد

وفى شهر فبراير عام ١٩٢٠ عاد "شوقى" إلى مصر، وكان قد قرر أن يبتعد عن القصر، وينصرف إلى العمل المنتج، ولم تنفد همته رغم كُبر سنه، وقد استقبله جمهور الأدباء ورجال القلم بالحفاوة والترحاب، وألقى "خليل مطران" و"حافظ إبراهيم" قصيدتين ابتهاجاً بعودته، وفى مارس ١٩٢٠ نشرت جريدة «الأهرام» قصيدة شوقى الأولى بعد العودة التى يقول فيها:

وَيَا وَطَنِى لَقِيْتُكَ بَعْدَ يَأْسٍ كَأَنِّى قَدْ لقيتُ بِكَ الشَّبَابَا

وأخيراً، وعلى الرغم من قسوة التجربة الاغترابية لأمير الشعراء، خصوصاً فى شقها الثانى (المنفى) إلا أنها كانت فالاً حسناً على الشاعر وبوره فى تاريخ الأدب العربى المعاصر، فقد قربته من الشعب بقدر ما أبعدته عن القصر، فبُويع بعد عودته بفترة أميراً للشعراء، كما أتاحت له تلك الفترة فرصة أن يقف على كنوز التراث الإسلامى، ويقرأ فى عيون الأدب العربى، كذلك اطلاعه على حياة الشعوب وآدابها المختلفة.

بكلمة أخرى: لقد ساعدت غُربته فى ولادته من جديد كشاعر عربى كبير.

الشيخ مصطفى عبدالرازق:

«.. زرت الحى اللاتينى: مجمع الكوليدج دى فرانس، والسوربون والبانتيون (مقبرة العظماء) فإذا طلاب وطالبات برغم العطلة يغدون ويروحون تفيض محافظهم بالكتب والأوراق، كما تفيض وجوههم الفتية بالنشاط والبِشْر، وأكثر الطلاب الأجانب جداً وعملاً وانتفاعاً بالمقام فى أوروبا هم اليابانيون، - فيما سمعت - وأكثرهم رفهاً وانصرافاً إلى اللعب، وتضييعاً للدرس هم الرومانيون. أما المصريون فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم، إلا أنهم ممتازون بالتأنق والرشاقة وحسن البزة..»

(١)

في صيف ١٩٠٧، وتحديداً عقب استقالة الشيخ "مصطفى عبد الرازق" من مدرسة القضاء الشرعي، بسبب اشتراكه في جمعية «تضامن العلماء» التي تنادي بإصلاح الأزهر، جاءت فكرة سفره إلى باريس وكأنها محاولة لإبعاده عن بؤرة الأحداث، خصوصاً أن الإضرابات كادت تعم أرجاء الأزهر، وبات واضحاً أن الفتنة في هذه المؤسسة الدينية العريقة استيقظت بعد طول رُقاد، وسوف يكون من الصعب كبحها.

يروي "علي عبد الرازق" شقيق "مصطفى" أن فكرة سفر شقيقه إلى فرنسا لدراسة اللغة الفرنسية وبعض العلوم، ظلت موضع بحث طويل بين أفراد عائلة «آل عبد الرازق» التي استقر رأيها بعد أن «قلّبت الأمر على جميع الوجوه» أن يسافر بالفعل.. يقول «ثم اتفقنا أن يسافر "مصطفى" إلى باريس؛ ليقيم فيها سنة كاملة؛ ليتعلم اللغة ويحضر بعض دروس الفلسفة في السوربون، وشرعنا على الأثر في تجهيزه للسفر، وفي يوم الثلاثاء ١٩٠٩/٦/٢٢ سافر من مصر إلى بورسعيد،

وكان مودعوه فى المحطة جمعاً كبيراً من أهل العلم والجاه، وفى الصباح الباكر من يوم الأربعاء أبحرت به السفينة إلى مرسيليا؛ ليأخذ القطار منها بعد ذلك إلى باريس.

لحظة السفر.. لحظة الفراق..

أما "مصطفى عبد الرازق" فيصف تجربة سفره لأول مرة إلى أوروبا، قائلاً: «كنت يومئذ (فى يونيو عام ١٩٠٩) فتى لم ير ما وراء القاهرة من جهة الشمال، ولم يعرف البحر تجرى سفائنه فى موج كالجبال، ولم أسكن فى غير دارنا، ولا عشت إلا بين أهلى، ولا نطقت إلا لغتهم، وكنت من السذاجة ورقة القلب وفرط الحياء على ما كان عليه ناشئة الأزهر فى ذلك الزمان.. كل هذه العوامل ملأتنى رهبة من السفر حين دنا موعده، فاضطربت أعصابى وهاجت عواطفى».

ثم يسترسل واصفاً مشاعره لحظة السفر، وكيف أنه كان يخشى أن ينظر فى عينىّ والدته، التى كان يظنها حزينة دامعة. فإذا بها تُلقنه درساً آخر من دروس الحياة، وهو كظم الحزن، والتظاهر بالابتسام عند الشدائد.. يقول:

«دخلت إلى والدتى أودعها وبى من التأثر ما لا طاقة لى بكتمانه، وكنت أُقدّر أنها ستبكى وتعطينى فرصة للبكاء تريحنى. لكن الشيخة القوية توسمت حالتى فلقيتنى باسمة تخفى قوةُ الإرادة وتجاعيدُ الكبر ما قد يساورها من ألم..

قالت: لو كنت جازعة لفراق أحد من أولادى لجزعت يوم سافر أخوك

البكر وهو طفل لا يستغنى بنفسه، أما أنت فرجل نضجت مواهبه وكملت تربيته. سافر على بركة الله وفى ذمته...

ثم ضمتنى إلى صدرها وقبلتنى. هناك استعنت بكل ما أملك من عزم، وكل ما فى قلبى من حب وإجلال لهذه الأم البارّة على كتمان عواطفى المتأججة، وقبلت يدها وانصرفت ساكناً مبتسماً برغم ما أعيانى من وجد واضطراب، وكان ذلك أول ما علمنى كظم المواجد، والابتسام عند الشدائد، وتوالت دروس بعد ذلك عودتنى أن أكتم العواطف وهى جائشة وأن أرزن للخطوب وهى طائشة».

.ثم يروى "مصطفى عبد الرازق" كيف ودّع ابنته الصغيرة عندما جاءته بها حاضنتها.. فانقلبت ابتساماتها إلى صرخات، وأخذت تناديه بكلمات مبغومة تحزّ فى نفسه، وتؤلمه، لكنه التفت إليها باسماً، ثم أمر السيارة أن تنطلق به إلى المحطة..

.. وفى ميناء بورسعيد هبط "مصطفى عبد الرازق" بعد أن ودّع رفاقه وأصدقاءه إلى أرض السفينة التى كانت بالنسبة له عالماً جديداً تماماً.. فهى ليست من الأرض، ولا من السماء وإنما من شيء آخر هو عالم البحار، وكان كلما نظر حوله، ورأى وجوهاً لا عهد له بها من قبل، أدرك أنه مُقبل حتماً على تجربة قد لا تتكرر كثيراً فى حياته.. فأضمر فى نفسه شيئاً وهو ألا يضيّع وقته دون أن يستفيد بما يمر به من أحداث، ويزيد معارفه بطباع الناس وطرق تفكيرهم.. فشاءت أقداره أن يكون مكانه على مائدة الطعام داخل السفينة إلى جانب عائلة هندية، كانت تشركه فى طعامها بإلحاح الشرقى فى الكرم، وكان لا يملك إلا

الطاعة ويلتذ بالتوابل الكثيرة والمواد الحريفة المخلوطة بالسكر والزبيب التى تملأ ما يأكلون.. ولأنه لم يكن يفهم الإنجليزية التى يتكلمها الهنود بطلاقة، ولا هم يفهمون الفرنسية التى كان يجيد التحدث بها. فإن لغة التفاهم التى جمعتهم على المائدة كانت لغة الأصوات والحركات..

من دروس الحياة..

ويذكر "مصطفى عبد الرازق" أنه تعلم درسين فى الحياة لم ينسهما طوال سنوات عمره. الأول هو التسامح الدينى، و الثانى هو حق كل إنسان فى أن يختلف عن الآخر دون خصومة أو عداء..

ثم يروى واقعتين كانتا سبباً فى أن يستخلص هذين الدرسين. الأولى يذكرها، فيقول: «سألنى رب العائلة الهندية ونحن نتناول معاً الغذاء: هل أنت محمدى؟ وكرر السؤال ثانية، وكان على إثر جوابى بالإيجاب يُحادث السيدات اللواتى معه بالهندية..

ثم قرأت بعد ذلك فى الجرائد أن معارك نشبت بين المسلمين والهندوس فى الهند من أجل بقرة يريد أولئك أن يمتهنوها، وهى عند هؤلاء مقدسة. عندئذ فهمت السرّ فى ذلك السؤال المُكرر»

ويذكر "مصطفى عبد الرازق" أنه انتهز فرصة لقاءاته طوال الرحلة بهذا الهندى وأسرته، وشرح له أنه يؤمن بالإسلام، وبمحمد نبى الإسلام، وأنه لا يهُين البقرة ولا يعبدة، ثم يحدثه عن أمنيته راجياً ألا يتناحر المسلمون والهندوس من أجل حيوان معبود.

ويبدو أن مثل هذه القضية شغلت "مصطفى عبد الرازق" وقتاً طويلاً خصوصاً فى خلواته داخل حجرته بالسفينة؛ ليصل إلى قناعة بعدها

بأنه من العبث أن يموت مئات بل ألوف الأشخاص بسبب تعمد البعض إهانة مقدسات البعض الآخر.. ويتساءل: لماذا لا تطيب لكل منا مقدساته واحترامنا لها، مثلما يطيب لنا جميعاً العيش والملح.... أما الدرس الثاني الذي استفاده "مصطفى عبد الرازق" في رحلته إلى السفينة، فهو يتعلق بالرقص الذي كان يجتمع عليه ركاب السفينة كل مساء، حيث لم يخف "مصطفى عبد الرازق" إعجابه بالقدود الهيفاء التي كانت تُرسل حركاتها الرشيقة مُسايرة للأنغام الموسيقية.. فها هو يصف الرقص وصفاً بديعاً فيقول:

«تنساب تلك الأقدام اللطيفة، هفّافة متراوحة الخُطَا، مُسرعة بطيئة، فيرتج بعض الجسم ارتجاجاً خفيفاً، وتميس الأعالي، كصدور العوالي، ثم يحمى الوطيس، وتتعالى نبرات الموسيقى نغماً سريعاً متواصلاً فكأنما تلك الأسراب طيوراً، وكأنما تلك الوجوه الشفافة شُعلة من نار ونور، وكأن بدوراً تعانقها بدور، وكأن الأرض والسماوات تمور».

ويبدو أن هذا الوصف الدقيق والبليغ لفعل الرقص إنما جاء بعد مُشاهدات عميقة وفاحصة من جانب مصطفى عبد الرازق أو ربما ـ كما يقول بعض النقاد ـ جاء بعد أن شارك بنفسه في هذا الرقص أكثر من مرة.

محاورة الرقص.. والمدنية

أياً كان الأمر، ما يعنينا هو المناقشة التي تلت ودارت حول مغزى الرقص وفلسفته.. ويسجل "مصطفى عبد الرازق" هذه المناقشة الخصبة، والحُرّة فيقول: «تفرق الجمع ساعة للراحة، فأويت إلى رفقة

جلسوا ناحية يتبادلون الحديث:

قال قائل منهم: لست أرى الرقص - على ما فيه من رشاقة وجمال - حاجة من حاجات المدنية ولا كمالاً، من كمالاتها. ولست أتمنى لقومى أن يقتبسوا هذه العادة فيما يقتبسون من عادات الغربيين. فإن مدنيّتنا المرجوة إذا امتازت بمسحة من الاحتشام، كان ذلك زينة لها وجلالاً..

لكننى علمت أن النساء والفتيات فى بعض عائلاتنا الوجيهة جداً يتهافتن على الرقص حتى فى المراقص العامة التى تُقام فى الفنادق، وإذا كان لابد لنا من هذه المحنة، فقد كنت أود أن تبطئ قليلاً إلى أن تثبت خطواتنا المزلزلة فى سبيل التربية والتعليم. إن الرقص مهما يكن من شأنه فهو متاع من رَفَه المدنية، ونحن لا نزال نلتمس من المدنية ما يسُد الرمق.

أجاب ثانى الجماعة: إن الرقص ليس حاجة من حاجات المدنية، ولا هو رفه من زوائدها، ولكن الرقص من حاجات الجماعة البشرية فى جميع أدوار حياتها.

وأهل الحضارة لهم رقص أكثر نظاماً وأحسن انسجاماً، ولا تخلو الأمم من الرقص إلا فترات فى عهود الانقلابات الخطيرة، أو الفتن العاصفة، ولقد جاءت أديان لا يناسب تقاليدها هذا النوع من اللهو الفطرى، فالتمست الغرائز البشرية لها منفذاً من جانب الدين نفسه.

وليست حلقات الذكر (بطبقاتها وبدفها ونايها)، وحفلات الزار (بدقاتها، وبطبلها وغنائها)، إلا تحلة للرقص عند النساء والرجال فى بلاد الإسلام، وإذا كانت حفلات الزار تطارد؛ لإقلاقها راحة الجيران، وحفلات الذكر تُحارب؛ لأنها بدع، وكنتم تحاولون أن تمنعوا هذا

الرقص الفرنجي أن يصل إلينا، فأنتم تسدون المنافذ على ما في الطبائع.. رويدكم إننا ناس من البشر.

أما الثالث فنفض رماد سيجارته ونظر إلى الجمع بعد إطراق، وقال: إن في هذا الرقص جمالاً ولذة، ومن الجور أن ننقص حظ الإنسانية من اللذة والجمال، فليكن هذا المتاع فناً من فنون الجمال تختص به طائفة تبرع في أساليبه، وتمتع الآخرين بآثار براعتها. فيكون عندنا الرقص فناً حياً من غير أن يكون في تقاليدنا أن يرقص أهل الحشمة والوقار.

سكت القائل الأول لحظة، ثم سعل، وقال مبتسماً هذا رأي جدير بالنظر.

أما الثاني فصاح: سيرقص أولادنا في المهاد، وأنتم تمحصون الأنظار، وتقدرون فتضحك الأقدار.

وعادت الموسيقى إلى عزفها، ودارت حركة الرقص فطربنا جميعا..

بعيدا عن الجن والإنس والملائكة..

وقد كانت هناك لذات أخرى في الرحلة، يحرص "مصطفى عبد الرازق" على أن يأخذ من كل منها نصيباً.. يقول: «سفر البحر لذيذ، يُبعدك عن الأرض وما فيها من جن وإنس، وكأنما يبعدك عن السماء وما فيها من ملائكة وعوالم علوية، ولعل أهنأ العيش ما كان بعيداً عن الجن والإنس والملائكة».

ثم يسترسل قائلاً: «تستطيع في البحر أن تعرف لذة المطالعة في سعة من الوقت وهدوء وصفاء بال، وتستطيع أن تعرف لذة النوم في الهواء الخالص، الطلق، ولذة الاستلقاء في كرسيك الطويل من غير نوم،

لا يشغل بالك شاغل، ولا يقطع أحلامك زائر، وتستطيع أن تلعب القمار، وغير القمار وأن تستمتع بالحديث والسمر وتستمتع بظلام الليل وغبش السَّحَر، ولقد استمتعنا ببعض ذلك ـ والحمد لله ـ ثم غدونا إلى مرسيليا صُبْحاً».

ويبدو أن "مصطفى عبد الرازق" قد استقر رأيه على أن يُمضي بعض الوقت في مرسيليا التي هبط ميناءها صباحاً بعد سفر مُتواصل أربع ليال، فكان أول ما صادفه مع موظفي الجمارك هناك هو كيف يخرج حاملاً معه السجائر المصرية التي كان يعشق تدخينها دون أن يدفع رسومها الجمركية، أو على حسب تعبيره "دون أن يؤدي إتاوتها!" فها هو يعترف بأنه اضطر أن يرشو عمال الجمرك الفرنسي؛ لكي يتركوه يدخل إلى بلادهم بسجائره، لكن ضميره ظل يلسعه طويلاً بسبب هذه الفعلة.. يقول:

«كان مع كثير منا سجاير مصرية يريدون أن يمروا بها من غير أن يؤدوا إتاوتها، وتلك عقبة لا يذللها إلا ما في عمال الجمرك الفرنسي من ظرافة تكلفك قروشاً معدودة، ولما خرجت من الجمرك بما معي من السجاير شعرت بوخز في مكان الفضيلة من نفسي. فإن هذه هنَات مهما اختلقنا لها أعذاراً لا تخلو من غمز في قناة الخُلُق».

(٢)

وفى اليوم التالى لوصوله إلى مرسيليا قام "مصطفى عبدالرازق" بزيارة مكانين شهيرين. الأول هو كنيسة نوتردام دى لاجارد، والثانى هو مُنتزه مرسيليا الأكبر أو كورنيش البحر.. يقول: «زرت كنيسة نوتردام دى لاجارد القائمة على ربوة عالية تشرف بك على تلك المدينة كلها، وترى فيها صورة ذات ألوان بديعة مرسومة بشوارعها وحدائقها ونجادها ووهادها وضواحيها، والبحر الأبيض المتوسط حولها نطاق من سندس أزرق».

ثم يسترسل قائلاً: «صعدنا فى مصعد تارة، وتارة على أقدامنا، حتى بلغنا المعبد، وكنت أحسبنى لا أرى إلا أجانب يزورون الآثار الفنية ويشهدون منظر المدينة البديع من ذلك المكان العالى، لكننى رأيت فى نواحى هذه الكنيسة - صعبة المرتقى - فى جوف ظلامها المؤنس الرهيب عباداً يخرون للأذهان سُجداً فى خشوع وإيمان متوجهين إلى ربهم بقلوب تدفعها صدمات الحياة إلى التماس العزاء فى كنف رحمته فى سذاجة لا يعرف الشك سبيلاً إلى يقينها»، ثم يبتهل "مصطفى عبد الرازق" بالدعاء

إلى الله أن يهبه إيماناً صحيحاً، وراسخاً فيقول:

«اللهم إيماناً كإيمان "هؤلاء" العجائز! أليس الدين جميلاً فى إخلاصه ويقينه؟ وجميلاً فيما يمسح من آلام البشر بيمينه؟ إنما يشوه الدين أولئك الذين يريدونه كيداً وتضليلاً وقيداً للعقول والقلوب، ثقيلاً.

وفى ساعة الأصيل يقوم مصطفى عبد الرازق بنزهة على شاطىء البحر فتأسره النواحى الجميلة التى تكلل الغابات هامتها الذاهبة فى السماء، ويمتد البحر من تحتها إلى غير مدى.. ثم يأوى إلى أحد المطاعم الذى يُشَبِّهُهُ بالجنة التى تلفها الأشجار، وتحف بها الجبال فى حلل من الأزهار والرياحين، حتى ليبدو المطعم وكأنه سفينة حين تنظر الى البحر منبسطاً بين يديك، تضطرب أمواجه.. وتكتمل هذه اللوحة الخلابة بالموسيقى التى تصدح فى ناحية من المطعم، فترسل أنغاماً حلوة يحملها نسيم البحر ممزوجة بحفيف الأمواج والأشجار وهمس التناجى وابتسام الحسان.

ويعترف "مصطفى عبد الرازق" بأنه خرج من زيارة هذين المكانين (الكنيسة، والكورنيش) مُعتقداً أن فى مرسيليا تُقْيَاً، وفيها ذوقاً، وما أحسن التقى مع الذوق..

ولأنه كان خفيف الظل فى كل تعليقاته، وانطباعاته التى يسجلها حول زياراته للأماكن المختلفة، فلم ينس أن يروى واقعة حدثت له مع سائق السيارة التى أقلته من المطعم إلى الفندق الذى كان يبيت فيه ليلته الأخيرة فى مرسيليا، معترفا بأنه خرج منها بطلاً أو منتصراً رغم أنفه .. يقول: «ودعت بعض الأصحاب فى المحطة منتصف الليل، ثم

ركبت سيارة إلى الفندق، ولما دفعت الأجرة رضخت للسائق رضيخة. رآها قليلة، فصاح مُغضباً: أهذه رضيخة سائق بعد منتصف الليل؟ وقذف فى الأرض ما أعطيته.

هنالك ثارت فى نفسى حفيظة وخالطها هلع من شر هذا السواحلى مفتول العضل المخمور من نبيذ آخر الليل، وظن وقفتى الهادئة ونظرتى الساجية تحفزاً للبطش، فطار بسيارته لا يلوى، وتركنى أقول فى نفسى: أليس خوف الناس من مظاهر القوه يكون فى كثير من الأحيان هكذا أقول فى نفسى أليس وهماً قائماً على ظواهر خادعة من ورائها ضعف وخور ؟!»

المصريون فى ليون صنفان

.. وعندما يصل "مصطفى عبد الرازق" إلى مدينة "ليون" وينخرط فى الدراسة بجامعتها لعدة أسابيع، يقرر أن يقوم بجولة للتعرف على المدينة، فيزور كنيستها، ويجلس على مقاهيها، ويخالط سكانها عامداً متعمداً .. وأذهله أن "ليون" تعتبر وكراً رئيسياً للمصريين، حتى ظن نفسه لم يغادر بعد القاهرة أمام كثرة ما لاقى منهم فى أحياء المدينة ..

وقد كتب فى «مذكرات مسافر» يقول:

«يلقاك فى "ليون" صنفان من المصريين، أحدهما المرضى الذين يهرعون إلى تلك المدينة الفرنسية الكبيرة؛ ليستشيروا أطباءها المشهورين، وأولئك تعرفهم بسيماهم؛ لأن فكرة المرض، والتهمُّم بأقوال الأطباء المختلفة تجعل وجوههم شاحبة، وعيونهم السودة البراقة ساجية. كلما سمعوا بطبيب خفّوا إليه سراعاً، فمَحافظُهم مملوءة بتذاكر الأطباء، وحجراتهم مملوءة بزجاجات الدواء. مسيرهم إلى عيادة طبيب أو معمل تحليل، أو محل صيدلى، ولا يزالون فى هذا التردد حتى

يسوقهم القدر إلى اختيار بلد من بلاد الحمامات للعلاج..

تلك حال تجدها فاشية في بلادنا، لا يقنع المريض ولا أهله بطبيب واحد ولا علاج واحد، وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى التراخي في التداوي أو الخلط فيه وكلاهما ضار».

ويبدو أن "مصطفى عبد الرازق" قد جالس كثيراً من هؤلاء المرضى، وعرف عللهم وما يشكون منه، وكيف يُعالجون في المستشفيات الفرنسية؛ لذلك نجده يسترسل في وصف حالة هؤلاء المرضى دون أن ينسى أن يسجل انطباعاته. يقول: «لو أن لكل مريض منا طبيباً يعتاده، فيعرف تكوين بنيته وموطن الضعف فيها، وما هو مُستعد له من الأمراض وتاريخ ما يصيبه منها؛ لسهل الاهتداء إلى الداء في بدايته والوصول إلى مداواته على الوجه الذي يوافق مزاج العليل. ويضيف: وتقرير من مثل هذا الطبيب ينفع أساتذة الطب الذين يُستشارون في أوروبا ويُسدد أنظارهم. لكننا إذا لُمْنا مرضانا على ما بهم من هَلَع يورثهم ضعف الثقة بالأطباء، فإنا لسنا أقل لوماً لأطبائنا؛ لأنهم في الغالب لا يعنون بأن يقيدوا مرضاهم ويتعرفون على كل نواحي بنيتهم ومميزات مزاجهم. ينظرون نظراً محلياً إلى موضع الألم وما يشكو منه العليل. وإذا كان عذر مرضانا أنهم في الأكثر ممعودون، فلعل عذر الأطباء أن زبائنهم كثير، ووقتهم قصير».

ثم يتحدث "مصطفى عبد الرازق" عن الصنف الثاني من المصريين الذين يلقاهم في "ليون" وهم الطلبة، فيقول: «أما الصنف الثاني من المصريين في "ليون" فهم الطلبة. أولئك إذا أردت أن تلقاهم، أرشدت إلى

قهوتين فى أحسن مواقع المدينة، واحدة للنهار وأخرى لليل. ومن الظلم أن تفهم أنك لا تجدهم فى غير القهوتين. فإنك تجدهم فى أماكن أُخر وفى الجامعة أيضاً. ليس من السهل أن تتعرف إلى أولئك الشبان من بين سائر الناس، فقد مسح عنهم طول المقام فى أوروبا شعث وادى النيل، فابيضَّتْ وجوههم، أو كادت. وسلست شعورهم ولانت، بعد أن كانت كشعورنا خشنة مُجعَّدة، أما لحاهم وشواربهم فمحلوقة حتى تحسبهم جميعاً فى سن واحدة، اللهم إلا طالباً رأيته أرسل شاربه وترك من لحيته ما يقوم بالكفاية ويسقط الحرج عن الباقين من حملة الشهادة الأزهرية العالية. أما صاحبنا فلو كان حلق لحيته لنالته ألسنة الدينيين، وكُتب فى قائمة الملحدين».

رحلة ريفية هادئة

وقد حرص "مصطفى عبد الرازق" طوال إقامته فى "ليون" على توطيد علاقته بعدد كبير من الفرنسيين من سكان الريف والمناطق المجاورة للمدينة، وقام بالفعل بزيارة هذه المناطق، مثل مدينة «إكس ليبان» التى نجدها تحتل مساحة كبيرة فى مذكراته؛ لأنه زارها أكثر من مرة. وبناء على دعوة صديق من "ليون"، ذهب معه؛ ليزور منزل عائلته ومزرعتهم فى قرية تبعد عن "ليون" مسيرة ساعتين.

ويصف هذه الرحلة الريفية، فيقول: «عندما خرجنا إلى الريف استقبلنا وادى السون: جنة ذات نجم وشجر، وبحيرات وأنهار، نرقى نجادها فنشرف على منظر يُبهر العين جماله، كأنما نرى صورة أبدع الفنان رسمها وتأليف ألوانها، ثم ننحدر إلى وهاد، تحيط بها جبال

ترفل فى غلائلها الخضر، وحيثما وجهت وجهك فثم خضرة وماء ووجوه حسناء. تبدو المنازل منشورة فى ذرى الربوات وأحضانها، وفى منحدر الوديان ومطمئن الأرض، وتجتمع أحياناً قرى أو عزب، وأما السبل فـمُـمـهـدة وإن ازْوَرَّتْ بك ازْوِرَاراً، وذهبت يُمنة ويسـاراً، تحف بهـا الأشجار باسقة ألفافا تحجب الشمس وتحجب المطَر، وتأذن للنسيم وتأذن للنظر».

.. ويذكر "مصطفى عبد الرازق" أنه تناول غذاءه مع هذه الأسرة المكونة من رب الدار الذى بلغ الثمانين من عمره، وما زالت تبدو عليه مظاهر النشاط والجد، فهو معتدل القامة، مفتول العضلات، وربة الدار وهى أقل سناً، لكنها أطول منه قامة وأظهر شيخوخة، وفيها وداعة النساء ووداعة الهرم، وفيها التقى وداعة أيضاً.. وراقه أن يجد السعادة ترفرف بجناحيها على هذا المنزل الريفى الفرنسى العتيق فالرجل يدير الشئون الخارجية بهمة وحزم على أنه يشاور امرأته ويستنصحها ويُطلعها على كل صغيرة وكبيرة من موارده ومصادره ومزارعه ومتاجره.. بينما السيدة تتولى سياسة المنزل وما يلزم لنظامه وراحة ساكنيه مع حفظ درجة الزعامة لرب البيت..

ثم فى قفشاته التى لا تخلو من «خفة ظل» يروى أن سيدة المنزل أخذت بيد ابنها ويده إلى ناحية من الحديقة، نصبت فيها تمثالاً صغيراً للسيدة العذراء، ووقفت جاثية خاشعة مُتضرعة لأم المسيح ترتل لها توسلها المشهور .. وقد استغرق "مصطفى عبد الرازق" فى تأملاته وهو يتخيل ملائكة ذوى أجنحة تحمل دعوات سيدة المنزل إلى العالم العلوى،

وتحملهم مع هذه الدعوات، فلا يروا إلا أرواحاً وأنواراً.

يقول: وبينما نحن مغمورون فى هذه التجليات الآخذة بكلياتنا عن شئون هذا العالم، إذ يزعجنا بغتة صائح دنيوى هو نفير السيارة التى أعدت لنا، فننتفض مذعورين.. تصرخ السيدة وابنها: يا مريم يا أم الإله! وأصيح وحدى: يا سيدة زينب يابنت الإمام!.

ثم يروى كيف ذهب لزيارة صديق آخر له فى بلدة تدعى "هوت فيل" التى يأوى إليها المرضى (المصدورون)، فيجد فقراؤهم مستشفى تابعاً لمجلس الديرية، ويجد ذوو الغنى مستشفيات خاصة أو يقيمون فى منازل.. فيقول إن هذا الصديق الفرنسى تجمعه به صلات علمية، وود متين، فاشتغلا معاً لفترة، وتعاشرا زمناً، واحتفظا أخيراً بتذكار سعيد لعشرتهما الودودة.. أما السيدة زوجته، فقد عرفها منذ عهد زواجهما وهى صديقة قديمة لزوجها.. لكنها للأسف مريضة اليوم، يذُبل السُل زهرتها ويحاول أن ينال من بشاشة نفسها وقوتها، ونفسها أكبر من أن ينال منها ألم.

.. ويكتب فى مذكراته، يقول: «هى مُضطجعة فى كرسيِّها الطويل، فى قلب المنزل، ونحن جلوس حولها ومعنا وحيدها الطفل، تحملها نوازع الحنو على أن تضمه إلى صدرها، ثم تشيح بوجهها عنه، وهو فى حضنها وهى مُشوقة إلى تقبيله، مخافة أن يسرى إليه داؤها، وليس يدرى الصبى كم يحمل ذلك الصدر العليل من حب له مكظوم لو انبعثت قبلاته؛ لأضاءت ما حولها.. أراد أصدقائى أن أبيت معهم، ولكننى كنت فى همّ أريد أن أفرجه بعيداً عنهم، فى هدأة من الليل موحدة، فتركتهم

والشمس شاحبة فى حاشية الأفق، وكل شئ ساكن خاشع ينتظر الليل. قبلت يد السيدة لدى منصرفى، فألقت إلىَّ ابتسامة بعيدة الغور جعلت الحزن يسيل من كل ناحية من نواحى نفسى.

..أيتها الابتسامة الأليمة! كم بعثت سروراً وشرحت صدوراً، وكم كنت أُنساً للقلوب ونوراً.

ويا أيتها العليلة العزيزة، شفى الله من أجلك كل عليل!»

يارب.. يا منجِّى

ويذكر "مصطفى عبد الرازق" أن ضاحية "إكس ليبان" من الضواحى العزيزة على نفسه ويحمل لها ذكريات لا تُنسى.. فقد كان يعشق أن يمضى فيها أجازته كل عام، وينزل بفندق "ألبيون" الذى يطل على المدينة من ربوة متلألئاً بأنواره وزواره.. ويتنزه حول بحيرة "إنى" ويركب الأوتوكار الحلزونى.. ويسجل فى مذكراته أن الشكوى فى هذه المدينة عامة من السواقين على اختلاف أنواعهم، لأنهم من أشد الطبقات جفوة وتمرداً وقلة مبالاة ولا يهمهم إن كانوا يسوقون الناس إلى هلاك أو إلى سلامة.. ولذلك فإن حوادث القطارات كحوادث السيارات شنيعة ومُتكررة.. فكل يوم تفيض دماء وأرواح.. ويتحدث عن السائق الذى داس كلباً فتركه جثة هامدة ومرَّ كالبرق، بينما يقف صاحبه الفلاح بحصانه إلى جانب الأشلاء الممزقة جامداً، لا يستطيع تكلماً ولا حراكاً.. وتصايحت السيدات جزعاً، فكأن صياحهن تعزية يحملها النسيم إلى ذلك المحزون الواقف هناك محتاجاً إلى عزاء..

ثم يذكر أن القَدَرَ وحده هو الذى أنقذه مع باقى الركاب من حادث

مُحقق. يقول: «ظلت السيارة تنحدر انحدار السيل حتى شعرنا بها تترنح وتميل، والمارة تهتف بالسواق والركاب يردون الهتاف ليستوقفوه.. فوقف ونزل. وعندئذ سقطت عجلة كان مساكها قد تطاير. لم يصب أحد بأذى، لكننا بعيدون عن المدن، وإصلاح السيارة يحتاج إلى أدوات لا توجد إلا في المدينة. فلنذهب إلى "إكس ليبان" مُشاة!».

ثم تعود قفشاته الذكية إليه، عندما يذكر أن السيدات ظللن يبحثن عن الشخص الذي سبب لهذه الرحلة سوء الطالع.. ويتفحصن وجوه الرجال متضاحكات؛ لعل بينهم قسيساً..

يقول مصطفى عبدالرازق: هنا تذكرت قول الشاعر الأزهري:

الشيخ والقسيس قسيسان   وإن تشأ فقل هما شيخان

وبعد أن تأكد أن العيون تبحث عنه؛ لتحمّله هذا الشؤم الذي لازم الرحلة وتسبب في موت الكلب، وسقوط عجلة السيارة، شعر بأن عرقه يتصبب، فشرع يلوى وجهه ويحرف ملامحه؛ ليُقاوم نظرات السيدات اللاعبة، مخافة أن يصبح لعبها جداً..

ولا ينس أن يذكر لنا أنه التقى في مدينة "إكس ليبان" بشابين مصريين من أبناء النوبة يعملان في أحد المطاعم الكبيرة. يقول: «أعجبني أن يوجد من أبنائنا من يدفعه الطموح إلى الكسب للهجرة والمزاحمة في ميدان هو من أشد ميادين الحياة تزاحماً، ورأيت الشابين يُسابقان زملاءهما من أهل البلاد والنازحين إليها في الانتباه والنشاط والنظافة والنظام.

أخبرني أحدهما أن في مدينة "نيس" رجلاً من البرابرة أصبح غنياً وله مطعم كبير يتوارد عليه من يريد التفكه بالطعام الشرقي والقهوة

المصرية، وقال إن في مرسيليا قريباً له صاحب قهوة هناك. سرني أن يظهر المصري عاملاً نشيطاً يلتمس الغنى في أرجاء العالم بجده وسعيه، فإن بلادنا مُحتاجة أيضاً إلى أن يَجِدَّ أبناؤها في طلب الغنى، وكم في هذا العنصر العامل الذكي. عنصر البرابرة، من فضائل جديرة بأن تكون أسوة لسائر المصريين.

.. وفي إطار جولاته في الضواحي والمدن الفرنسية الأخرى القريبة من ليون زار "مصطفى عبد الرازق" مدينة "ليون"؛ ليشاهد أحد معارضها الشهيرة، ويُعرف بمعرض الفحم الأبيض. ثم يروى أنه أوى إلى أحد المطاعم بعد أن عضّ الجوع أمعاءه، وتناول في نهم طعاماً فرنسياً لذيذاً، ثم استمتع بمشهد راقص شارك فيه الجميع إلا رجلاً ظل ساكتاً كأنما يرزح تحت عبء ثقيل، وإن كانت كل حواسه وأعصابه توشك أن ترقص مع الراقصين، إلا أنه يكظم ذلك، ويخفيه ويلقى في ذلك عنتاً شديداً.. وعندما سأله "مصطفى عبد الرازق" قائلاً:

يا صاحبي، هوّن عليك. ما لك لا ترقص وتلهو، وقد علمت أن لا جدّ لمن لا يلهو.

فأجابه قائلاً: يمنعني من ذلك أمران:

شعرات بيض يَصِحْنَ في ناصيتي، فهن ينكِّرنني بقول "الشريف الرضي":

تخطى المشيب إلى رأسه وقد كان أعلى قباب الشباب

ثم إن لي طفلة أخاف إذا كبرت أن تدرى أن أباها رقص!

(٣)

.. ما كتبه الشيخ "مصطفى عبد الرازق" عن باريس يكاد يحفظه كل من أتيح له أن يزور العاصمة الفرنسية؛ لأنه لا يخلو من صدق، وطرافة.. ناهيك عن أنه يقترب من صيغة الأحكام اليقينية التى تجعلنا نطلق على الشيخ "مصطفى عبد الرازق" فى هدوء واطمئنان- لقب عاشق باريس عن جدارة واستحقاق. فقد حدثنى أستاذنا الدكتور "عبد الرحمن بدوى" أطال الله فى عمره - الذى يعيش فى باريس منذ سنوات، عن أشطار من حياة الشيخ "مصطفى عبد الرازق" فى هذه المدينة الساحرة، بل وقرأ له من الذاكرة بعضاً من النصوص التى كتبها الشيخ ونشرها فى جريدة «السياسة» فى أغسطس عام ١٩٢٤.

والثابت أن الشيخ "مصطفى عبد الرازق" لم يكن باريسياً مُقيماً بصفة دائمة فى العاصمة الفرنسية، وإنما كان يتردد عليها كثيراً، ويمضى فيها بعض الوقت، فدراسته الأولى كانت فى جامعة "ليون".. وعندما قُدِّر له أن يعود إليها مرة أخرى لم تكن إقامته الدائمة فى باريس بسبب ارتباطه بالعمل كأستاذ محاضر- على نحو ما ذكر لى

الدكتور عبد الرحمن بدوى- نفسه فى معهد الدراسات الإسلامية الذى كان قد أنشئ بجامعة "ليون"، وفى هذه الأثناء شارك فى إصدار «رسالة التوحيد» للأستاذ الإمام "محمد عبده" باللغة الفرنسية..

لكن باريس ظلت تحتل مكانتها الرفيعة فى «نفس» و «وجدان» الشيخ "مصطفى" لا تبرحها لحظة واحدة.. فقد كان يراها أشبه بـ «الوجود الحى الذى تنبعث الحياة من أرضه وسمائه، وصبحه ومسائه، ورجاله ونسائه»، ويراها أيضاً «عظيمة بكل ما تحتمل هذه الصفة من معانى الحياة والإجلال، والجمال والذوق، والفكر والانسجام والخلود».

وفى مذكراته، يكتب قائلاً: «ليست باريس صنع شعب من الشعوب، ولا عمل عصر من العصور، ولكنها جماع ما استصفاه الدهر من نفائس المدنيات البائدة، وما تمخض عنه ذوق البشر وعقلهم وعملهم من آيات الفن والعلم والجمال. باريس جنة فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين، فيها للأرواح غذاء، وللأبدان غذاء، وفيها لكل داء فى الحياة دواء. فيها كل ما ينزع إليه ابن آدم من جد ولهو، ونشوة وصحو، ولذة وطرب، وعلم وأدب، وحرية فى دائرة النظام لا تحدها حدود، ولا يقيدها قيود».

ثم يصل الشيخ "مصطفى عبد الرازق" فى عشقه وافتتانه بباريس إلى أقصى مدى فيراها: «عاصمة الدنيا، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس!»

ويقول فى صيغة سؤال تقريرى: «وهل غير باريس للحور والولدان، والجنات والنيران، والصراط والميزان، والفجار والصالحين، والملائكة

والشياطين؟!».

وكان طبيعياً أن يقع الشيخ "مصطفى" فى عشق الحى اللاتينى الذى كان وما زال مقصداً للطلبة والوافدين من بلاد الدنيا للدراسة فى جامعة "السوربون"، أو الكوليج دى فرانس، ويتميز بصفات فى منشآته، وأنماط معيشته لا تكاد توجد فى أماكن باريسية أخرى.. وقد زار الشيخ هذا الحى أكثر من مرة، وسجل فى إحداها انطباعاته، فكتب يقول: «زرت الحى اللاتينى، مجمع الكوليج دى فرانس، والسوربون والبانتيون (مقبرة العظماء) فإذا طلاب وطالبات برغم العطلة يغدون ويروحون تفيض محافظهم بالكتب والأوراق، كما تفيض وجوههم الفتية بالنشاط والبِشْر. وأكثر الطلاب الأجانب جداً وعملاً وانتفاعاً بالمقام فى أوروبا هم اليابانيون، ـ فيما سمعت ـ وأكثرهم رفهاً وانصرافاً إلى اللعب، وتضييعاً للدرس هم الرومانيون. أما المصريون فليسوا من خير الطلاب ولا من شرهم، إلا أنهم ممتازون بالتأنق والرشاقة وحسن البزة».

ثم يسترسل واصفاً حال الطلبة المصريين، فيقول: «لا يبدو على محياهم أثر للشحوب فيقول قائل: إنهم يرفقون بأنفسهم فى الدرس رفقاً يحفظ عليهم بهجة الراحة، ويقول آخر: إن سُمْرة أديمهم تخدع الناظر عن سمات الجد والنصب، وآثار السهر الطويل فى المذاكرة والتحصيل، وكذلك شأن طلابنا فى مصر نفسها، وكلا التأويلين محتمل فى المجتمع، وإذا ذكر الطلاب المصريون، وجب إعلان الإعجاب بشبان تتزين بهم مجاميع التلاميذ المصريين فى بلاد أوروبا المختلفة ونسمع

ذكرهم ثناءً مستطاباً، وهم على قلتهم رجاء النيل والأهرام، وعزاء مصر اليوم وذخرها لمستقبل الأيام. ولا يسع السائح المصري إلا أن يُسر سروراً عظيماً بإقدام فتيان من خريجي الأزهر ومدرسة القضاء ودار العلوم، على السفر إلى أوروبا شوقاً إلى الكمال العلمي من غير سابق تأهب للحياة والدراسة في تلك البلاد، ومن غير بسطة في الرزق ولا مدد. تجد منهم في باريس وليون وجرينوبل - وقد يكون منهم في غير هذه المدائن، وفي غير فرنسا - أولئك الشيوخ المجاهدون في سبيل العلم يستحقون عطفاً وتشجيعاً».

هذه البحيرة من دموع العاشقين..!

.. ويُجْمِع مؤرخو حياة الشيخ "مصطفى عبد الرازق" على أن المكان الأثير لدى نفسه وعقله ووجدانه هو حديقة لكسمبورج، التي كان يحرص في كل مرة يزور باريس على أن يمضي في ربوعها بعض الوقت، أو يخصص لها برنامجاً أسبوعياً ضمن برامجه إذا طالت إقامته في «عاصمة الدنيا» كما كان يسميها..

وفي مذكراته الباريسية يُسجل الشيخ "مصطفى عبد الرازق" تصويراً دقيقاً لمشاهداته داخل هذه الحديقة، فكتب يقول: «ختمت زيارة الحي اللاتيني بحديقة لكسمبورج، وهي روضة ذلك الحي، فيها جلاله وعليها طابعه. الأشجار العتيقة باسقة، قد أسودت جذوعها، واخضرّت أعاليها خضرة مشوبة باصفرار، وشقّت بين صفوفها مسالك تظللها الأغصان المتشابكة كأنك بينها في سحر يتنفس صباحه في أعقاب ليل، وكأنك في تجلي الأسحار وفي هدأتها، وترى التماثيل البديعة في

شعرها الصامت مُنسجمة فى ذلك الأطار البديع، وبين حنايا هذه الظلال تجد فناناً عاكفاً على تصويره، ومفكراً مُستغرقاً فى تفكيره، وشاعراً يستنزل الوحى من سماء الشعر، وعاشقاً يبث غرامه، وغازلاً يستمتع بالغزل، ثم تخرج إلى ساحة تبسم الأنوار فيها والزهر، وتنحدر على درج إلى البركة ذات النافورة، مرتع الأطفال اللاعبين بمراكبهم الصغيرة فى أمواهها، ومن حولها دكك مُفرقة لمن ليسوا أطفالاً».

ثم يصف الشيخ "مصطفى عبد الرازق" وصفاً نفسياً بليغاً الفتيات اللاتى كن يجلسن بجوار «البركة ذات النافورة».. وهو وصف جميل وشائق إلى حد أن معظم زوار الحديقة من المصريين لا يكفون عن ترديده من قبيل التفكه، واستحضاراً لذكرى هذا الشيخ المصرى الذى تفصلنا عن حياته الباريسية التى نتحدث عنها اليوم عشرات السنين..

الوصف يقول: «لمحت فى بعض النواحى فتاة بيدها خطاب تقرؤه فيشرق وجهها بالسرور وتبتسم، وتلقاها فتاة تكتب فى صحيفة، وتتلو ما تكتبه فتنحدر عبراتها، وكم يأوى إلى تلك البركة من باك ومبتسم! ليس ماء، ذلك الذى يجرى فى بركة لكسمبورج، ولكنه ذوب ابتسامات ودموع! رويدكم أيها الأطفال العابثون بذلك الماء!

وقد لا يعرف الكثيرون أن الشيخ "مصطفى عبد الرازق" قد استقبل فى باريس مرتين شقيقه "على عبد الرازق" الذى كان يدرس فى ذلك الوقت فى جامعة أكسفورد فى لندن.. وأمضى معه أوقاتاً طيبة فى بعض المدن الفرنسية من بينها معشوقته "باريس".. ثم ردّ هاتين الزيارتين بزيارة قام بها إلى لندن.. لكن ويا للغرابة لم تحرك باريس فى

نفس "على عبد الرازق" شيئاً مما كانت حركته بقوة فى «نفس وروح» شقيقه "مصطفى".. فقد ظل على طبعه الهادئ فى العشق، ويرى أن باريس جميلة، لكن ليس إلى الحد الذى يجعله يقع أسيراً فى حبها.

يا أخى.. أنا مريض

ولعل أطول زيارة قام بها لباريس كانت الزيارة الثانية، ولعلها الأخيرة، فى فبراير عام ١٩١٤ عقب تسلمه رسالة من شقيقه "مصطفى" يقول فيها إنه يشكو سعالاً يعتاده، وأنه ذهب إلى ضواحى "ليون"؛ ليسأل طبيباً اختصاصياً فى أمراض الصدر، وقد رأى أن عنده حالة غير عادية فى الرئة قد تكون بداية مرض صدرى، ولكن هذه الحالة من البساطة وقلة الشأن بحيث يحتاج الحكم فيها إلى تدبير ورأى من الحكمة. وإن لم يكن ضرورياً أن يذهب إلى المستشفى، فعلى الأقل يكون بين يدى مراقبة الطبيب وملاحظته نحو شهر.

ويذكر الشيخ "على عبد الرازق" أنه قد انزعج لمرض أخيه، وقرر أن يُنهى بعض دروسه على عجل، ثم يذهب للاطمئنان عليه، ومتابعة حالته عن كثب. لكن بعد ثلاثة أيام وصلته برقية من مصر تطلب منه أن يزور أخاه ويلزمه الرجوع إلى مصر.. فأرجأ "على عبد الرازق" دروسه وحزم حقيبته وغادر أكسفورد مساء يوم ٢٦ فبراير سنه ١٩١٤ مُتجهاً إلى باريس، ثم إلى المستشفى.. ونتركه يصف لقاءه بأخيه، فيقول: «وصلت إلى المستشفى ظهر يوم الأحد ٢٩ فبراير بعد رحلة طويلة لم تخل من مشقة، وكنت أظن أن ما سأراه فى "مصطفى" من تحول وضعف

سيفجعني، فإذا به في صحة ظاهرها أحسن من المعتاد، وإذا العائد أقل في مظاهر الصحة من المعهود؛ لذلك لم ألبث - إذ نظرت وجه "مصطفى" - أن تبدّل خوفي كله إلى طمأنينة كاملة، وتبددت غياهب الجزع بما أشرق في جوانب قلبي كله من السرور والبِشْر، ولكأنني قد أسرف بي الفرح حتى لم يدَعْ لي منفذاً إلى الخوف، وقد كان - ولا يزال - ثمة له موضع، فإن الطبيب يرى أن أخي "مصطفى" مُصاب بمبادئ السُل، وأنه لابد له من العلاج زمناً غير قصير».

ويبدو أن الشيخ "على عبد الرازق" قد أقنع أخاه بعرض نفسه على طبيبين من مشاهير أطباء مدينة "ليون"؛ ليستأنس برأيهما، فلما قابلهما اتفق كلاهما على أن عنده حالة بسيطة من حالات السُل وأن من الخير له أن يعود إلى مستشفى الضواحي التي كان فيها لمواصلة العلاج.

ويقول "على عبد الرازق": «كنت أيامئذ قد أدركتني مُسامحة جامعة أكسفورد لعيد شم النسيم، فقضيت أكثرها ما بين "ليون" و "جنيف"، حيث أستطيع أن أزوره من غير مشقة لقرب المستشفى من البلدين». لكننا في ذات الوقت - لم نعثر للشيخ "على عبد الرازق" على وصف يتعلق بأماكن باريسية أو فرنسية إلا هذا الوصف الذي خصَّ به مستشفى ضواحي "ليون".. ويقول فيه: «يقوم بناء المستشفى في قاصية من العمار تقطع العربة طريقها إليه من أقرب محطات سكة الحديد في ساعتين أو أكثر بين نجاد ووهاد، وتضيق الطريق أحياناً في منحدر من الجبال، يكاد الناظر إلى عمقه يغشى عليه من الخوف، وربما اتسعت الطريق واستقامت، وربما مررت هنا وهناك بربوة فسيحة فيها

بعض مساكن لأهل هذه البقاع، وقد تلقى فيها محلاً تستطيع أن تتناول فيه ما يصلح زاداً للمسافر. فإذا انتهيت مصعداً إلى المستشفى وجدت ربوة من الأرض تشرف عليها من كل جانب غابات متفرقة من أشجار ذات ألوان الجبل ونباته، وقد تراها يوماً مكسوّة بالثلج الأبيض المتجمد، فإذا أشرقت عليه الشمس أخذ يذوب فتنحسر تلك الغلالة البيضاء رويداً، رويداً عن وجه الأرض طيِّباً مُشرقاً، المستشفى بناء متوسط الضخامة، ونظيف كامل النظافة، ومرافقه صحية، وأسباب الراحة فيه موفورة، ونزلاؤه وموظفوه متقاربون، يتبادلون بينهم مودة وتحية وسلاماً».

ولا شك أن هذا الوصف يخلو من أى خصوصية لباريس أو فرنسا عامة على نحو ما نقرأ عند "مصطفى عبد الرازق" المفتون حتى الثُمالة بباريس أرضاً وسماءً، حتى نكاد نتصور أن وصف "على عبد الرازق" ينطبق على مستشفى ما فى أى بلد أوروبى..

وصف لُندُره

والغريب أن هذا البرود أو إن شئت فقل حالة عدم الاكتراث أو الافتتان التى عرفناها فى الشيخ "على عبد الرازق" تجاه باريس لازمت - إلا قليلاً - الشيخ "مصطفى" تجاه مدينة "لندن" التى كان يقيم فيها شقيقه "على"، ويدرس فى جامعتها الشهيرة أكسفورد.. وكأنهما قد تبادلا الأدوار، فالأول عاشق للندن ولا مجال عنده لعشق باريس. أما الثانى فقد ملكت باريس عليه مجامع القلب، ولم تترك له إلا مساحة صغيرة وباهتة يسجل فيها إعجابه العادى جداً بلندن وبالإنجليز.. ففى

وصفه لزيارته الأولى للندن التى يكتبها «لندره» على طريقة أبناء هذا الجيل من الرواد يقول:

« لم أكن قد رأيت "لندره" ولا شهدت حياة الشعب الإنجليزى، وكانت قد بقيت فى ذهنى صورة للجنود الأستراليين يسيرون سكارى فى شوارع القاهرة، فحسبت "لندره" تفيض بصرعى الباسو والويسكى، وأنا أفزع من السكارى ويزعجنى مرآهم، ولعل ذلك من الأسباب التى كانت تثبطنى عن زيارة البلاد الإنجليزية منذ زمان، وأشهد ما رأيت فى مدة مقامى بلندره من تأخذ الخمر بلبه ويمشى بين الناس، اللهم إلا مرة واحدة كنت راجعاً من معرض "ومبلى"، فركب معنا رجل من العمال، كهل، طويل، نحيل، رث الملابس يدل على السُكر تقلب نظراته وتخاذل حركاته، لكنه جلس صامتاً حتى نزل، وقد يكون أثر البؤس فى اختلال ميزانه أكبر من أثر الشراب.. ليس الشعب الإنجليزى من أقل الشعوب ولعاً بالشراب لكنه من أقلها سُكراً. أما نحن فى مصر فقد نكون من أقل الأمم شرباً للخمر، ولكننا من أكثر الناس سُكراً!!

ثم يصف حديقة «هايد بارك» الشهيرة، فيقول: «أما "هايد بارك" فإنك لا تجد بين زوار العاصمة الإنجليزية من تفوته زيارة "هايد بارك"، مُنتزه "لندره" العظيم، وجنتها مترامية الأطراف فسيحة الأكناف.

"هايد بارك" رئة "لندره" - كما يدعونهـا فى رحابها مجال الهواء الطلق يتنسمه أولئك المسجونون فى المصانع والحوانيت وبين الأبنية الشامخة، وفى رحابها أيضا متنفس لجانب اللهو والتبسط المنظوم فى إنجلترا لتقاليد الاحتشام والنظام واللياقة.

"هايد بارك" حديقة ذات سياج حديدي تشقها فجاج ومناهج وميادين وفيها رياض وغياض، وفيها بحيرة ظريفة لمن شاء النزهة فى الزوارق على عذارى طرقها مقاعد منثورة، وفوق مروجها كَرَاسٍ مصفوفة وفى كل ناحية تتبعها جموع، منهم من يمشى متريضاً، ومن يجلس متفرجاً يطيب له الرقاد فوق تلك النمارق الخضراء فيرقد موحداً، أو مثنّى من غير أن يضايق أحداً أو يضايقه أحد.

وإنك لتلقى النظر على تلك الرياض الأنيقة فينتقل بك بين زهرة يانعة وشجرة باسقة، وخلّان نيام كأن الأرض تنبت فتيات وفتياناً، كما تنبت وروداً وريحاناً».

وبعد أن يقرر الشيخ "مصطفى عبد الرازق" بأن حديقة «هايد بارك» يتجسد فيها أعظم مظهر من مظاهر حياة الشعوب الراقية وأكبر آية من آيات الفهم للحرية واحترامها، يصف لنا الجو الفكرى الحر المعروف عن هذه الحديقة فيقول: «تدخل هايد بارك عصر يوم الأحد فتجد منابر قد صُف من حولها الناس، هناك محاضرات فى تدبير الصحة، ومحاضرات فى نظريات الأطباء فى علاج الأمراض، وهنا خطب فى بث المذاهب الاشتراكية وخطب فى الصد عنها ثم هندى يبين معايب السياسة الإنجليزية فى الهند. وتجد منابر لدعاة الأديان. هذا يهودى يدعو إلى دين "موسى" وذاك كاثوليكى يشرح فضائل الكاثوليكية. وذاك بروتستانتى يؤيد دين "عيسى" على ما ذهب إليه "لوثر" و "كالفان"، والجماهير تغدو وتروح بين هذه المناهل فى سماحة لا يشعر بها ضيق العطن. حتى لتمثلنا جواً مع "بغداد" وهى زاخرة بدروس الدين والعلم

والأدب في حرية لا تحدها حدود، ولا يقف في سبيلها تعصب».

ثم يختم الشيخ "مصطفى عبد الرازق" حديثه بملاحظة يقول فيها: لما رأيت للأديان دعاة في "هايد بارك" ماعدا دين محمد بن عبد الله، ثارت في نفسي غيرة وحميّة، فكدت أصدع بالدعوة إلى الهدى ودين الحق ثم نبهني ناصح شفيق إلى أنه ليس من اللائق أن تكون هيئة كبار العلماء منصرفة إلى تكفير المسلمين في مصر، ويخرج لها في "لندره" من يدعو الكفار إلى الإسلام!!».

والشيخ "مصطفى" هنا، يتذكر في ألم موقف هيئة كبار العلماء منه عندما أجبروه على الاستقالة من مدرسة القضاء الشرعي بدعوى مشاركته في حركة الإصلاح الأزهري.. أو لعله يتذكر موقف هذه الهيئة - قبلاً - من أستاذه الإمام "محمد عبده" الذي كان، ولا يزال حتى هذه اللحظة، يعتقد أنه مات حزناً وكمداً بسبب تنكرها له ومحاربتها إياه. ولذلك أنهي - وصفه - أو إن شئت فقل أنهي خواطره حول حديقة «هايد بارك» في لندن بمحادثة قصيرة بينه وبين من أسماه بالناصح الشفيق، الذي قال له تعليقاً على رغبته في أن يدعو لدين محمد في «هايد بارك»:

«ربما يا شيخ "مصطفى" كان ذلك منافياً لوصف العالمية فتحقق به كلمة المادة ١٠١». •

ولعله هناك يريد أن يسخر من الشروط التي وضعتها "هيئة كبار العلماء" في شكل مواد أو قواعد ملزمة لكل من يتقدم لنيل درجة العالمية في الأزهر.

فرد عليه الشيخ "مصطفى" في نبرة لا تخلو من حزن ولوعة، وقال:

«جزاك الله خيراً أيها الناصح أنْ ذكرتني وكنت قد نسيت:

ولو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقتُ، ولكن الرماح أجرت.

بعد أن انتهت مدة الشيخ "مصطفى عبد الرازق" فى باريس، عاد على ظهر إحدى البواخر المُتجهة إلى مصر، ووقف بعيون دامعة يودع فرنسا التى جعلت تتراجع أمامه جميلة خلابة.. ويتجه بقلبه إلى مصر الغالية.. لكنه وقبل أن يهبط إلى ميناء "بورسعيد" دخل حجرته وخلع ملابسه الإفرنجية، وتزّيا بزى الشيوخ، وأحكم العمة فوق رأسه، وما إن خرج من حجرته حتى أنكره من كانوا أمضوا معه الليالى الخمس، وهى مدة رحلة العودة.

وها هو يختم هذه الذكريات بقوله: فى الصباح أنكر رفاقى فى الرحلة من عرفوا فى المساء واستوحش الشباب الجديد من مظاهر الشيوخة والقدم، وشعرت أنا نفسى كأننى خرجت من جيل إلى جيل..

وكانت معارك تجديدية وإصلاحية كثيرة تنتظر هذا الشيخ المُعمم العائد من باريس.

طلعت حرب

«باريس العِلْم هى باريس السوربون SORBONNI والسوربون من أقدم الجامعات فى الغرب، منزلته من منزلة الأزهر فى الشرق من حيث القدم. والسوربون، كما تعلمون تُطلق على كلية الآداب وكلية العلوم، وقد تُطلق أيضاً على معهدين ملاصقين لهما روحاً وجسداً هما: كوليدج دى فرانس ومدرسة الوثائق القديمة. وهذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من جامعة باريس، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها يمتد النور إلى كلية الحقوق، ومن علومها الوصفية الطبيعية والكيميائية وتاريخها الطبيعى يمتد ضياء آخر إلى كلية الطب، ومنها جميعاً يُشرق نور الجامعة الكبرى إلى بقية الجامعات فى الأقاليم، وينعكس على قباب الأكاديميات الشهيرة فى سرابها فوق نهر السين».

(١)

يبدو لى أن الاقتصادى المصرى الكبير "طلعت حرب" كان يجيد التحدث باللغة الفرنسية على الرغم من أن إقامته فى باريس لم تكن طويلة كحال نفر من أبناء جيله الذين اختاروا باريس مكاناً للدراسة، أو للنزهات الطويلة.. وأن المسألة بالنسبة له لم تكن تتعدى مجموعة من "زيارات العمل"، التى كان قام بها فى ذلك الوقت. ومما يؤكد هذا الظن أننى قرأت أن عين «طلعت حرب» وقعت ذات مرة - بينما كان يتصفح إحدى الجرائد الفرنسية - على اسم أحد كبار موظفيه فى بنك مصر ضمن كشوف سباق الخيل فى باريس، فما كان من الاقتصادى الكبير إلا أن أرسل على الفور برقية شديدة اللهجة - وكان موجوداً فى ذلك الوقت هناك - إلى هذا الموظف يقول فيها:

«بيعوا جيادكم أو استقيلوا».

ويُروى أن هذا الموظف الكبير قد أذعن فى الحال لطلب "طلعت حرب"، ولم يعد لسباقات الخيل مطلقاً!

والحق، أن أحداً لا يعرف على وجه الدقة المدة التى أمضاها "طلعت

حرب" فى باريس عبر هذه الزيارات المتكررة، لكن الثابت أنه كان شديد الولع بها، عارفاً قدر باريس فى الاقتصاد والثقافة والفنون، محيطاً بجزء من تاريخها فها هو - على سبيل المثال - عندما وجد نفسه فى مواجهة انتقادات من قبل الرافضين لفكرة إنشاء «بنك مصر» يستشهد بأحداث فرنسية تحفظها ذاكرته عن ظهر قلب.. فيقول بهدوء وأدب: «لقد قيل لنابليون حينما وضع نظام بنك فرنسا المالى أنه ليس بفرنسا رجال ماليون خبيرون بأعمال البنوك، فقال لهم إن هذه الطائفة يجب خلقها، وقد خُلقت، وأصبحت فرنسا بعد قرن يُضرب بها المثل بخبرة رجالها الماليين وعلمهم، فلماذا لا يصدُق على مصر ما صدق على غيرها».

وبهذا الرد الذى لا يخلو من منطق اقتصادى وتاريخى مُتكامل، أفحم معارضيه الذين كانوا يزعمون أن الأمة المصرية غير مستعدة للأعمال الاقتصادية، وأن المصرى لا يصلح إلا لشىء واحد هو الاستدانة، ويسخرون من حصيلة المبلغ الذى تم الاكتتاب به ـ وهو ثمانون ألف جنيه ـ ويقولون إن أرباحها لا تكفى لدفع أجرة «المحل» ورواتب بعض الموظفين!!

.. ولأن الصورة التى كانت شائعة عن باريس فى بلادنا ـ ولاتزال إلى حد ما ـ هى أنها مدينة اللهو والعبث والمجون، نجد "طلعت حرب" العاشق لباريس ينبرى للدفاع عنها، مؤكداً أن الأجانب عندما يتصورون أن باريس هى بلد اللهو والخلاعة إنما يخطئون كثيراً فى حق المدينة وفى حق أنفسهم على السواء. لأن من يُمعن النظر فى حياة الباريسيين ـ كما يقول "طلعت حرب" ـ يجدهم من أنشط الناس وأقدرهم على

العمل بمثابرة ونظام.

ويضيف: «انظروا إليهم تجدوهم عاملين غير عاطلين، وتجدوا العاملين منهم يذهبون إلى أعمالهم نشطاء مبكرين وتجدوهم فى مختلف نواحى الإنتاج الصناعى والتجارى يعملون، وقد لا توجد أهالى بلدة فى القارة الأوروبية بعد مدينة لوندرة "لندن" أغنى من أهالى باريس، لا لأن مدينتهم قد تمركزت فيها الشركات المالية والزراعية والصناعية والتجارية فاستجمعت لديها ثمرات الإنتاج فى الداخل وفى الخارج وفى المستعمرات، بل أيضا لأن الإنتاج الداخلى فى مدينة باريس نفسها يدل حقاً على أن الباريسيين قوم جد ونشاط وذكاء فى الابتكار يجعلهم بحق فى مصاف المتمتعين بالرخاء العام الناشىء عن مجهودهم الذاتى».

ويستطرد "طلعت حرب" فى دفاعه عن باريس، فيقول: «ليس أدل على الحيوية والثراء فى هذه الأمة الفرنسية وفى سكان باريس من تقلبات الفرنك عقب الحرب، فإنها وإن كانت سبباً كافياً لإحداث كارثة فى البلاد، لكن الأمة الفرنسية قدرت أن تعيش رغم هذه التقلبات فى سعر عملتها قوية مالياً واقتصادياً. نعم إنها تشعر بضغط الأزمة بين حين وآخر لكنها لا تلبث أن تلتوى على نفسها عاجلاً وتطارد هجمات الأزمة مطاردة عنيفة توقفها بها عند حدود. وهى فى صراعها عند نزول سعر الفرنك تقع يوماً من الأيام كارثة من كوارث العملة التى يهد لها كيان الحياة الاقتصادية أو يجمد قلبها وتختل أعصابها، كما حدث فى بعض البلاد الأخرى.

عقل باريس

وهذه القوة الحيوية الاقتصادية والمالية الكامنة هى التى جعلت فرنسا، فى رأى "طلعت حرب" تحافظ على مركزها التجارى فى العالم بصفة باهرة وكأنى به يبحث عن أسانيد علمية أخرى، ليؤكد بها رأيه فى محبة الباريسيين للعمل وإقبالهم عليه، فيهرع إلى تأمل «عقل باريس».. ثم يسهب فى حديثه عنهما فيقول: «باريس العِلْم هى باريس السوربون SORBONNE والسوربون من أقدم الجامعات فى الغرب، منزلته من منزلة الأزهر فى الشرق من حيث القدم. والسوربون، كما تعلمون تُطلق على كلية الآداب وكلية العلوم، وقد تُطلق أيضاً على معهدين ملاصقين لهما روحاً وجسداً هما: كوليدج دى فرانس ومدرسة الوثائق القديمة، وهذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من جامعة باريس، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها يمتد النور إلى كلية الحقوق، ومن علومها الوصفية الطبيعية والكيميائية وتاريخها الطبيعى يمتد ضياء آخر إلى كلية الطب، ومنها جميعاً يُشرق نور الجامعة الكبرى إلى بقية الجامعات فى الأقاليم، وينعكس على قباب الأكاديميات الشهيرة فى سرايها فوق نهر السين، وباريس من حيث كونها وسطاً علمياً من أمتن الأوساط العلمية وأقدرها على تكوين الملكات العلمية وعلى تعوّد الإفصاح عن الفكر بترتيب ووضح، وهى خاصة من خواص اللغة الفرنسية بالذات».

ثم يُعرِّج الاقتصادى الكبير "طلعت حرب" فى حديثه عن باريس على الطلبة المصريين الذين نهلوا من علوم السوربون، فيذكر بعضهم بادياً

تفهمه للصعوبات التى يواجهها الطلاب الأجانب، دون أن ينسى أن يجزل لهم النصائح... يقول: «لقد كان لهذه الجامعة فضل عظيم فى تكوين فئتين من المصريين منذ بعثات "محمد على" العلمية التى أخرجت "على مبارك"، والفلكى "محمود إسماعيل" و"بهجت" و"محمد على الحكيم" وغيرهم من الأدباء والمهندسين والأطباء وبعثات الجامعة المصرية والحكومية أخيراً، والطلبة الحاليون فى هذه المدينة "باريس" والطلبة المصريون الذين من المحتمل أن يقصدوا إليها فى المستقبل جديرون أن يقتفوا آثار سلفهم من متخرجى جامعة باريس، وجدير بهم أن يستقلوا العلم من مناهله الحقة وأن ينتفعوا بالفرصة السعيدة التى أتاحت لهم تلقى العلوم على جماعة من أكبر أساتذة العالم، وأن يعودوا إلى بلادهم علماء حقاً، قادرين على خدمتها بأيديهم فى طريق النجاح والفلاح».

ثم يضيف: «نعم، أن يكون الشاق على الطالب الأجنبى فى هذه المدينة المانحة المملوءة بدواعى اللهو والمسرات أن يضغط على شبابه، ويقاوم فى هذا الوسط الجذاب - أسباب الخداعة المحيطة به، وإنى لا أستطيع أن أقسو على الشباب فأتجاهل طبيعته أو أنكر حقه فى اللهو وانشراح النفس والحبور، ولكن هناك لَهْواً كما يقول أهل هذه البلاد، ولهواً. هناك لهو مصحُوب باحترام النفس والقدرة على ضبطها والحذر من ابتذال الكرامة، والحرص من الوقوع فى أى سبب من أسباب المكاره الأدبية أو الخلقية أو الصحية. وهناك لهو آخر ينحدر به الإنسانُ إلى بخس النفس قدرها بالضعف عن كبح جماحها وإلى تضييع

الكرامة والتخبط فى ظلمات كل مكروه. وبين هذا اللهو وذاك فرق شاسع على أن للّهو البرىء ساعة وللجد فى تحصيل العلوم ساعات، والعاقل هو من يعرف كيف يعتدل فى حياته، فلا تفريط فى الجد ولا إفراط فى اللهو.

(٢)

يُروى أن "طلعت حرب" كان يكره الخمور كراهية شديدة، ولا يكاد يحتمل رائحتها النفاذة، ولذلك كان يمنع تماماً تقديمها فى الحفلات التى كان يقيمها سواء داخل مصر أو خارجها، وسواء حضرها مصريون أو أجانب... لكن فى إحدى المرات، نجح بعض أصدقائه فى إقناعه بتقديمها فى حفلة أقامها فى باريس بمناسبة افتتاح المعرض الدولى، ويُقال إنه وافق بشرط ألا توضع على المائدة، وإنما تكون فى حوزة الخادم أو «الجارسون» الذى يصبها فى الكئوس لكل من يرغب، وتقول الرواية إن أحد ظرفاء هذا العصر وهو الدكتور "محجوب ثابت" المشهور بإسرافه فى نطق حرف القاف، مُضخّمة، رنانة، كان موجوداً فى هذا الحفل، ثم عبّ من الخمور عباً أفقده صوابه، فكان أن اعتلى الكرسى وسط الحاضرين وشرع يخطب فى الناس من حوله، ويعدد بلغة فرنسية رصينة محاسن "طلعت حرب" ومآثره.

وعندما جاء "طلعت حرب" ليحتفى بضيوفه، فوجئ برجل سكران ــ طينة ــ كما يقولون ينام أمام مدخل بنك مصر ــ فرنسا ــ فاقترب منه

ليكتشف أنه "محجوب ثابت" الذى كان يدرس الطب فى باريس فى ذلك الوقت.. ويُقال إن "طلعت حرب" لم يغفر هذه (الواقعة ــ الفضيحة) لمن نصحوه بتقديم الخمور فى الحفل، خصوصاً عندما علم أن المدعوين الفرنسيين ظنوا أن "طلعت حرب" هو الذى أوعز لمحجوب ثابت بإلقاء هذا السيل المنهمر من المديح فى حقه.

هذه الرواية على الرغم من طرافتها إلا أنها تكشف أن عشق "طلعت حرب" لباريس، كان عشقاً مشروطاً من جانبه، أو فلنقل كان عشقاً «محكوماً» بمنظومة القيم الشرقية أو العربية التى نشأ فيها، ولذلك نجده يُعايش الفرنسيين، ويُقيم لهم الحفلات ــ إذا لزم الأمر ــ لكن على طريقته هو، وليس على طريقتهم؛ لأنه يعتبر أن عاداته وتقاليده هى الأساس، ثم إذا كان هناك ما يكملها أو يضيف إليها بشرط ألا يجور عليها، فلا بأس.

وقد تجلّت هذه الرؤية بوضوح فى حديث خصّ به شباب الدارسين من المصريين فى أوروبا، فضرب لهم مثلاً باليابانيين قائلا: «خذوا اليابانيين.. تروا أنهم اقتبسوا من أمم الغرب أشهر ثمرات العلوم والفنون، غير أن عقليتهم بقيت دائماً يابانية وثقافتهم ثقافة يابانية مشتركة مع الأمم الغربية فى الأصول الثابتة من رأس المال البشرى العقلى العام، ولكنها عقلية مستقلة وثقافة مُستقلة».

ثم يضيف، قائلاً: «إذا وجدت هذه العقلية الممتازة فى أقلية ممتازة هى ذخر للتقدم فى كل عصر وفى كل بلد، فإن ضوءها يمتد كضوء الفنار على سواد المجموع فتصبغ عقلية الأغلبية بصبغتها متخذة

الجامعة وسيلتها، والجامعة سائقة المدارس الأخرى فى إثرها».

ويقترب "طلعت حرب" من نفوس الدارسين المصريين، فيحدثهم حديث «مَنْ خَبُرَ» الحياة، وعانى فى معركتها مُشدِّداً على أهمية تنويع مصادر الثقافة، فيقول: «والشبان المصريون يحمدون على اختيارهم أوروبا لإتمام دراستهم العليا والخاصة بها؛ لما يترتب عليه من نفع يعود على وطنهم. وبيانه هو أن تُعدد الجهات والأمم والدول الأجنبية التى يقصد إليها الطلبة المصريون مرغوباً فيه أكثر من توجيه أبنائنا المصريين إلى جهة أمة أو دولة واحدة. وذلك لأن توحيد الجهة التى يقصدون إليها من شأنه أن يجعل العقلية المصرية المتعلمة فى الخارج تتأثر بطابع الدولة التى تم التعليم فيها.

ويضيف قائلاً: «ولا يخفى ما يترتب على التأثر بطابع التهذيبات فى دولة واحدة من الأثر الذى قد يكون غير محمود فى حياتنا القومية بخلاف تنويع البلدان والدول التى يقصد إليها الطلبة المصريون فإن من شأنه أن يجعل عدة جماعات من المصريين المتعلمين تعليماً عالياً موسومين بسمة التهذيبات المختلفة التى أثرت فى تكوينهم العقلى، فيحدث من احتكاكهم فى العمل بعد عودتهم إلى مصر اتصال فكرى وعقلى يجعلهم يتقربون بعضهم إلى بعض تقرباً يساعد على إيجاد عقلية مصرية ممتازة بذاتها، مستقلة فى مجموعها عن أثر الدولة التى استكمل فيها المصرى علومه العالية».

مصر.. وعقلها

ويُلح "طلعت حرب" على أن هذا التنويع المعرفى هو الطريق الوحيد

المؤدى إلى تكوين عقلية مصرية صرفة... فيذكر أن العقلية المستمدة من تهذيبات الشعوب المختلفة هى العقلية القائمة على المَلَكة العلمية المشتركة بين البلاد، دون أن تكون متأثرة بالبلدة التى تم تكوينها فيها، هذه العقلية التى يجب أن تكون مشتركة فى طرق العلم الثابتة مع أسمى الأمم الغربية، دون أن تُصبغ بمميزات هذه الأمم وخواصها. هذه العقلية التى نريدها فى شبابنا المتعلمين ومتخرجى الجامعات سامية عالية تناطح العقليات الغربية فى سمو إدراكها. هذه العقلية ينبغى أن تتكون بجهود المتعلمين أنفسهم حتى تكون مصرية لا عقلية ألمانية، ولا عقلية إنجليزية، ولا عقلية فرنسية، ولا عقلية أجنبية أخرى.

ثم يسترسل "طلعت حرب" فى شرح تصوره لمواصفات هذه العقلية المصرية الجديدة، فيقول: «هذه العقلية يجب أن تكون مصبوغة بخواص الذكاء المصرى، ومرآة صادقة للحسن من الطبع المصرى، فلا يفيد تعلم ولا تعليم ما لم يكن منطبقاً على طبيعة تكوينه العقلى والخلقى فى زمان ومكان محددين. نريد إذن، عقلية مصرية متشابهة فى سموها مع أسمى الأمم ثقافة، ونريدها عقلية مستقلة، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر عن الخروج من تأثيره فينا، ووليدة حاضرنا، نسعى إلى أن نربطه بماضينا كما نسعى أن نقوده ونسيّره إلى مستقبل حسن. والمستقبل وإن يكون بيد الله إلا أنه إلى درجة ما بيد القوم، ولا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

وهنا يتذكر "طلعت حرب" أنه فى حديثه للشبان الدارسين فى فرنسا، أصبح حاله أشبه بحال الواعظ.. وهو يكره أن يكون واعظاً

لسبب بسيط هو أنه يعلم يقيناً أن وعظه سيكون حتماً بلا طائل، وسيكون صرخة فى واد.. لكنه يشعر بأن وطنيته، أو على حد تعبيره قوميته، تمنعه من أن يصمت أو أن يتقاعس عن الإدلاء بدلوه فى مُعترك الحياة الباريسية، ليكون «فناراً» يهتدى بضوئه من يريد من أبناء مصر المغتربين.. فيذكر أن باريس ملأى بالملاهى... وفيها القهوات والنوادى التى تسر الناظر وتشرح الخاطر، وفيها أمكنة للمداعبة والخلاعة يغشاها بعض المصريين كما يغشاها كثير من الأجانب والفرنسيين.. يقول ناصحاً: «إن كل ما أرجوه أن يدخلها من يدخلها من المواطنين بحذر، وأدعو الله لهم أن يخرجهم منها سالمين».

ثم يعود "طلعت حرب" ليجعل من نفسه «دليلاً سياحياً» فيصطحبنا معه وهو يتجول فى العاصمة الفرنسية، ويشير بإصبعه إلى الكباريهات، قائلاً: «إنها حسب التعبير الشائع فى بلادنا تسمى «غُرَز».. يغنى فيها المغنون غناء خاصاً بالباريسيين ينطوى على لهجتهم المجازية التى يدرك الشعب الباريسى وحده ظريف نكاتها. والشعب الباريسى – على كل حال – ذو نكته حلوة عذبة، عذوبة أخلاقه وطباعه سهلة التحوير والتنوير، وسهولة لغته فى قابلية النحت والمجاز..

ولا ينس الرجل أنه نواقة لفنون السينما والمسرح، وأنه كان أول من ساهم فى تأسيس صناعة السينما فى مصر، وقاد الدعوة لإنشاء «ستوديو مصر» الشهير الذى ترك بصماته على الانطلاقة السينمائية الأولى فى العالم العربى.. وهو هنا يصف السينما كما رآها، وشغف بها فى ذلك الوقت بباريس، فيقول: «فى باريس.. ستائر بيضاء صامتة..

لعرض الصور المتحركة، وباريس مهد هذا الفن. نشأت فيها الصور المتحركة، فأخذت بمجامع القلوب شارات الممثلين وبراعة المرتبين، وغرابة الحوادث التى كشفت أسرار العلوم والفنون لسواد الجماهير، وفتحت لنا جوف الأرض ترينا فى ماضيها من مناجم وأعمال تعدين وأضاءت لنا بالمصباح غياهب البحور وسرها المستور. وأعربت بالشارة عن نوع من الفكاهة فى الطبيعة البشرية كان يأتى عفواً فى المسارح التمثيلية، فأصبح مألوفاً فوق الستائر البيضاء، وحولت صنفاً عظيماً من طائفة الفنانين من المسارح الناطقة الى الوقوف امام الماكينات الخاطفة تلقط الحركات وتسجلها ثم تطبعها وتوزعها على العالم، فلا يقف أثرُها عند مسرح واحد أو فوق ستار واحد بل يتعدد إلى الآلاف من المسارح والستائر فى أنحاء المعمورة، كما تعددت من قبل أصوات المغنيين فى اسطوانات الفوتوغراف».

ثم يعترف "طلعت حرب" بفضل باريس فى إذاعة صناعة السينما وتحسينها فى العالم، فيقول: «لولا ممثلوها وممثلاتها، ولولا مهارة العاملين على ترقيتها، لما تقدم هذا الفن ولما اتسع اتساعه الهائل فى أنحاء العالم..»

أما المسرح الذى كان يسرق من وقته الباريسى بضع سويعات لكى يستمتع بما يدور على خشباته.. فيقول عنه: «إن عهده يرجع إلى ما قبل موليير.. ومن الروايات المسرحية ما قد انتحى المؤلفون فيها نواحى مختلفة من الوصف والخيال والحقيقة والواقع وتصوير الشعور والنفسيات الحائرة والطبائع البشرية على أصلها، أو على ما يجب أن

تكون حتى أصبح المسرح الفرنسى الناطق أغنى المسارح قدرة على تصوير الإنسانية فى أسمى عواطفها الراقية وفى تحليل عيوبها على غير إيذاء للنفوس الرقيقة. فإن أهل الأدب من رجال هذه الأمة النابغة لا يكشفون الجروح الدامية أمام الأنظار البريئة الطاهرة، وهم إن كشفوها فإنما يكشفونها فى رفق ولين وراء ستار شفاف خفيف ويمهدون عند كشفها بإيداع الشفقة فى قلب النظارة حتى لا تقسو قلوبهم على من هوت بهم الظروف إلى درك سفلى».

(٣)

كنت أسأل نفسي دائماً: كيف يسجل "طلعت حرب" إعجابه بباريس اللهو، وباريس الجد ويقف مبهوراً أمام حب شعبها للعمل وبراء شعب «جد ونشاط وذكاء في الابتكار" ثم في الوقت نفسه، عندما يكتب رداً على "قاسم أمين" حول دعوته لتحرير المرأة، يتهمه - كما يقول البعض - بأنه محسوب على فرنسا التي درس فيها، أو أنه - وهذا من أضعف الإيمان - كان ضمن جماعة وثيقة الصلة باللورد "كرومر" ألدّ أعداء الإسلام والقضية المصرية.

هذا الاتهام الذي يُظن أن "طلعت حرب" أطلقه ضد "قاسم أمين" ينطوي في تصوري على تشويه كبير لحقيقة موقف الرجل؛ إذ لا يُعقل أن يمدح باريس ثم يذمها في الوقت نفسه، كما لا يعقل بعد أن خبر هذه المدينة وأهلها أن يصدر أحكاماً ظالمة لها ولنفسه، فضلاً عن أن حياة "طلعت حرب" وأعماله لاحقاً تؤكد - بما لا يدع مجالاً للشك - أنه كان نصيراً لتعليم المرأة وبلوغها أعلى الدرجات في المناصب والإدارة، وحتى يتسنى لنا فهم جذور هذا الموقف المشبع بالالتباسات، سنحاول

أن نقرأ بعض نصوص "طلعت حرب" في هذا الشأن اتساقاً مع منهجنا الذى اخترناه منذ بداية الحديث عن هذا الرجل العظيم، ناهيك عن أن النصوص الأصلية هي - وحدها - التي تقطع قول كل خطيب.

الثابت أن "طلعت حرب" كان من بين هذه الزمرة التي حشدت نفسها للرد على كتاب «تحرير المرأة» الذي أصدره "قاسم أمين" في عام ١٨٩٩.. وقد اختار "طلعت حرب" لكتابه عنوناً هو «تربية المرأة والحجاب»، وهو في واقع الأمر ليس كتاباً بالمعنى الصحيح للكلمة بقدر ماكان بحثاً قصيراً أو ملزمة تقع في نحو ٤٠ صفحة دارت بها عجلات مطبعة "التركي" بالقاهرة، وكان الغلاف يحمل بعض أقوال الرسول «ص» والصحابة.

ويتعرض "طلعت حرب" في رده إلى موقف الرأي العام من كتاب "قاسم أمين"، فيقول: «لقد انقسم الناس إلى حزبين. حزب يرى رأي المؤلف وهم قلة يعدون على الأصابع، والحزب الآخر وهو الأعظم عدداً أجمع على استهجان ما ورد في الكتاب، ويقول إنه يدعو إلى بدعة في الدين لا في العوائد فقط..».

ثم يضيف، قائلاً: «كثر في هذه الأيام البحث والكتابة في حالة المرأة ومايجب عليها، ولها وفي طرق تعليمها، والفضل في فتح هذا البحث لكتاب «تحرير المرأة» الذي وضعه حضرة الفاضل "قاسم بك أمين" الذي يقول فيه إن المرأة مُساوية للرجل من جميع الوجوه وإن الرجل ظالم لها في حقوقها. ويحث فيه على تربية المرأة وتعليمها كما يتعلم الرجل سواءً بسواء، ويقول بلزوم رفع الحجاب ووجوب الاختلاط؛ لأن

حجاب المرأة وعدم اختلاطها مما يقيد حريتها التى منحها الله إياها، ويمنع من قيامها بالعمل المكلفة به فى الهيئة الاجتماعية إلى آخر مايدعو إليه. ولم يكد يظهر هذا الكتاب فى عالم الوجود حتى أشيع فى بعض الجرائد أنه تألفت لجنة فى مصر تحت رعاية عظيم بها لتحرير المرأة الشرقية على الطريقة التى أشار إليها حضرة المؤلف فى كتابه، وأخذ الناس من ذلك الوقت يبحثون فى موضوع الكتاب وما احتوى عليه من أفكار.

ويستطرد "طلعت حرب" فى كتابه، قائلاً: «إن الدين لا يمنع مطلقاً من تعليم المرأة وتربيتها وتهذيبها، بل هو يحض على ذلك ويأمر به، لكن المشكلة كلها - فى رأيى - سواء الذين هاجموا "قاسم أمين" وهم الأغلبية أو الذين وقفوا معه وهم الأقلية، أنهما يختلفان فيما ينبغى أن تتعلمه المرأة وفى طريقة التعليم والتهذيب.. ولما رأينا هذا الجدل والكفاح بين فريقين يعزز كل منهما قوله بالشرع، ويقول إن الحق والدين فى جانبه. ورأينا أنه لم يكد يخلو مجتمع من الكلام فى هذا الموضوع الذى تاقت نفسنا إلى البحث والتنقيب والدخول فيه ونحن نعرض على القراء نتيجة بحثنا، فإن أخطأنا قلنا من حسن النية مانرجو معه بغفران سيئات خطئنا، وإن أصبنا المرمى كما نظن، فلسنا نسأل على عملنا أجراً».

حكاية إقبال هانم

بعد هذه المقدمة المسهبة التى نظن أنها شغلت جزءاً كبيراً من الكتاب أو «الملزمة» كما نحب أن نطلق عليها، يبدأ "طلعت حرب" فى مناقشة أفكار "قاسم أمين".. فيقول: «أول شىء طرأ على ذهننا حين

قرأنا الكتاب ورأينا الناس أخذت "تسلق" حضرة المؤلف بألسنة حداد، ويحملون عليه وعلى كتابه حملات لم نتعودها على مؤلف غيره من قبل، أنه لابد في الأمر من شيء مهم حمل الناس على ذلك؛ إذ لا يمكن أن يجتمع كل الناس على ضلالة. ولا يخفى أن ألسنة الخلق أقلام الحق، فلخذنا نسأل ونتساءل حتى علمنا أن معظم هياج الرأي العام على حضرة المؤلف ناتج مما هو راسخ في أذهانهم من أن رفع الحجاب والاختلاط كليهما أمنية تتمناها أوروبا من قديم الزمان لغاية في النفس يدركها كل من وقف على مقاصد أوروبا بالعالم الإسلامي. ويقولون إن لأوروبا مطامع قديمة ومآرب في النفس يظهرها زيادة التقرب بين العالمين الشرقي والغربي حتى أن بعض أمراء المسلمين اتخذ هذه المقاصد ذريعة يتقرب بها الى بعض دول أوروبا في نيل مآربه، ومن ذلك أن "إسماعيل باشا" خديو مصر الأسبق لما كانت نفسه تميل إلى الاستقلال، وتكوين مملكة مستقلة بأفريقيا يحكمها هو ومن يأتي بعده من أولاده، كان عاملاً على جذب دول أوروبا إليه لتساعدة على تحقيق أمنيته في مقابل تحقيق أمنيتهم بأن يُدْخِلَ العادات الأوروبية بين أمته، مما كان يظنه سهل المنال. حتى أنه كثيراً ماكان يتظاهر، ويقول إن مصر قطعة من أوروبا وأن أخلاق المصريين وعوائدهم التي ورثوها ستصبح بمساعيه بعد قليل مُماثلة لعوائد ـ "عادات" ـ أوروبا وأخلاقها ليكون له من ذلك وسيلة يتقرب بها إليهم».

ويحضرني هنا تعليق لـ "رشاد كامل" مؤلف كتاب «طلعت حرب: ضمير وطن» يقول فيه: «إن إشارة "طلعت حرب" للخديو "إسماعيل"

تحديداً كان لها مغزًى، وهو أن العامة والخاصة كانت تعرف أن فى يوم ١٢ فبراير عام ١٨٨٥ أعلنت بُشرى أول مولودة للخديو إسماعيل، وبعد أسبوع بالضبط عقد الخديو قرانه على أم وليدته "إقبال هانم أفندى" وأجرى صيغة العقد قاضى مصر. "ولا يخفى أن هذه العادات الأوروبية الصرفة كانت شائعة فى أوروبا فى ذلك الزمان ولاتزال حتى يومنا.

نعود - بعد هذا الاستطراد - لنواصل القراءة فى كتابه «تربية المرأة والحجاب»، حيث يقول "طلعت حرب": «إنى أجلّ حضرة الفاضل "قاسم أمين" من أن يكون له غاية من وضع كتابه خلاف حب الخير والارتقاء لأمته كما هو ظاهر من كلامه عن تربية المرأة. فإنه وصف حالتها اليوم أحسن وصف، وقال بوجوب تربيتها وتهذيب أخلاقها وتقويم نفسها فلحضرته مزيد الشكر على ذلك وسيرانا فى هذا الكتاب داعين إلى مثل دعوته، رافعين صوتنا مع صوته لعل دعواتنا تخرق تلك الآذان الصماء؛ فيهتم القوم بأمر هذه التربية وننال ضالتنا التى ننشدها وهى تحسين حالنا. وما على الله بعزيز وإننا موافقون لحضرته على هذا البدء نخالفه فى غيره فنستسمحه العفو عما يجده خلال بحثنا من المخالفة والمباينة فى الرأى والفكر، فحضرته حر ولا نخاله إلا أن يحب كل حر الفكر، ولكى يطابق الاسم مسماه سمينا الكتاب "تربية المرأة والحجاب" وهو اسم كنا نتمنى أن يجعله حضرة "قاسم بك أمين" عنواناً لكتابه، فإنه أولى وأليق به من اسم «تحرير المرأة»، حيث إن المرأة المسلمة بشهادة حضرته قد خولت لها الشريعة السمحاء منذ نحو ثلاثة عشر قرناً حقوقاً وامتيازات لم تحصل زميلاتها الفرنجيات على جزء يسير منها إلا من

عهد غير بعيد. وهى الآن قد زادت حريتها على الحد الشرعى».

ثم فى عـام ١٩٠١ أصـدر "طلعت حـرب" كتـابه الثـانى الذى يحـمل عنوان «فصل الخطاب فى المرأة والحجاب» والتى تقول عنه الدكتـورة "زينب الخضيرى" إنه جـاء رداً على كتاب "قـاسم أمين" الثـانى «المرأة الجديدة». والحق أن "طلعت حـرب" لم يكن مناوئاً تماماً فى أفكاره لما ينادى به "قاسم أمين" فى كتابيه، وإنما كان من أكثر دعاة تربية المرأة حماساً، أو هو ـ كما يقول "فتحى رضوان" ـ لم يكن خصماً لتربية المرأة وتعليمـهـا ولا منكراً لحق من حـقـوقـهـا، بل إن رده قـام أصـلاً على أن الإسلام كفل للمرأة من الحقوق مالا تتمتع به المرأة الأوروبية السافرة، وأن "قاسم أمين" نفسه مُقر بذلك. فطلعت حرب لم يكشف فى رده عن نظرة اجتماعية متخلفة أو جـامدة وإنما كـان معتدلاً مقراً فى الوقت نفسه بصحة كلام "قاسم أمين"؛ إذ نادى بوجوب تربية المرأة وتهذيبها قبل تربية الذكور وتهذيبهم».

البخت والحظ وهلمجرا..

هذه الاقتباسات والتعليقات التى أوردناها تكشف عن الفهم المغلوط لموقف "طلعت حـرب" من دعـوة تحـرير المرأة؛ لأنه كـمـا رأينا ينادى بضرورة تعليمها وتربيتها، كما لم يتردد لحظة واحدة فى تقديم العون لها لكى تكسر الحواجز المفروضة عليها. فطلعت حرب نفسه هو أول من أطلق شرارة السينما فى مصر والعالم العربى كصناعة وكمشروع اقتصادى أيضاً، ثم إنه لم يعترض على عمل النساء فى التمثيل عندما قامت السيدة "عزيزة أمير" بدور البطلة فى أول فيلم مصرى هو فيلم «ليلى».

وكلنا يعرف أنه أنشأ فرقاً مسرحية كان للنساء الدور الأبرز فيها، مثل السيدة "روز اليوسف"، ولعل أبلغ مايشار إليه فى هذا الخصوص، أن "طلعت حرب" هو الذى سلم أول سيدة مصرية تتخرج فى مدرسة الطيران وهى السيدة "عصمت فؤاد" كأس التفوق..

باختصار إن "طلعت حرب" لم يخُنْ باريس التى كان يسميها عاصمة العواصم، ولم يتنكر لفكرها الذى قبسه عندما عايش أهلها.. كما لم يتهم "قاسم أمين" «بالتفرنس» كما هو شائع؛ لأنه كان من أكثر الناس فهماً لفرنسا والفرنسيين، وإنما كان منهجه هو الانفتاح على الثقافات أو العقليات الأخرى ثم اختبار هذا الوارد الجديد على محك الماضى الذى لا مفر من الخروج من تأثيره فينا والحاضر الذى نسعى إلى أن نعيشه ونحياه.

ولقد عرف كبار المثقفين الفرنسيين قدر "طلعت حرب"، ووضعوه فى مكانة الرائد فى قلب الحركة التقدمية فى الشرق العربى.. فوصفه المستشرق الكبير "جاك بيرك" بأنه كان صاحب عقلية اقتصادية جبارة، وكان مجدداً رائداً، وأن أولى ميزاته هى إدراكه للقوة الكامنة والإمكانات الهائلة التى لم تُستغل عند مواطنيه.

تبقى حكاية طريفة يذكرها مؤرخو حياة "طلعت حرب" وهى أنه كان يحرص فى كل مرة يزور باريس أن يشترى أكبر عدد ممكن من الكتب المتخصصة فى قراءة الطالع والحظ والبخت!! كما يروى مدير مكتبه أنه سافر معه ذات مرة لباريس للمشاركة فى معرض باريس الدولى فى عام ١٩٢٦، وفى أحد الأيام نزل "طلعت حرب" مُسرعاً من الشقة التى

خصصها بنك مصر ـ باريس له لكى يقيم فيها. وفى الطريق اكتشف أنه نسى بعض الأوراق المهمة فطلب إلى مدير مكتبه أن يعود ليحضرها، وعندما شرع هذا الأخير يفتش عنها اكتشف أن "طلعت حرب" كان يضع تحت وسادته على السرير الذى ينام عليه ورقة مكتوباً عليها بخط يده هذه العبارة: «ماذكر عبد اسم ربه أربعين يوماً إلا وتفجرت ينابيع الحكمة على قلبه ولسانه».

عبد الرازق السنهوري

«ها أنا الآن في فرنسا. لقد أمضيت سياحتي في البحر في هدوء وسكينة، وكانت أول مرة ركبت فيها الباخرة، وكان القمر يسطع كل ليلة على الماء فيكسبه رونقاً وبهاء، لذلك كنت أمضي بعضاً من وقتي في الليل على سطح الباخرة ناظراً إلى السماء تارة وإلى الماء أخرى، ومررنا بالأراضي الايطالية، وكان منظرها بديعاً، ثم مررنا بالجزر، ثم اقتربنا من مرسيليا، وكلما دنونا منها خفق قلبي لما عسى أن ألقاه في هذه البلاد. والفرنسيون هم الفرنسيون الذين نعرفهم في بلادنا، ولعل الطبقة الدنيا منهم في فرنسا أحط منها في مصر».

في شهر مايو عام ١٩٢٦ عاد "عبدالرازق السنهوري" من فرنسا حاملاً شهادتيه في الدكتوراه، الأولى في القانون، والثانية في العلوم السياسية والاقتصادية. وكان قد سافر إلى فرنسا مُوفداً في بعثة علمية، فوصل إلى شاطيء مرسيليا في شهر أغسطس عام ١٩٢١، وبعد أن قام بجولة في المدينة التي أبهجته «مناظرها البديعة عند الغروب، والتفاف البحر حولها»، اتجه إلى مدينة ليون حيث أمضى ليلته في أحد الفنادق، ثم رشحه أحد الزملاء ويُدعى «خليل»، ليسكن عند أسرة فرنسية تتألف من أرملة وابنتيها..

وكان "عبدالرازق السنهوري" سعيداً باستقبال هذه الأسرة له، ويذكر أنها كانت تُكثر من أسئلتها حول مصر، فاقترح إقامة أمسية، يحضرها الأصدقاء؛ ليلقي فيهم محاضرة يقارن فيها بين الأدب العربي والأدب الفرنسي، وقد نجحت المحاضرة كثيراً وشعر السنهوري بالارتياح لأنه استطاع، كما يقول «إفهام هؤلاء القوم أن للعرب أدباً له قيمة». ويبدو أن هذه الأمسيات الثقافية أصبحت عادة عند "عبدالرازق السنهوري"، فكان لا ينفك يقوم بإعدادها بين وقت وآخر ليناقش؛ فيها

قضايا كثيرة تتعلق بمصر، وبالمسألة الشرقية.. أما قضايا الإسلام كشريعة، وكحضارة، وكأمة، فقد استأثرت باهتمامه منذ الأشهر الأولى التى أمضاها فى جامعة ليون، فكان يحرص على حضور المحاضرات أو الندوات التى تتحدث عن تاريخ الإسلام، وشعر أن صفحة الشريعة الإسلامية غير نقية فى أذهان الفرنسيين، فتمنى لو تتاح له الفرصة لاحقاً لوضع دراسة عميقة وشاملة تكشف عن عبقرية هذه الشريعة.

ويؤكد المؤرخون لحياته، أن اهتمامه بالقضايا الإسلامية فى ذلك الوقت كان بمثابة التحدى الذى مارسه فى مواجهة الأوروبيين الذين كانوا يشعرون بالتعالى على الشرقيين نتيجة انتصارهم على الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى، وسيطرتهم على الأقطار العربية الإسلامية التابعة لها.. ولذلك لم يتردد السنهورى فى إعداد أطروحته الثانية للدكتوراه حول «الخلافة» مقترحاً تحويلها إلى «منظمة دولية شرقية أو إسلامية» تتلاءم مع الظروف المعاصرة. أما أطروحته الأولى فكان قد اختارها حول القانون الإنجليزى، وحصل بها على جائزة أحسن رسالة للدكتوراه فى جامعة ليون.

يا.. حضرة العُمدة:

وتكشف مذكرات السنهورى عن فهمه الصحيح لمعنى البعثة العلمية التى كان عضواً فيها، فلم يُضيّع وقتاً، فى غير العلم، والفهم والاستزادة من المعارف أياً كان مصدرها... فإلى جانب المحاضرات الكثيرة التى كان يواظب على الاستماع إليها، كان يشاهد بانتظام الروايات التى يقدمها مسرح ليون، فيذكر أنه حضر تمثيل رواية

«البخيل» لموليير، واستمتع بالمحاضرة الشيّقة التى ألقاها عمدة مدينة ليون، وتناول فيها جوانب من حياة «موليير»، ولم ينس السنهورى أن يذكر أن العمدة فى فرنسا، لا تربطه صلة بالعمدة فى مصر، فعمدة ليون مثلاً هو من رجال السياسة الأفذاذ، وقد كان وزيراً، ورُشح للوزارة أخيراً فرفض، وهو رئيس حزب من السياسيين الراديكاليين، وله نفوذ عظيم فى عالم السياسة.. وهى أمور أبعد ما تكون عن العمدة فى مصر، بمقدار بُعد السماء عن الأرض!

ولم يَنْجُ السنهورى من عُقدة المقارنة التى تلازم المثقف العربى الذى يزور أوروبا أو يُقيم فيها بعض الوقت، فها هو يُسجل إعجابه بتمثيل مسرحية «البخيل»، ثم يعود فيذكر أنه شاهد المسرحية نفسها فى مصر بالعربية، وأنه «رغم اختلاف اللغة إلا أن البخيل فى فرنسا أرقى بكثير منه فى مصر، فالممثل الفرنسى يُحكم دوره كأنه قد خُلق له. أما فى مصر، فلا يوجد فى الفرقة سوى ممثل أو ممثلين، والباقى من عامة الناس، الذين يتخذون من التمثيل مهنة عندما تضيق بهم سائر المهن». كما يُبدى إعجابه بالحفلات التى تُقام بين وقت وآخر؛ لتُذْكر الأمة برجالها العظماء، ولكى يشعر الفرنسيون بأنهم من «أمة لها تاريخ محشود بعظماء الرجال».. ويذكر أنه شاهد فى إحدى المرات "سارة برنار" التى كانت تؤدى دوراً يتلاءم مع حالتها الصحية وعمرها المتقدم (٧٠ عاماً)، كما تجُسِّم مُختلف الشعور والعواطف.. هائجة وقت هيجان النفس، حزينة وقت حزنها، هادئة فى هدوئها. ويرى أن الموسيقى الأفرنجية تختلف عن الموسيقى الشرقية فى تنوعها وعدم سيرها على

وتيرة واحدة، ويُجزم بأنه مازال في حاجة إلى حضور كثير من الروايات والأوبرا الغنائية، حتى يتمكن من إدراك الحكمة في صنع روايات مثل «آلام فرتر»، ومثل روايات شكسبير على هذا النمط.

وقد اهتم "عبدالرازق السنهوري" بكل مايموج حوله من أحداث، فخالط العمال وتوطدت علاقته بنفر منهم، وحضر اجتماعاتهم، واستمع إلى خطبهم، وتأثر ببعض أفكارهم التي يرى أنها لا تتعارض مع الإسلام، وأبدى إعجابه بفرنسا التي تترك للشيوعيين مساحة عريضة للتعبير عن آرائهم بحرية، وتمنى كغيره من المثقفين في العالم الثالث وقتئذ، أن ينهزم الاستعمار وتنتصر الشيوعية ويتأثر الشرق بروح هذا الانتصار.

ويعتقد البعض أن تحمس السنهوري للعمال والفلاحين، ودعوته لتأسيس حزب باسمهم إنما جاء ثمرة طبيعية لتأثره بالفكر الشيوعي في أوروبا، فهو يرى أن دعامة هذا الحزب هي المبادىء التي يستمدها من تجارب الأمم الغربية، ومن التعاليم النقية الصحيحة التي أتى بها الإسلام والمسيحية، مُشيراً إلى أن مصر في حاجة إليه بعد أن تظفر ببغيتها من الاستقلال التام وبعد أن تستقر الحياة البرلمانية فيها.

ويرى السنهوري أن هذا الحزب يجب أن يسعى إلى تحقيق خمسة أهداف هي: تعليم الفلاحين والعمال تعليماً إجبارياً، وتأليف النقابات الزراعية والعمالية، وتحسين الحالة الصحية في مساكن الفلاحين والعمال، واشتراك الفلاحين والعمال اشتراكاً فعلياً، بعد أن يتم تعليمهم، في إدارة حكومتهم وفي إدارة الحياة الاقتصادية للبلاد،

ومقاومة الاستعمار الأوروبى السياسى والاقتصادى فى جميع الدول الاشتراكية، ومساندة الفلاحين والعمال فى الأمم الاشتراكية؛ لتحقيق الغرض نفسه.

ورسم السنهورى خطة تأليف الحزب، ونصح بإبعاد الوصوليين عنه، حتى يكون حزباً صادقاً فى تعبيره عن الفلاحين والعمال.. وانطلاقاً من هذه الأفكار نفسها، طالب السنهورى بجعل الجندية والتعليم إجباريين..

وبعد مرور أقل من ستة أشهر على وجوده فى مدينة ليون، وضع السنهورى لنفسه خطة يخدم بها بلده، وتدور حول عدة محاور أولها، مشاركته فى عمل لإنهاض الشريعة الإسلامية وجعلها صالحة للتقنين فى الوقت الحاضر، وثانيها مشاركته فى إحداث ثلاث نهضات: الأولى اقتصادية مالية، والثانية فى طرق التربية والتعليم وأحوال المرأة الاجتماعية، والثالثة فى اللغة العربية.

أما المحور الآخر فيتعلق بالدراسات القانونية، وفى هذا الخصوص، يقول فى مذكراته: «وددتُ لو خدمت القانون فى شيئين: أن أصل فى الشريعة الإسلامية حبل الماضى بالحاضر، وأن أضع شرحاً للقانون المصرى يشمل الأحوال الشخصية، ويسد بعض النقص الذى كان يشعر به رجال القانون فى مصر من عدم وجود مؤلفات كافية فيه. وددتُ لو خدمت القضاء فى شىء هو أن أجعل من السلطة القضائية مهيمنة على السلطتين الأخريين بعد وضع الضمانات الكافية للقضاء ونزاهته».

وبهذه الطريقة التى كان يستحلب فيها "عبدالرازق السنهورى"

أفكاره طوال مدة بعثته فى ليون وباريس، وضع تصوراً لإنشاء قسم للدكتوراه فى القانون، وبرنامجاً للدراسة فى كلية الحقوق فى مصر، كما وضع خطة لإصلاح القضاء الجنائى وجعله سريعاً، وقريباً من المتقاضين، ويمحو أساساً سطحياً ويستبدل به أساساً تكون فيه نفسية المجرم وظروف الجريمة من أكبر الاعتبارات.

ونال الأزهر الشريف قسطاً من تأملات السنهورى فى غُربته، فكتب فى مذكراته يقول: «إن الأزهر يحتاج إلى كثير من الإصلاح سواء فى أقسامه الابتدائية والثانوية أو فى أقسامه العليا حتى يصبح أكبر جامعة إسلامية شرقية»

كان يهرب من المصريين!

وقد أمضى السنهورى مدة مايقرب من عام فى باريس، حصل فيها على دبلوم من معهد القانون الدولى.. وكان فى جولاته وروحاته يبتعد عن أوساط الطلاب المصريين؛ لأن أكثرهم لم يترك فى نفسه أثراً حسناً عند لقائه بهم.. وأيا كان الأمر، فليس من المبالغة القول: إن سنوات البعثة التى أمضاها السنهورى فى ليون وباريس من ١٢ أغسطس عام ١٩٢١، وحتى ٩ مايو عام ١٩٢٦ كانت بمثابة سنوات التكوين التى أنضجت لنا هذا العملاق الذى ترأس وزارة المعارف فى الاربعينيات، أربع مرات، وقام بأكبر عملية تقنين للقوانين العربية فى التاريخ المعاصر. كما تولى رئاسة مجلس الدولة، ووضع للأجيال العربية مؤلفه الضخم «الوسيط» الذى ما أن فرغ من كتابة الجزء العاشر والأخير منه

حتى فاضت روحه إلى بارئها..

وقد كرمته فرنسا فمنحته وسام «ليجيون دينور» ولم ينكر هو فضلها العلمي عليه، فكتب في مذكراته، يقول: «لا يسعني أن أنكر أنني مدين لفرنسا بما تعلمته على يدي أساتذتها وما قرأته في كتبها وما شاهدته في بلادها..».

.. والثابت أيضاً أن «سنوات الغربة» قد انضجت أفكاراً كثيرا كانت تدور في رأسه، وتموج بها روحه الوثابة.. تُرى ما هي هذه الأفكار؟!

(٢)

كـان "عبـد الرازق السنهـوري" يحلم في شبـابه المبكر بالجـامـعـة الإسـلامـيـة ويرى أنهـا الشكل الوحـيد الذي يمكن أن يُعـيد الأمـجـاد الغابرة، وقد ظل متعلقاً بـهذه الفكرة على الرغم من أنها كانت في ذلك الوقت مبهمة وخالية من كل تحديد ووضوح».

وعندمـا شـاءت أقداره أن يـعيش في مـدينة ليون طالبـاً للعلم، عـاوده الحلم ثانية ولكن بصـورة أكثـر إلحـاحـاً ونضـجـاً هـذه المرة، خصـوصـاً عندمـا شاهد كيف كان الأوروبيون أكثر الناس سعادة بانهيار الخلافة الإسـلامية في الأسـتانة، كمـا كـانوا في ذلك الوقت لا يخفون شـعورهـم بالتعالي على الشرقيين.. ولم لا؟ أليسوا هم الذين انتصروا على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وسيطروا في أعقابها على الأقطار الإسلامية؟

ولذلك مـا إن أنتـهى من إعداد أطروحتـه الأولى للدكتـوراه حـول القضـاء الإنجليزي، حـتى كرّس كل جـهده؛ لإعداد أطروحة ثانية في العلوم السياسية تبحث في إمكانية تحقيق حلم صباه المبكر، الخاص

بإنشاء جامعة تضم كل الدول الإسلامية، وقد انطلقت هذه «الفكرة - الحلم»، من قناعة ثابتة لدى "عبد الرازق السنهوري" وهى أن مبادئ الإسلام تشتمل على مبدأين يجعلانه سياجاً لجمعية أمم عامة، لا يتطرق إليها الضعف، وهما:

- المساواة بين الشعوب والأفراد؛ إذ: «ليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى».

- والمناداة بأن الإسلام مفتوح لجميع البشر، وأنه دين الإنسانية جمعاء.

ولم يتردد فى وضع برنامج أو خطة من أجل إنشاء ما سماه «بجمعية أمم لدول الشرق الإسلامى». دوّنها فى مذكراته، وجاء فيها «إن الخطوة الأولى هى السعى فى إنشاء معهد للقانون الدولى منظور إليه من الوجهة الشرقية، ويكون مجمعاً لعلماء القانون الدولى فى الشرق الأدنى، يجدون فيه متسعاً لنشاطهم العلمى من تأليف وإلقاء محاضرات ووضع مشروعات. ويكون متصلاً بما يوجد من المجامع الدولية فى الغرب، ويلحق بهذا المجمع معهد، لتدريس القانون الدولى بفروعه، وإذا أمكن التوسع فى المشروع كان هذا المعهد مدرسة جامعة على ثلاثة أقسام: قسم للسياسة والصحافة والعلوم الاقتصادية يقوم بتخريج من يصلح لتولى الوظائف السياسية فى السفارات والقنصليات والوظائف الإعلامية بعد تزويدهم بما يحتاجون إليه من معلومات، والوظائف الخاصة بالمصارف والبورصات.. الخطوة الثانية هى إنشاء معهد لتدريس الشريعة الإسلامية فى ظل القانون المقارن.

بروجرام الحزب..

ثم يسترسل فى شرح خطته، فيقول: «إذا انتشرت فكرة تجديد الشرق وإحياء علومه بفضل هذين المعهدين، وبفضل ما عسى أن ينشأ من مجالات لنشر هذه الفكرة، تبدأ المرحلة التالية وهى جمع مجهودات من يعملون فى هذا السبيل وتنظيم تلك المجهودات فيما يقرب من حزب يكون "بروجرامه" مبنياً على أمرين أساسيين:

الأول: تأسيس دعائم قويمة تُبنى عليها أنظمة البلاد العلمية والاقتصادية والدفاعية، وإعطاء أكبر قسط ممكن من العدالة، والمساواة فى حالات الناس الاقتصادية.

الثانى: ربط دول الشرق الأدنى بعضها بالبعض بروابط اقتصادية وعلمية والسعى فى إنشاء جمعية أمم لهذه الدول تجمعها على أساس المساواة والاستقلال. وتكون وسائل العمل لهذا الحزب كما يلى:

- لتحقيق الفرض الأول يوالى الحزب تعهد نهضة إحياء الشرق وتجديده، ويساعد على نمو هذه النهضة التى تكون قد وجدت بالفعل، وأن يساعد على تأليف الجمعيات والمعاهد العلمية التى تنشر علوم الشرق وترقيها فى ظل العلوم الحديثة. وذلك كالنهوض باللغة العربية وآدابها، ونشر اللغات الشرقية (التركية والفارسية على الأخص) والنهوض بالشريعة الإسلامية وعلوم العرب، ودراسة المدنيات الشرقية القديمة وتواريخها والاهتمام بصفة خاصة بالعلوم الاجتماعية، بحيث تدرس بتقدمها الذى وصلت إليه فى العصر الحاضر، مع بث الروح الشرقية فيها ومراعاة أن الغرض من دراستها القيام بالقسط الواجب

على الشرق من النهضة بالعلوم، بحيث يساعد الغرب على تقدمها ولا يظل واقفاً من الغرب موقف التلميذ من المعلم. هذه إحدى الوسائل، وتتلخص في السعي في تجديد مدنية الشرق وعلومه بواسطة الالتجاء إلى الحكومة نفسها، وذلك بالقبض على زمامها أو على الأقل بإيجاد عنصر قوى له تأثير محسوس في أعمال الحكومة، وذلك بأن يتقدم أفراد الحزب الذين يأنسون في أنفسهم استعداداً للحياة البرلمانية للانتخاب، ويكوّنون حزباً برلمانياً داخل الحزب الأصلي يعمل على وضع القوانين اللازمة لتقوية الحركة الشرقية (الإسلامية) ومدها بما يلزم من المال والاهتمام وعلى الأخص بالجانب الاقتصادي والجانب الدفاعي من هذه الحركة.

أما الغرض الثاني، فيتحقق باتباع وسيلتين محاذيتين للوسيلتين السابقتين، وهما:

- الالتجاء إلى الأمم الشرقية لا الحكومات.

- إيجاد نهضة لإحياء العلوم والمدنيات الشرقية، وسبيل ذلك اللغة والشريعة والجنسية، والتاريخ ثم الالتجاء إلى الحكومات الشرقية لحملها على الارتباط بعضها بالبعض ارتباطاً اقتصادياً وسياسياً، وذلك بإنشاء جمعية الأمم الشرقية.

ولا ينسى "عبد الرازق السنهوري" وهو في خضم حماسته لفكرة هذه الجمعية أن يشير إلى موافقته على تعريف للأمة الإسلامية ذكره أحد الباحثين الفرنسيين، وهو أنها «مجتمع له طابع فذ من المدنية قدمها لنا التاريخ كثمرة للعمل المشترك، ساهمت فيه جميع الطوائف الدينية

التى عاشت وعملت معاً جنباً إلى جنب تحت راية الإسلام، وقدمت لنا بذلك تراثاً مشتركاً لجميع سكان الشرق الإسلامى».

واستلهاماً لروح هذا التعريف يرى السنهورى أن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك والكل تضافر على إيجاد هذه المدنية، ثم يعود لخطته السابقة، فيذكر أن هدف جمعية الأمم الشرقية يتحدد فى غرضين:

الأول: الدفاع عن مصالح تلك الدول ودفع الاعتداء المرتكز على القوة على أن ينتهك حرمات كل حق مقدس من حقوقها.

والثانى: إذا رأى هذا الاتحاد أنه ليست هناك قوة ظالمة تغتال حقوق دوله، وأن روح الإخاء بدأت تسود فى العالم، فعندئذ تبدأ مهمة أخرى سامية للاتحاد، وذلك بأن يجمع دوله وينظمها فى سبيل تقدم الإنسانية، ونشر المدنية الصحيحة فى العالم عاملاً فى ذلك مع الغرب على قدم المساواة والإخاء وحب الإنسانية.

فى البدء كان المؤتمر:

ولأن فكرة «جمعية الأمم الشرقية» أو «اتحاد الأمم الشرقية»، كما كان يسميها فى بعض الأحيان، قد استحوذت على تفكير "عبد الرازق السنهورى" عدة سنوات، وآمن بها إيماناً شديداً، واقتنع بأنها الطريق الوحيد الذى يكشف عن أصالة وقوة الشرق والإسلام. فقد رأى أن البداية الطبيعية لهذا الاتحاد هى التمهيد لمؤتمر يقوم بعمل عدة دراسات أهمها دراسة اللغتين التركية والفارسية، ودراسة تاريخ البلاد

العربية والتركية والفارسية القديم والحديث، ودراسة جغرافية هذه البلاد بالتفصيل، ودراسة النظام السياسى والدولى الخاص بكل من هذه البلاد، والحالة الاجتماعية من وجوه كثيرة كالتقاليد والعادات والدين والتعليم والمركز الاقتصادى والمالى، ثم تتبع حركة الجامعة الأمريكية وما يشبهها من الجامعات.

ويقول المهتمون بتاريخ السنهورى إن هذه الفكرة تحديداً قد أسهب فى شرحها فى كتابه عن تطوير الخلافة؛ لتصبح: «الجامعة الإسلامية أو عصبة أمم شرقية».

ويعود "عبد الرازق السنهورى" ليشرح فكرة المؤتمر الذى يدعو إليه، فيقول: «يضم المؤتمر مندوبين عن خمس دول هى مصر، وتركيا والعجم، والأفغان، والحجاز، وهى البلاد الشرقية المستقلة، ولو نظرياً. ويُقسم هذا المؤتمر إلى ثلاث لجان:

اللجنة الأولى: مهمتها وضع أصول للقانون الدولى العام للأمم الشرقية (ويقتدى فى ذلك بمثال الجمهوريات الأمريكية التى عقدت عدة مؤتمرات للبحث فى تقوية الجامعة الأمريكية آخرها عقد فى السنة الماضية، ويحسن الاطلاع بالتفصيل على طريقة العمل التى اتبعتها هذه المؤتمرات والنتائج التىْ وصلت إليها حتى نستفيد بما يمكن الاستفادة منه من تجارب غيرنا). ويمكن من الآن أن يتوقع الشرقى وضع بعض أصول فى هذا القانون الدولى، منها عدم مشروعية الحرب بين الأمم الشرقية، وإيجاد هيئة تحكيم دائمة، ووضع قوة تنفيذية تحت تصرفها بشكل ما، واتخاذ مبدأ للأمم الشرقية يشبه مبدأ مونرو للجمهوريات

الأمريكية ويتلخص فى أن الأمم الشرقية لا تتدخل فى أى تنازع بين الأمم الغربية إلا إذا كان شرفها أو مصالحها رهناً لهذا التنازع.

وفى الوقت ذاته يمكن لأية أمة شرقية أن تنظر بعين القلق لأى تدخل من الأمم الغربية فى شئون الأمم الشرقية، وكل هذا يتنافى مطلقاً مع حسن العلاقات والتفاهم الحسن بين الشرق والغرب وتعاضد الجميع على تقديم الإنسانية والعلم.

اللجنة الثانية: تكون لجنة مالية تبحث فى الطرق اللازمة للتعاون على تنمية الموارد الاقتصادية للأمم الشرقية، ووضع اتفاق لاتحاد جمركى بين هذه الأمم ووضع اتفاق تشترك بمقتضاه الأمم الشرقية فى إنشاء طرق المواصلات.. والنظر فى إنشاء مصارف شرقية.

اللجنة الثالثة: تكون لجنة علمية تضع أساساً لنهضة علمية عامة دعامتها العلوم الشرقية القديمة مع بث روح العصر فيها، والاستفادة من علوم الغرب بالقدر الذى يتلاءم مع عادات الشرق وتقاليده، ولا بأس من جعل أساس القانون المدنى الشريعة الإسلامية فى الجزء المدنى منها البعيد عن العقائد والدين، مع النظر فى الطرق اللازمة للسير بالشريعة حتى تتصل إلى القرن الذى نعيش فيه. ومتى كانت الشريعة أساساً للقوانين المدنية فى الأمم الشرقية سهُل على اللجنة العلمية وضع مشروع للقانون الدولى الخاص الموحد تطبقه كل الأمم الشرقية، ثم المضى فى بث تعليم اللغة العربية فى البلاد التى لا تتكلم بها واتخاذها لغة رسمية للمؤتمرات والحكومات، وإنشاء مجامع علمية لغوية وفنية».

ويضيف "عبد الرازق السنهورى" شارحاً فكرته حول المؤتمر، فيقول:

«يجب أن تبث هذه الفكرة فى الأمم الشرقية الخمس التى ذكرتها حتى تنضج فى أوساطها المختلفة، وحتى تتمكن فئة من كل أمة من بحث المشروع من جميع نواحيه وإعداد تقارير مُفصّلة فى كل نقطة من نقطه، ولا أقل من عام أو عامين لتوافر ذلك. فإذا نضجت الفكرة وتم إعداد التقارير لدى كل أمة نظر فى عقد المؤتمر وفى الجهة التى ينعقد فيها. وقد لا يكون غريباً عن أعمال هذا المؤتمر أن يبحث فى مسألة الخلافة الإسلامية، وما تستطيع أن تقوم به من تقوية الروابط بين الأمم الشرقية».

لا ضرر من الجامعات الصغرى

وعندما يستشعر السنهورى الخوف من أن يتصور البعض صعوبة تحقيق فكرته حول جمعية الأمم الشرقية، بسبب وجود أفكار أخرى خاصة بجمعيات أو جامعات أخرى مثل الجامعة الطورانية والجامعة العربية والجامعة الفارسية والجامعة المغربية، يحاول تفنيد هذه الفكرة، فيقول: «إن مصلحة الشرق تقتضى أن تعمل كل جامعة فى تحقيق أغراضها، فإذا حققت ما ترمى إليه أمكن إيجاد الروابط المتينة التى تربط هذه الجامعات بعضها ببعض، فليعمل الأتراك على نشر الدعوة الطورانية فى بلاد القوقاز والتركستان، وليعمل العجم على لم وحدتها، وليعمل العرب على إحكام روابط الجزيرة، ولتقم مصر بما يجب عليها من جعل وادى النيل وحدة سياسية كما هو وحدةٌ طبيعية، ولتستقر بلاد المغرب بما بينها من روابط تاريخية، ثم إذا نهضت كل هذه الأمم مختلفة الأجناس واللغات، أمكن عند ذلك تحقيق وجود لتلك الجامعة

الكبرى «الجامعة الشرقية» أو الجامعة الإسلامية بمعنى واسع..

وهذا لا يتناقض مع ما أشرت إليه من لزوم انعقاد مؤتمر شرقى تشترك فيه الأمم الشرقية المستقلة، فإن من شأن هذا المؤتمر أن يُسَهِّل على كل جامعة عملها وألا يجعل عمل كل منها يضر بعمل الأخرى، وأن يحقق شيئاً من الوحدة والتضامن فى عمل الجميع».

ويؤكد السنهورى أن الدول الإسلامية لا يمكن أن تجتمع على شئ واحد غير دين الإسلام. الذى يرى أنه الرابطة الأساسية التى يمكن أن تأتى بعدها روابط أخرى مثل القانون والتجارة.. فيقول: «يجب أن نميز تماماً بين ثلاث جامعات مستقلة هى الجامعة العربية والجامعة الطورانية والجامعة الفارسية، لكن يجب أن تربط بين هذه الجامعات الشرقية الثلاث روابط متينة من الدين والقانون والتجارة. ولذلك يجب تأليف جمعيات يكون عملها ربط هذه الجامعات الثلاث بعضها ببعض، وجعلها تسير فى تيار واحد دون أن تقف جامعة عثرة فى طريق الأخرى، بل يجب عند اللزوم أن تساعد كل جامعة الأخرى على تكوينها. ومتى تكونت هذه الجامعات الثلاث أمكن أن يوجد بينها بفضل الروابط التى تربطها من دين وقانون وتجارة جمعية أمم شرقية وقانون دولى شرقى».

وفى النهاية يجب أن نذكر أن كلمة «الشرقية» كانت فى تلك الفترة التى كتب فيها السنهورى هوامشه أو مذكراته تكاد تكون مرادفة فى المعنى لكلمة «إسلامية»، ناهيك عن أنه كان مؤمناً بأنه لا تناقض بين الجامعة الشرقية والإسلام، فها هو يقول: «فى الشريعة الإسلامية

نفسها من الممكن أن يرى الباحث فى التعاليم الإسلامية تعاليم دينية أساساً لإنشاء مدنية دنيوية صلتها بالدين كصلة المدنية الغربية بالأخلاق أو بالدين المسيحى».

وأياً كان الأمر، فالمحقق أن السنوات التى أمضاها "عبد الرازق السنهورى" فى ليون وباريس ومعايشته للفكر الأوروبى عن كثب هى التى جعلت حسّه الإسلامى مرتفعاً إلى درجة تحمسه الشديد على نحو ما رأينا؛ لإقامة اتحاد للأمم الإسلامية.. فها هو يذكر أنه لمس أن هدف الاستعمار هو تحويل الإسلام إلى عقيدة لا شأن لها بالقومية، فيرد ويقول: «الإسلام قوى لا تهضمه الجنسية ولا الاستعمار، ويحاول الغربيون أن يحولوه إلى مجرد عقيدة لا شأن لها بالقومية حتى يسهل عليهم تفريق الأمم الإسلامية وهضم ما استعمروه منها وفناء كل فريق من المسلمين فى جنسية من جنسياتهم، وهذا هو الذى تجب مقاومته».

وأظن أن دعوته للجامعة الشرقية أو الإسلامية كانت أحد أشكال هذه المقاومة، كما تصورها.

(٣)

ومن الأفكار التى أنضجتها الغُربة فى حياة "عبد الرازق السنهورى" رؤيته لعلاقة الغرب بالشرق من ناحية ثم رؤيته لرسالة مصر فى العالم الشرقى من ناحية أخرى، فهو يرى أن الشرق لا ينبغى أن يتنكر لماضيه مُقلداً الغرب فى كل شئ، كما لا يجب أن يدخل فى صراعات معه، وفى الوقت ذاته يرشح مصر للقيام بالدور الطليعى فى إرساء قواعد التفاهم بين الشرق والغرب. فالأمم الشرقية - فى نظر السنهورى - أمامها أمران لا محيص عنهما:

إما أن تجرى مع المدنية الغربية، وهذا الطريق ليس مأموناً، وإما أن تحفظ لنفسها مدنية تصل فيها الماضى بالحاضر مع التحوير الذى يقتضيه الزمن فتحفظ لنفسها شخصيتها وتستطيع أن تجارى الغرب بدلاً من أن تجرى وراءه.

ويؤكد السنهورى أن مصلحتنا تقضى بمسايرة الغرب وفى الوقت نفسه عدم التنكر لماضينا، فيقول: «على أنه يجب الاعتراف بأن حاجتنا إلى أوروبا الآن كبيرة، ولكن هذا ليس معناه تنحية تقاليدنا القومية

وإدخال مدنية غريبة عنا فى بلادنا الشرقية؛ فنعدم بذلك روحنا القومية، فإن الذى يربط الأمة برباط قوى هو الماضى، ولن تستطيع أمة أن تتخلص من ماضيها إلا تاهت فى ظلمات لا تهتدى فيها. وأحرص ما يجب أن يحرص عليه المصرى (أو الشرقى) هو صبغته الشرقية (أى الإسلامية) مهما جرفها تيار أوروبا القوى، فإننا نستطيع تغيير كل شئ إلا نفوسنا وإيماننا بالله.

ويرى أنه من الخطأ تصور أن نهضة الشرق تناقض الاستفادة من علوم الغرب فيقول إن الشرق يستعين فى قيامه بما استفاده من مدنية الغرب كما استعان هذا فى نهضته من قبل بمدنية الشرق فلا يقلق الغرب من أن يرى الشرق يحاول النهوض، فإن هذا فى مصلحة الغرب نفسه؛ إذ يقلل الحروب يسد باب المطامع.. وتوجد إلى جانب الغرب أمم فتية ناشئة تقوم بنصيبها فى مدنية العالم وتقدم العلوم.

اللافت للنظر فى مجمل آراء السنهورى حول علاقة الغرب بالشرق أن هدوء (أو اعتدال) هذه الآراء لم يمنع الرجل من الاعتراف بأن الغرب يناصب الإسلام العداء، ويحرص على تمزيق أممه. فيقول فى إحدى خواطره: «إن الغربيين يحاولون تحويل الإسلام إلى مجرد عقيدة لا شأن لها بالقومية، حتى يسهل عليهم تفريق الأمم الإسلامية وهضم ما استعمروه منها، وفناء كل فريق من المسلمين فى جنسية من جنسياتهم، وهذا هو الذى يجب مقاومته»، ثم يعود فيرسم خطة لعلاقة الغرب بالشرق تنتفى فيها الصراعات والمنافسة، فيقول: «نحن الشرقيين نريد أن ندافع عن كياننا ومدنيتنا الشرقية الإسلامية، ولكن هذا لا

يمنعنا من حب الغربيين باعتبارهم إخواناً لنا فى الإنسانية، ولا نريد بهذا الدفاع أن نُقلق سلام العالم، بل أن نثبّت دعائم هذا السلام الذى لا يتم إلا إذا رفُع الظلم عن الأمم المظلومة، والشرق يعتبر نفسه عضواً فى الجمعية البشرية يحب خيرها وسعادتها ويعمل لذلك».

ويضيف، فيقول: «إن مهام اتحاد الدول الإسلامية هى تجميع مجهودات الدول الأعضاء فيه وتنظيمها فى سبيل تقدم الإنسانية ونشر المدنية الصحيحة فى العالم عاملاً - أى الاتحاد - فى ذلك مع الغرب على قدم المساواة والإخاء وحب الإنسانية».

الفرانكفونية تكسب!

ثم تعاوده من جديد مشاعره الخاصة بعداوة الغرب للإسلام، فيرسم خطة للسياسة الخارجية ترمى إلى صدّ غارة الغرب، والوقوف أمام مطامعه الاستعمارية فى الشرق الأدنى، والبدء بالروابط الاجتماعية والاقتصادية، ثم البحث فى حيز الروابط السياسية التى تربط الأمم العربية، وبعد ذلك الأمم الشرقية (الإسلامية) والعمل على نشر الإسلام فى العالم، وسعى الأمم جميعاً فيما هو لخير الإنسانية.

ويغوص فى تفاصيل هذه الخطة السياسية، وينصح بالتقرب من فرنسا أو إيطاليا؛ لضرب مصالح إنجلترا، فيقول بإسهاب شديد: «الدول الشرقية فى حاجة - على ما أظن - إلى الاستفادة من تنافس الدول الغربية، ولو هُيئ للشرق أن يتفق مع دولة غربية قوية تكون أقل الدول مطامع فيه استطاع أن يهدم النفوذ الغربى، وبخاصة الإمبراطورية البريطانية الممتدة من أقصى حدود الهند إلى أقصى

جنوب أفريقيا. ولا أعتقد أن هذه الدولة الغربية هى إنجلترا، ولكنها قد تكون فرنسا التى من صالحها هدم الإمبراطورية البريطانية ومطامعها فى الشرق، إذا ضُمن لها سلامة إمبراطوريتها فى شمال أفريقيا تكون محدودة، ولا أعتقد أن مسألة سوريا وتنمية علاقاتها الاقتصادية معها يجعل حاجزاً متيناً من هذه الدول أمام تيار البولشفيك الذى يهدد آسيا بأجمعها، ثم تهدم الإمبراطورية البريطانية أولاً وأخيراً».

ويستطرد شارحاً خطته المبنية على الاستفادة من تنافس الدول الغربية، فيقول: «بذلك تأمن فرنسا من منافسة إنجلترا لها، وتحقق أغراضها فى ألمانيا بتفكيكها وبتقوية بولونيا ودول الاتفاق الصغير، لتجعلها سداً بين ألمانيا وروسيا. ويوقف تقدم روسيا فى آسيا بتقوية الدول الشرقية يضعف كثيراً من خطر انضمام روسيا إلى ألمانيا وتقوية نفوذها فى الشرق.. وقد تكون الدولة الغربية المقصودة هى إيطاليا وهذه تمتاز بأنها دولة ناشئة تريد خوض غمار السياسة العلمية، وأن تقوم بدور مهم فيها. وهى مع ذلك أقل الدول القوية مطامع فى الشرق بحكم الظروف وطريقة انضمام إيطاليا إلى الدول الشرقية غير متعسرة، فلإيطاليا مطامع فى البلقان وهى عدوة اليونان، ولها مستعمرات أفريقية تنظر بعين الرضا إلى إنمائها وتقويتها».

ويخلص "عبد الرازق السنهورى" إلى القول إنه «إذا لم تجد الدول الشرقية لا من فرنسا ولا من إيطاليا معيناً فلا يبقى أمام الشرق إلا روسيا وألمانيا متحدتين وهذا أمر لا يعلم عواقبه إلا الله».

مصر أولاً

أما بالنسبة لدور مصر ورسالتها فى العالم الشرقى، فيرى "عبد الرازق السنهورى" أن مصر هى محور أى نهضة أو رقى فى العالم الإسلامى. فهو عندما يفكر فى عقد مؤتمر لمناقشة إمكانية تحقيق اتحاد للدول الشرقية يجعل من مصر «ركيزة أساسية» فى هذا المؤتمر مع أربع دول أخرى هى تركيا والعجم والأفغان، والحجاز. وكذلك عندما يتحدث عن صورة مثلى للاتحاد السياسى يجعل من مصر النواة مع السودان وسوريا، ويؤكد أن لمصر دوراً مهماً فى الوحدة الثقافية والاقتصادية والسياسية للدول الإسلامية، فيقول: «إنى على يقين تام من أن السعى لاستقلال مصر ووحدتها مع السودان يجب أن يتقدم كل مسعى فى سبيل تحقيق الجامعات الشرقية، غير أننى أعتقد أن التفكير فى هذه الجامعات من الآن لا يكون قبل أوانه؛ لأن مصر المستقلة تحتاج فى حياتها الجديدة إلى منهاج مرسوم لها بعقول رشيدة تسير فيه بين دول الشرق. ومصر تخسر كثيراً على ما أعتقد إذا انصرفت بعد استقلالها إلى تقليد الأوروبيين فى مدنيتهم تقليداً تاماً ونسيت أنها من أهم الدول الشرقية. وغير هذا فإن مصر فى حاجة إلى نهضة علمية وخاصة إلى إحياء الشريعة الإسلامية، وبث روح العصر فيها».

ثم يتجه السنهورى إلى المواطن المصرى؛ ليحدد له مسئوليته فى هذا المجال، فيقول: «كل مصرى مُتعلم ينظر إلى تقاليدنا القومية وتاريخنا ومدنيتنا القديمة بغير تقدير كاف يكون إما مخطئاً أو يائساً ولا نستفيد من الخطأ ولا اليأس. وعندى إنه يحسن الآن البدء بنهضة علمية ترمى

إلى إحياء العلوم العربية ونشر هذه الحركة فى مصر والشام والحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية ويلتفت التفاتة خاصة إلى اللغة والشريعة، ومتى نجحت هذه الحركة العلمية تلتها نهضة اقتصادية، ثم يأتى بعد ذلك الارتباط السياسى».

ويفند السنهورى أبعاد الدور المصرى فى نهضة الشرق فيشير إلى أن النهضة العلمية فى مصر هى أساس النهضة فى بلاد الشرق الأدنى، ويضيف قائلاً:

وددتُ لو أتيح لمصر أن تكون من البلاد الشرقية كإيطاليا من البلاد الغربية فى عهد إحياء العلوم والعمل على إيجاد هذه النهضة العلمية يحتاج إلى وقت ومجهود كبير وحبذا لو بُدئ بتكوين مجامع علمية لغوية وفنية تتولى قيادة النهضة ولا بأس مطلقاً بل من الضرورى أن نستفيد من علوم الغرب حتى فيما كتبته عن العلوم العربية على شرط أن يكون لتكويننا العقلى ومزاجنا الجنسى أثر كبير فيما ننقله عن الغرب، ولنا أسوة بالعرب عند نقلهم عن اليونان وأوروبا لما نقلت علوم العرب. أما توحيد نظام التعليم فى مصر فهو من الأمور المرغوب فيها ولكن أعتقد أنها غير ممكنة التحقيق فى الوقت الحاضر، ولذا يحسن الاقتصار على التقريب بقدر المستطاع بين التعليم الشرقى «المحض والتعليم الغربى المحض».

العرب والترك

ويرى السنهورى أن لمصر دوراً محورياً فى التقريب بين العرب والترك، وأن هذا التقريب هو الخطوة الأولى فى طريق تحقيق الانسجام

بين الجامعات الثلاث: العربية، والطورانية، والفارسية، فيقول: «والجامعة العربية من أهم الجامعات الشرقية، ولكن تحقيقها محفوف بالمصاعب لسببين، الأول: هو نفوذ الدول الأجنبية في جميع الأقطار العربية والثاني هو كراهة جزء كبير من العرب للترك».

على أنه يمكن مع حُسن التفاهم أن يسود الوفاق بين العرب والترك، والمصريين خير معين على إيجاد هذا التفاهم، فهم لا يكرهون الترك ويحبون إخوانهم العرب.

وأخيراً يمكننا أن نلخص رؤية السنهوري للعلاقة بين الغرب والشرق، ثم دور مصر في هذا الشأن من خلال نص مهم كتبه في مدينة ليون في ٢٦ أغسطس عام ١٩٢٣، يقول: «يطلب الشرق من الغرب أن يتحمل قسطه من المسئولية في مدنية العالم وفي تقدم العلوم البشرية وهو طلب عادل لا يستطيع الغرب ان ينكره على الشرق وهو واجب على الشرق قام به في الماضي، وحالت فترة خمول يستيقظ الآن منها ليواصل مجهوده.

ويقول الشرق للغرب إن من مصلحتك أن أستيقظ أنا من نومي فما جلب الحروب، والرزايا على الغرب إلا نوم الشرق وصلاحيته لأن يكون محلاً للتنازع بين أمم الغرب. فإذا نهض الشرق انعدمت أسباب أغلب الحروب التي تقوم في أوروبا، إذن فمن مصلحة الغرب أن يقوم الشرق والأمم الغربية الرشيدة بإدراك هذه الحقيقة. ثم يقول الشرق لأبنائه إن نهضتي هي نهضة دين وتقوم على سائر الأديان، فإني مقر بالأديان الثلاثة وكلها من عند الله، وهي نهضة لجميع الأمم الشرقية على

اختلاف أديانها وكل أمة تقوم بشئنها مع عقد تحالفات بين الأمم الشرقية من شأنها ان تقوى الروابط العلمية والاقتصادية والسياسية وتكون عند الضرورة معاهدات دفاعية ضد المعتدى.

ثم يختم هذا النص "المهم" متسائلاً: «هل قدر الله للأمة المصرية أن تعطى مثالاً صالحاً للأمم الشرقية فى ذلك؟

وليس يخفى أن طرح السؤال بهذه الطريقة هو ترشيح لمصر - من وجهة نظر القانونى الكبير "عبد الرازق السنهورى" - للقيام بهذا الدور.

الشيخ محمد عبده

يروى أن الشيخ "محمد عبده" عندما هبط إلى ميناء الإسكندرية في المرة التي زار فيها مصر متخفياً، شعر بالسعادة تغمره وهو يسمع الأذان ينطلق من مآذن المدينة، لكنه في ذات الوقت أحس بالألم يعتصر قلبه عندما وقعت عيناه على حوادث سرقة، وخطف وهو يمشي بين الناس في الشوارع والأسواق، فتذكر أيامه الباريسية، واستحضر إلى ذهنه واقعة أدهشته ذات يوم عندما شاهد الناس يشترون الصحف من مكان على ناصية الطريق، ويضعون بأنفسهم ثمنها دون أن يكون هناك بائع.. ويقال إن "محمد عبده" ظل يروى هذه الواقعة بإعجاب شديد لكل أصدقائه أشهراً طوالاً..

لم يكد يمر شهران على إقامة الشيخ "محمد عبده" فى باريس فى أواخر عام ١٨٨٣ حتى أصبح «أوروبياً متفرنساً» فخلع العمة واستبدلها بالطربوش، وأقلع عن حلق رأسه حلقاً تاماً على عادة المشايخ فاستطال شعر رأسه، ولحيته، وأصبح مظهره يشبه الفنانين فى ذلك الزمان..

والحق إن المقادير وحدها التى ساقت الإمام "محمد عبده" لباريس؛ لأنه عقب صدور الحكم عليه بالنفى فى ٢٤ ديسمبر ١٨٨٢ بتهمة مشاركته فى «الثورة العرابية»، كان قد ولّى وجهه شطر "بيروت" التى قابله أهلها بحفاوة بالغة.. وهناك طاب له المقام وسط علمائها، وقام بعدة جولات شملت بيت المقدس، ودمشق، وبعلبك، وطرابلس، وعنى عناية خاصة بقضايا التعليم فيها، ووجه تقريراً إلى والى بيروت يدعوه فيه إلى تدبر النقائص، ومُعالجة المفاسد التى رآها بنفسه فى النظام التعليمى، كما طالبه بتأسيس المدارس الرسمية.

وبينما كان مشغولاً بالإصلاح الذى نذر له نفسه، حلّ أو ارتحل. بلغه خطابٌ من أستاذه "جمال الدين الأفغانى" أرسله إليه أثناء عبور سفينته

من قناة السويس مطروداً من مصر، يطلب إليه اللحاق به فى باريس..
وعلى متن أقرب باخرة لبى الإمام "محمد عبده" النداء، تاركاً زوجته وبناته الثلاث، وشقيقاً أصغر له، وخادمه، فى رعاية أصدقائه من أهل "بيروت".. وبوصوله إلى "باريس" وجد أن السيد "جمال الدين الأفغانى" قد وضع «خطة عمل مُحكمة» كلّفه بتنفيذها. تتعلق بإصدار جريدة تحمل اسم «العروة الوثقى»، وتتحدد رسالتها الإصلاحية فى ست نقاط رئيسية، على النحو التالى:

١) شرح واجبات الشرقيين، وكيف أن التفريط فيها يؤدى إلى ضعفهم وسقوط مجدهم.. وتوضح لهم الطرق التى يجب عليهم السير فيها لتدارك ما فات.

٢) تعمد إلى إشراب النفوس عقيدة الأمل فى النجاح وإزالة ما حل بها من يأس.

٣) تدعو إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم، وهى ما تمسكت به الدول الأجنبية التى صارت لها القوة والمنعة.

٤) تهدم فى إيمان وقوة التهم التى حاول الاستعمار لصقها بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة.

٥) تزويد الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

٦) وأخيراً، تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية، وتمكين الألفة بين أفرادها.

وكان "جمال الدين الأفغانى" قد استأجر حجرة صغيرة على سطح

إحدى العمارات الشاهقة الواقعة فى «شارع سيز» بالقرب من «ساحة مادلين» الملاصقة لميدان الكونكورد الشهير، بإيجار شهرى قدره ٥٠ فرنكاً.. وكانت هذه الحجرة على الأرجح مكاناً للمبيت ليلاً، ثم مكتباً لإدارة تحرير «العروة الوثقى» نهاراً.. وقد صدر العدد الأول من الصحيفة يوم الخميس ١٣ مارس ١٨٨٤، وعلى صفحته الأولى الإشارة أو التعريف التالى: [«العروة الوثقى» لا انفصام لها. جريدة سياسية أدبية تصدر كل يوم خميس].

المحرر الأول: الشيخ "محمد عبده".

ترسل الجريدة إلى جميع الجهات الشرقية.

وقد عُينت أجرة البريد بخمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه، ومن شاء أن يبعث إلينا بتحارير أو رسائل فى أى موضوع كان رغبَة نشره فى الجريدة أو التنبيه على أمر منهم، فليُرسلها إلى إدارة الجريدة بهذا العنوان 6, Rue MARTEL Paris ويذكر مؤرخو هذه المرحلة المهمة من حياة الإمام "محمد عبده" أن هذا العنوان المكتوب على صدر الصفحة الأولى بـ «العروة الوثقى» هو عنوان المطبعة التى كانت تدور عجلاتها بصفحات الجريدة كل أسبوع.. وأياً كان الأمر، فالمحقق أن "محمد عبده" لمْ يضيّع وقتاً فور وصوله لباريس، فشرع يبحث سُبل إصدار الجريدة التى لم يكن فى ذلك الوقت سوى حلم يراود "الأفغانى"، فشرع يصل الليل بالنهار فى صياغة برامجها وتحديد أهدافها..

النشاط السرى لـ «العروة الوثقى»

وتكشف وثائق هذه الفترة أن اسم المجلة «العروة الوثقى» لم يكن فى

حقيقة الأمر سوى اسم لجمعية سرية تكونت بأوطان الشرق، كى تكافح الاستعمار وتدعو للتضامن الإسلامى، و «الجامعة الإسلامية»، وتبشر بالتجديد والإصلاح. وكان "جمال الدين الأفغانى" رئيساً لهذه الجمعية التى كلفته بإصدار مجلة عربية علنية فى باريس تدعو لأهدافها. وكان الأفغانى نفسه هو مدير سياسة الجريدة. أما مهمة رئيس التحرير فكان يقوم بها الإمام "محمد عبده"..

وفى هذا الخصوص يروى الأمير «شكيب أرسلان» أن الإمام "عبده" كان يقول: «إن الأفكار فى "العروة الوثقى" كلها للسيِّد، ليس لى منها فكرة واحدة، والعبارة كلها لى، وليس له منها كلمة واحدة».. وإن كان بعض الباحثين يعتقد أن هذا القول مبالغ فيه؛ لأن الأقرب إلى المنطق والصواب أن يكون "جمال الدين الأفغانى" هو المسئول عن رسم الخطوط الفكرية الرئيسية.. بينما يتولى الشيخ "محمد عبده" مهمة إبراز هذه الخطوط فى مقالات مُسهبة، بليغة.

ويذكر الدكتور "عثمان أمين" الذى يُعرف بأنه مؤرخ الإمام "محمد عبده"، وأول من أعد أطروحة دكتوراه حول فكره أن الإمام "محمد عبده" كان يعاونه فى تحرير «العروة الوثقى» بباريس رجل فارسى اسمه «مرزا محمد باقر».. كان ذا حظ كبير من الذكاء، وسرعة البديهة وقوة الذاكرة، حافظاً للكتاب المقدس، مستحضراً الآيات القرآنية، مُلماً بلغات كثيرة، وكان مسلماً فتنصرَّ.. وصار داعية للنصرانية من المبشرين.

وكان قد عرفه السيد "الأفغانى" من قبل فى "كفر بوشير" فى الخليج الفارسى، وجادله مرة، فبدرت منه كلمة طعن فى النبى صلى الله عليه

وسلم فأمر السيد "جمال الدين الأفغاني" من معه من الأفغانيين بضربه، وطرده.. فلما عاد "جمال الدين الأفغاني" إلى باريس، واشتغل مع الشيخ "محمد عبده" بإصدار «العروة الوثقى» أرسل إليه «مرزا باقر» بطاقة استئذان، فدخل، وذكر ما كان من ارتداده عن دينه ثم عودته إليه، وتكفيره عن ذنبه بالدعاية للإسلام. وعرض على السيد "جمال الدين" استعداده لخدمته في إدارة جريدة «العروة الوثقى»، فاشتغل فيها مترجماً عن اللغة الإنجليزية التي كان يتقنها نشراً، ونظماً. ولما ذهب الشيخ "محمد عبده" من باريس إلى لندن؛ لمحادثة رجال السياسة الإنجليزية في "المسألة المصرية"، سافر معه «مرزا باقر»؛ ليكون مترجما بينه وبينهم.

اللافت للنظر أن أعضاء جمعية «العروة الوثقى» التي صدرت الجريدة باسمها، كان لهم عهد وميثاق، لابد أن يُقسم به العضو الجديد عند التحاقه بها، ويعلن عن تمسكه به طوال حياته.. ونصه كالتالي:

«أقسم بالله مالك روحي ومالي، القابض على ناصيتي، المصرف لإحساسي ووجداني، الناصر لمن نصره، الخاذل لمن خذله، لأبذلنَّ ما في وسعي لإحياء الأخوة الإسلامية؛ لأنزلنها منزلة الأبوة والنبوّة الصحيحتين؛ ولأعرفنَّها كذلك لكل من ارتبط برابطة "العروة الوثقى" وانتظمَ في عقد من عقودها، ولأراعينَّها في غيرهم من المسلمين، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الإسلام، فإنني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين، وأخذ على نفسي في أثره مثل ما آخذ عليها في المدافعة عن شخصي.. أقسم بهيبة الله وجبروته ألا أقدم إلا ما قدمه

الدين. ولا أؤخر إلا ما أخره الدين، ولا أسعى قدماً واحدة فيها ضررا يعود على الدين جزئياً أو كلياً، ولا أخالف أهل الْعَقْد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه، وعلى عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل؛ لتقوية الإسلام والمسلمين، عقلاً وقدرة، بكل وجه أعرفه، وما جهلته أطلب من العارفين لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكانى "الوجودى"، وأسأل الله نجاح العمل، وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره والناشر للواء دينه. آمين».

اللائحة التنظيمية

ويذكر "رشيد رضا" تلميذ الأستاذ الإمام، وكاتب سيرته، أن الشيخ "محمد عبده" كان يتولى منصب نائب رئيس جمعية "العروة الوثقى". وقد كتب بقلمه مجموعة القواعد والقوانين التى تحكم عمل الجمعية من حيث التنظيم والعمل الداخلى.. وتضمها جميعاً "لائحة سرية" تشتمل على ثلاثين بنداً تتناول المهام السياسية والتنظيمية للجمعية وأوضاعها المالية، ثم بعض الأحكام العامة، وهى كالتالى:

– ينعقد تنظيم جمعية "العروة الوثقى" بثلاثة يقسمون اليمين المعهود.

– مذاكرة المجتمعين، عند الالتئام المعتاد، تكون فى أمور: التذكير بآيات الله. النظر فى حالة الإسلام عند بدئه، وما كان عليه النبى وخلفاؤه فقط

– البحث فى السبب الذى امتدت إليه سطور الإسلام، حتى صال على جميع الأديان، وكان يبتلعها فى زمن قصير – كيف انقلب الحال، وآل إلى ما نراه؟.

– يلاحظ كل باحث أن ذاته فى موضوع البحث، فيطلب العلة من نفسه

قبل أن يطلبها فى غيره، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والإنصاف.

ـ مدارسة أحكام الجهاد، وحقوق المسلم، وما هو مكلف به من معاملة غيره وما يفرض عليه إذا زحف الأعداء، لكسر شوكة الإسلام.

ـ النظر فى حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم للوقوف على إحساسهم الدينى، ومقدار الداعية الاعتقادية؛ ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به.

ـ كتابة كل فكر وتدوينه، ثم مجملاً مع ما تستقر عليه الآراء.

ـ العمل فى الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال فى مساعدة من يقوم بنصر الدين، وحمل السلاح للمقاتلة بين يديه عند المُكنة.

ـ كل واحد من أهل العقد مكلف بالعمل وإعداد أسبابه، وما لا يتم إلا به، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به، مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقداً، والثقة بمريد الانضمام إنما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها.

ـ يكون معظم الاهتمام بضم الصالحين للأمر من ذوى المكانة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمراء ورؤساء عشائر وغيرهم. وفريضة كل منهم أن يعمل للإسلام فيما خوّلَه الله.

ـ فى كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط، حتى يكون عند كل أحد أن مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى. ولا يُقْبَل قولٌ من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساوياً. العمل بذل المال

والروح. والأول أقرب الدليلين.

ـ على أهل العقد أن يرسلوا رُسُلاً حتى يكون سير العقد مَلَكَةً راسخة فيه، ويكون على قدرة كاملة فى تعريف القول، وتوفيق النصح مع طباع المنصوصين وحالة السلطة العارضة عليهم، فيكون حكيما فى عمله لا يحتاج لوصية من غيره، ولا لقيِّم يلاحظ عمله.

ـ يُسمح للعقد أن يبعث رسولاً من الخارجين عنه على أنهم وعاظ يعملون المعروف من الدين ويؤيدون مناطيق القرآن، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً.

ـ على الرسول إن كان من أهل العقد أن يكاشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد.

ـ من استحق باستعداده الدخول فى العقد فعليه أن يقدم رسماً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة. ولا يُستثنى من ذلك إلا عالمٌ أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء، على شريطة أن يبذل العالم وسعه فى تبيين الحق وبثه، والمعتقد جهده فى حمل معتقديه على العمل فى مقاصد العقد، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها.

ـ يجتمع أهل العقد فى كل اسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه.

النظام المالى

أما النظام المالى للعقد، فقد صاغه الإمام "محمد عبده" كما يلى:

ـ يجب على كل واحد أن يؤدى فى آخر كل جلسة مقدراً من النقد على

حسب استطاعته قليلاً أو كثيراً، يدور على الحاضرين من أصغرهم سناً بصندوق صغير له فوهة ضيقة، يضع فيها كل واحد ما تيسر خفيةً حتى لا يُعْلَم من أدى أقل ومن أدى أكثر، لا يُستثنى من ذلك أحد. ويُسمى هذا الصندوق "صندوق التبرع".

ـ يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أميناً.

ـ يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة: هذا مال حق التصرف فيه «لعقد الإخلاص»، تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس).

ـ يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه، وفي سبيل نشر أهداف التنظيم وإرسال الرسل الداعين إلى الحق، وفي إغاثة المقصرين ممن ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) إما مباشرة، أو على يد أحد نوابها.

ـ يكون للعقد أربعة دفاتر: أحدها لحصر أسماء رجاله. ثانيها لأسماء رسله. ثالثها لحصر النقد المجتمع. رابعها لإحصاء النفقات.

ـ إذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر، وأمكن تنميته على وجه شرعي مأمون الخسارة، فعلى العقد أن يدبروا أمر نموه.

ـ على القائم بضبط الحساب في الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة المعهودة في مركز العقد، أن يضعوا لها نظاماً حسب المعروف في بلادهم.

ـ لا يصرف شيء بقرار من أهل العقد، يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم.

– إذا قضت الحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية، وضيف فوات الفرصة بفوات الوقت، واحتيج إلى نفقة تقتضي زيادة عن الموجود، وجب على أهل العقد أن يبذلوا ما في وسعهم لإتمام العمل.

أحكام عامة:

أما بالنسبة للأحكام العام الخاصة بضبط وربط جمعية "العروة الوثقى"، كتب الإمام "محمد عبده" يقول: «لا يُباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم وذكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء. بل لا يُباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحالة عند رجال العقد..

– وعلى رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضاً، ويَعينُ كلٌّ منهم باقيهم، بقدر الاستطاعة.

– الاستطاعة لا تفسَّر بالأهواء حتى يُعدُّ كل وَهْم عجزاً، وإنما هي المعرفة عند المخلصين التي لا يعدمها الإنسان مادام حياً قادراً على الحركةً.

– إذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم، فعليهم مخابرة من يتولى مواصلتهم فيما يريدون، وأخيراً القانون الداخلي للاجتماع يضعه أهل العقد.

(٢)

كرّس الشيخ "محمد عبده" كل وقته لتبويب صحيفة «العروة الوثقى» وكتابة موادها، فصدر العدد الأول فى (١٣ مارس عام ١٨٨٤) وفى صفحته الأولى افتتاحية بعنوان: «الاستعمار فى مصر» يحث فيها أبناء الأمم الشرقية على الاتحاد؛ لدرء الأخطار المحدقة بهم، والمهددة لكيانهم، وفيها دعوة للمواطنين فى كل أمة شرقية أن يتكتلوا وينبذوا الفرقة والانقسام، ويقاوموا الاستعمار بكل ما لديهم من حول وقوة، وثبات وإيمان، وفيها استنكار للاحتلال البريطانى الذى نُكبت به مصر (عام ١٨٨٢) وإشادة بمركز مصر فى الشرق، ودعوة صادقة لتحريرها من نير الاحتلال، وتحذير المصريين من أن يثقوا بوعود الإنجليز الكاذبة.

ثم صدر العدد الثانى وعلى صفحته الأولى مقال حول «إنجلترا والمسألة المصرية» يُعلن أن الحل الوحيد للمسألة المصرية «لا يكون إلا على يد أهلها». أما العدد الثالث، فقد تحدث عن «ماضى الأمة وحاضرها» ويذكر بأن قوة الأمم، ومدنيتها لا تكون إلا فى التمسك بأصول دينها..

«فتاريخ الأمة العربية يؤكد أن الدين الإسلامي هو الذي وحّدها، وقوّاها، وهذّبها ونوّر عقلها.. فسادت على العالم وساست من تولته بسياسة العدل والإنصاف.. وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نبهتها شريعتها وآيات دينها إلى طلب الفنون المتنوعة، والتبحر فيها، ونقلوا إلى بلادهم طب بقراط، وهندسة إقليدس، وحكمة أفلاطون وأرسطو، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا..».

النهضة من زاوية إسلامية:

أما السياسة الدولية للعروة الوثقى، فقد انحصرت في الدفاع عن الإسلام بوجه عام، ومناشدة تركيا - وهي دولة الخلافة وصاحبة السيادة الشرعية على مصر - لتؤدي واجبها، وكانت الجريدة في خطابها السياسي تتهم الدول الأوروبية بأنها "ذئاب مفترسة".

وكان طبيعياً أن تنتشر «العروة الوثقى» في العالم الإسلامي، ويُقبل عليها الناس في مختلف الأقطار؛ لأنها استطاعت منذ صدور عددها الأول أن تحدث دوياً بعيد الصدى فكانت كل مقالة منها درساً رائعاً يبسط للشرقيين حقوقهم، ويُعدد المظالم المحيقة بهم، ويفضح الدسائس والمؤامرات التي تدبر في الخفاء للقضاء على روح التحرر فيهم، ويُندد بحياة الذل، والخمول، والجشع التي يحياها كثير منهم؛ ويدعوهم إلى الإتحاد والتضامن وتناسي كل اختلاف أو ضغينة فيما بينهم، لصد عادية المستعمرين عنهم؛ «لأن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب».

.. وكان بمقدور كل إنسان أن يحصل عليها مجاناً حسبما جاء فى إشارة بالعدد الأول.. تقول: "ترسل الصحيفة إلى الذين نعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل؛ ليتداول الأمير والحقير والغنى والفقير، ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه إلا أن يكتب إلى إدارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذى يريده..».

وعلى الرغم من أن «العروة الوثقى» لم يصدر منها سوى ١٨ عدداً فى مدة لا تزيد على سبعة أشهر إلا أن تأثيرها كان قوياً فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى، فيروى "رشيد رضا" كاتب سيرة الأستاذ الإمام "محمد عبده" أنه سمع "محمد بك المؤيد" يقول: «كنت فى بغداد فى عهد صدور «العروة الوثقى» التى كانت تُرسل إلى الزعيم العربى الأكبر فى العراق، السيد "سلمان الكيلانى"، نقيب السادة الأشراف، وكان يقول: «كلما جاء عدد من "العروة الوثقى" يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة، قبل أن يجىء العدد الذى بعد هذا.».

ويضيف "رشيد رضا" قائلاً: «سمعت أستاذنا الشيخ "حسين الجسر" عالم سوريا الوحيد فى الجمع بين العلوم الإسلامية، ومعرفة حالة العصر السياسية، يقول: ما كان أحد يشك فى أن جريدة "العروة الوثقى" ستُحْدِثُ انقلابا عظيماً فى العالم الإسلامى لو طال عليها الزمان.

.. ولم يكن هذا التأثير القوى لـ "العروة الوثقى" بعيدا عن الدوائر الأوروبية والاستعمارية، فأصابها ذعر شديد، خوفاً من تأثر البلاد الإسلامية المستعمرة عليها. فقلقت من اتساع نفوذ هذه الجريدة،

وأخذت تعمل لوقفها، وتعطيلها وعدم وصولها إلى المستعمرات الإنجليزية بكل وسيلة.

ويذكر "عبد الرحمن الرافعي" أن الحكومة الإنجليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند، وشددت في مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، بل كانت تتوجس منها خيفة وتعدّ العُدة؛ لمصادرتها قبل ظهورها.. فأوعزت إلى الحكومة المصرية بمصادرتها، وتغريم كل من توجد عنده، من خمسة جنيهات إلى ٢٥ جنيهاً.

وفي هذا الشأن كتبت «العروة الوثقى» في عددها التاسع، الصادر في ٢٠ مايو ١٨٨٤، تقول: «انعقد مجلس النُظار المصري في القاهرة برئاسة نوبار باشا واهتم بالبحث في شأن "العروة الوثقى"، ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاضياً عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الأقطار المصرية، وتراقب جولاتها في تلك الديار، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر أن كل من توجد عنده "العروة الوثقى" يُغرّم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً، وهي غرامة جسيمة ربما دعا إليها عسر المالية المصرية ببركة تصرف الإنجليز في مصر..

«.. هذه جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم، ولها سعي بل كل السعي لخيبة آمال أعدائهم، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا قدحاً في عَمْرٍو، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا، وإنما عملها سكب مياه النصح على لهب الضغائن؛ لتتلاقى قلوب الشرقيين عموماً على

الصفاء والوداد، تلتمس من أبناء الأمم الشرقية أن يلقوا سلاح التنازع ويأخذوا حذرهم وأسلحتهم لدفع الضواري التي فغرت أفواهها لالتهامهم. ومن رأيها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الأمن من طروق الناهب..»

وتختتم «العروة الوثقى» تعليقها، فتقول: «لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من منع "العروة الوثقى" عن دخول القطر المصري، وليعلموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في هذا المنع، فإن حكومة شرقية لا تسمح لها غيرتها بمنع جريدة لا شيء فيها سوى الدفاع عن الشرقيين، وإنما منشؤه حكومة إنجلترا، وشأنها معلوم عند كل عارف بأحوالها».

محمد عبده يتحدث..

وأياً كان الأمر، فالمحقق أن ثمة مهام أخرى كان يقوم بها الشيخ "محمد عبده" طوال فترته الباريسية إلى جانب تحرير "العروة الوثقى"، منها مثلاً زيارته إلى لندن بدعوة من صديقه الإنجليزي مستر "بلنت".. وقد أشارت "العروة الوثقى" إلى هذه الزيارة، فكتبت تقول: «رأينا أن يذهب الشيخ "محمد عبده" - المحرر الأول لهذه الجريدة - إلى لندن إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لأمتنا، ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الإنجليزية؛ وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي ما مرت عليها قدمُ شرقيٍّ إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاصُ منه؛ وليسبر أغوار المطامع الإنجليزية التي لا يدرك منتهاها، تلك المطامع التي بعدما التهمت ثلث المسكونة، وطوقّت

كرة الأرض بالفتح والاستملاك، لم تزل فى مدّ لا جزر معه، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا فى رغبة شديدة لابتلاع ممالك العالم».

وفى هذه الزيارة، التقى "محمد عبده" بعدد من رجال السياسة البريطانية وجرت بينه وبينهم أحاديث مُسهبة حول "المسألة المصرية"، نُشر بعضها فى صحف لندن، وأهمها مناقشة خطيرة دارت بينه وبين اللورد "هرتنكتون" وزير الحربية الإنجليزية.. هذا نصها:

اللورد: ألا يرضى المصريين أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الإنجليزية، وألا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الأتراك.. وفلان باشا، وفلان باشا؟!

الشيخ "محمد عبده": كلا.. إن المصريين قوم عرب، وكلهم مسلمون إلا قليلاً. وفيهم من محبى أوطانهم مثل ما فى الشعب الإنجليزى، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل إلى الخضوع لسلطة من يخالفه فى الدين والجنس. ولا يصح لحضرة اللورد، وهو على علم بطبائع الأمم أن يتصور هذا الميل فى المصريين!

اللورد: هل تنكر أن الجهالة عامة فى مصر؟ وأن الكافة لا تفرق بين الحاكم الأجنبى والحاكم الوطنى؟ وأن ما ذكرته من النفرة من سلطة الأجانب إنما يكون فى الأمم المهذبة؟

الشيخ "محمد عبده": (غاضباً مُحتداً):

أولاً: إن النفرة من ولاية الأجنبى ونبذ الطبع لسلطته، مما أودع فى فطرة البشر، وليس بالمحتاج للدرس والمطالعة. وهو شعور إنسانى ظهرت قوته فى أشد الأمم توحشاً «كالزولوس» الذين لم تنسوا ما

كابدتموه منهم فى الدفاع عن أوطانهم.

وثانياً: أن المسلمين مهما كانوا، وعلى أى درجة وجدوا لا يصلون من الجهل إلى الدرجة التى يتصورها الوزير، فإن الأميين منهم، ومن لا يقرأون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين، ومن أجلّها وأظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفيهم فيه. وإن لهم فى الخطب الجُمعيّة ومواعظ الوعاظ فى مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية، وإن جميع ما ينقلونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ويحدث من الإحساسات الشريفة الإنسانية ما لا ينحطّون معه عن سائر الأمم، خصوصاً المصريين الذين ينطقون باللسان العربى، ويفهمون دقائق ما أودع فى ذلك اللسان، وهو لسان دينهم.

وثالثاً: إن أرض مصر من زمن "محمد على" قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود فى بلاد أوروبا، وأخذ كل مصرى نصيباً منها على قدره، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون. والأخبار العمومية توصلها إليهم الجرائد العربية، ومن لا يقرأ يستتبئ الأخبار من القارئين. فبهذا أضافوا إلى الشعور الطبيعى والتقليد الدينى محبة وطنية منشأها التهذيب العمومى، قوى بها الميلان الأولان، ولا أظنهم يخالفون فى ذلك سائر الأمم».

ويبدو أن الشيخ "محمد عبده" لم يستطع أن يقول كل ما كان يريد للوزير الإنجلزى، فكتب تعليقاً على حواره معه فى «العروة الوثقى» يفيض حماسة وثورة.. قال فيه: «إن كانت هذه عقيدة رجال الحكومة

الإنجليزية في الأمم التي يتسلطون عليهـا، فأي مـعاملة تكون لهم؟ ألا يعاملونهـا مـعاملة العجمـاوات والحيوانات الرتّع؟ بلى، هكذا يعاملون، وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على مـا يعملون. فـالمصريون الآن بين أمـرين أفـضلهـمـا أيسـرهمـا: إمـا أن يتكاتفـوا ويتـضـافروا ويبذلون أمـوالهم وأرواحـهم، في حـفظ شـرفـهم الإنسـانـي، ومكانتـهم العـربية وأداء حق عـقيـدتهم الدينيـة، ويخلصـوا أنفسـهم من عبودية قـوم لا ينظرون إليهم الا كما ينظرون إلى البغال والحمير، وإن همّـوا بذلك وجـدوا لهم من إخـوانهم المسلمـين أنصـاراً ينتظرون الآن حـركـة منهم، وهذا أشـرف الأمـرين. وإمـا أن ينسلخـوا من جـمـيع الخصائص الإنسانية، ويخلعوا حلية الإيمان، ويتبرأ منهم شرف العرب؛ وليجعلوا نير العبودية على أعناقهم؛ وليقاسموا الحيوانات في حظوظها؛ وليستعدوا لكل ذلة؛ وليقبلوا كل ضيم، وهذا أعسر الأمرين وأدناهما..». وفي لندن، واصل الشيخ "مـحـمـد عـبـده" لقـاءاته مع أعضـاء مـجلس العموم، بمساعدة صديقه مستر "لانت"، الذي نزل "الإمام" ضيفاً عليه في منزله الكائن في (.. 10 Gems, st.)

زيارة لمجلس العموم:

وفي كتابه: «جوردون في الخرطوم» يسـجل بلنت في يومياته الأيام التي أمـضـاهـا الشيخ "محمد عبده" في لندن، ويقول: «ذهبت مع عبده إلى مـجلس العمـوم ولم نجد عضـو المجلس مستر "لابوشير" ولكننا وجدنا "چورچ هوارد"، الذي صـحـبنا في جـولة داخل المبنى. وكنت قد طلبت من"عبده" أن يرتدي جبته وعمامته البيضاء، مما أشـاع في بهو المجلس

جواً لطيفاً وهو ما استرعى الأنظار، فتسابق النواب والزوار إلى الردهة؛ لرؤية أحد قادة الثورة المصرية الذى جاء إلى إنجلترا لأول مرة، يطلب الجلاء عن مصر ويرى البلاد التى كانت السبب فى نكبه بلاده».

ويروى مستر "بلنت" أن أحد النواب، وهو مستر "تشيسون" قد دعاهما على العشاء، وأصرّ المصر على التقاط صورة للشيخ، وقمت بتقديمه لعدد من النواب.. وفى لقاء مع النائب "لابوشير"، (حضره "ميرزا باقر" الذى رافق الشيخ "محمد عبده" ليتولى بنفسه شئون الترجمة مع المسئولين الإنجليز) حاول هذا النائب أن يقنع "الإمام" بأن مستر "جلادستون" رئيس الوزراء يريد إجلاء القوات الإنجليزية عن مصر، وأن خير طريقة للجلاء هى أن يمتنع المصريون عن دفع الضرائب طوال وجود هذه القوات. لكن "الإمام" اعترض على ذلك قائلاً: «إن مستر "جلا دستون" لم يكف عن الحديث حول الجلاء فى الوقت الذى ظل يرسل فيه قوات أكبر، ويملأ البلاد بالموظفين الإنجليز» وشكا من أن الامتناع عن دفع الضرائب سيسفر بأنه مبرر للسيطرة. وعبثاً حاولا "لابوشير" مثل غيره من النواب، أن يقنعوا عبده بأى إحساس ينم عن إخلاصهم له، ولمصر..

.. وقد انتهز مستر "بلنت" فرصة وجود صديقه الشيخ "محمد عبده" فى لندن، وإقامته فى منزله؛ ليجرى معه، بنفسه، حواراً نشرته صحيفة «بول ميل جازيت صن» فى ١٧ أغسطس ١٨٨٤. ويرجِّح أن زوجة "بلنت" هى التى قامت بترجمة الحوار وإعداده للنشر؛ لأنها كانت تجيد التحدث باللغة العربية.

(٣)

يبدأ الحوار الذى أجراه مراسل صحيفة «بول ميل جازيت ص.ن» الإنجليزية مع الشيخ "محمد عبده" فى صيف عام ١٨٨٤ بلندن، بمقدمة تلقى بعض الأضواء على شخصية "محمد عبده": فتذكر أنه مصرى قح، ولا يتكلم غير العربية، ولا تبدو عليه أقل صبغة من الخلق الغربى.. وهو رجل معتدل.. وانضم إلى "عرابى" والحركة الشعبية قبل الحرب، وأصبح من زعمائها، وأفلت من حبل المشنقة.. وحكم عليه بالنفى ثلاث سنوات.. أما الآن فهو يقوم بأول زيارة لأوروبا كى يرى بعينى رأسه البلد (يقصد بريطانيا) الذى خرّب بلده.

ثم يتواصل الحوار، كالتالى:

الصحيفة: بدون مناقشة الماضى الذى نعترف جميعاً بأنه شهد أخطاء فاحشة، ما رأيك فى الحالة الحاضرة بمصر والسياسة التى يجب اتباعها؟

الشيخ "محمد عبده": منذ وصولى إلى إنجلترا سألنى الجميع هذا السؤال، وكل إنجليزى يقول إنه يرجو الخير لمصر، ولكن أى السياسيين

عندكم حاول أن يبرهن على صدق تصريحاته؟ لقد كنا نؤمن نحن المصريين (أنصار الحزب الحر) بمذهب الحرية الإنجليزى والتعاطف الإنجليزى، ولكننا لم نعد نؤمن بهذا؛ لأن الحقائق أقوى من الألفاظ. أما مساندتكم للحرية فنحن نرى بوضوح أنها مسألة من أجلكم وحدكم، وأما تعاطفكم معنا، فهو تعاطف الذئب مع الحمل الذى يخطط لالتهامه. لقد قضيتم على كل مالدينا من خير حتى تجدوا مُبرراً للاستمرار فى تملك بلدنا.

المراسل: صدقنى، إن هذا غير صحيح. قد يبدو لك صحيحاً، ولكنه ليس كذلك. فلا المستر "جلادستون" ولا أى من وزرائه، يرجو سوى مغادرة مصر فى أقرب وقت وعلى أتم وجه.

الشيخ: إذا صح هذا، فلماذا لا تغادرونا على الفور؟ إن الشىء الوحيد الذى علمتنا إياه الحكومة الانجليزية هو أن نتحد إذا رغبنا فى رحيلكم. لقد كنا نتنازع قبل الحرب وأثناءها، وكنا نرجو أن نحطم استبداد حكامنا، فرحنا نشكو من الأتراك ونعدّهم غرباءً، وكنا نرجو أن نصلح أنفسنا سياسياً، وأن نتقدم على طريق الحرية مثلما تقدمت أمم أوروبا. أما الآن فنحن نعرف أن هناك ما هو أسوأ من الاستبداد ومن هو أسوأ فى العداء من الأتراك. نحن نرى فيهم إخوة لنا فى الدين، إذا لم يكن فى الجنس، فإذا تركتمونا وشأننا معهم، لعرفنا كيف نتقدم فى سلام، فنحن لا نبتغى منكم إلا شيئاً واحداً. هو أن تحلوّا عنا من الآن وإلى الأبد.

المراسل: هل تصفحون عن "توفيق" ضمن صفحكم عن الأتراك؟

الشيخ: لقد أساء إلينا "توفيق" باشا إساءة بالغة حين سمح بدخولكم إلى بلدنا. وانضم إلى أعداء دينه وقت حرب، ومن المستحيل أن ينال احترامنا، ولكن قد نصفح عنه إذا هو ندم على ما فعل. ولا سيما إذا هو تخلص منكم، فنحن لا نرغب فى خونة بوجوه مصرية وقلوب إنجليزية.

المراسل: وما رأيكم فى الفرنسيين؟ إن رحيلنا عن مصر الآن سيعنى بالتأكيد أنهم سيحتلون بلدكم بعدنا؟

الشيخ: لا أظن ذلك. فالفرنسيون يعرفون أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا موافقتنا على حكمهم، كما لم تستطيعوا ذلك أنتم. لابد أن نقاومهم مثلما قاومناكم. فنحن لا نريد حكاماً أجانب من أى بلد. ونعرف كيف نجعل مثل هذا الحكم مستحيلاً. والفرنسيون لا يمكن على أى حال أن يلحقوا بنا من الضرر أكثر مما فعلتم

المراسل: والمهدى؟

الشيخ: إن "محمد أحمد" (المهدى) لا خطر له على مصر إلا بوجودكم فيها. فإذا رحلتم عن مصر فلن يرغب فى الهجوم علينا، ولن يكون فى هجومه - إذا فعل - أى خطر علينا. وهو قد نال العطف من الجماهير؛ لأنهم يرون فيه مخلّصاً من العدوان المسيحى. وسوف ينضمون إليه إذا أتى إليهم.

المراسل: ومتى سيحدث هذا؟

الشيخ: لقد وصل أنصار "محمد أحمد" إلى الصعيد بالفعل، ولكنه هو نفسه لن يتقدم إلا إذا استولى على الخرطوم. وحكومتنا تبذل

كل ما فى وسعها لتقويته.

المراسل: كيف؟

الشيخ: عن طريق المعاهدة التى أبرمتها مع ملك الحبشة. مما بث التعصب فى الناس. لأن فى سنتنا - مما يعرفه الجميع - أن الأحباش سوف ينقضُون ذات يوم على مدينتنا المقدسة، مكة ويدمرونها. ويرى الناس فى كل مكان أن هذه المعاهدة تشكل خطراً جديداً على دينهم. فكيف يعقد ساستكم حلفاً مع هؤلاء القوم الهمج؟ كيف تأتّىَ لهم أن يضيفوا هذه المشكلة الجديدة إلى بقية المشكلات.

المراسل: ولكن أليس كل الشعب السودانى متعصباً بالفعل؟

الشيخ (ضاحكاً): السودانيون ليسوا أكثر منى تعصباً. فحين كنت أعلّم الفلسفة بالقاهرة كان كثيرون من الطلاب المصريين يخشون حضور محاضراتى. ولكن كان عندى أربعة وثمانون طالباً من السودان، لم يتخلف منهم عن الحضور أحد. ومع ذلك فالسودانيون إذا هددهم غزو أجنبى يصبحون متعصبين، تماماً كما سيحدث لكم إذا سار جيش من المسلمين فى شوارع لندن.

المراسل: هل توجد لهذا علاقة بخبر الهياج فى الجزيرة العربية؟

الشيخ: الخبر صحيح. وقد كنا نتوقعه منذ فترة طويلة، ولست أشك فى أن معاهدتكم مع الأحباش قد عجلت به. فالمسلمون إذا تهددهم شيء حملوا السلاح. وشعب اليمن ليس أكثر تعصباً من السودانيين، ولكنهم يعشقون حريتهم، شأنهم شأن جميع العرب.

المراسل: وماذا يجب أن نفعل لتفادى العاصفة؟

الشيخ: كفوا عن تهديدنا وارحلوا عن بلدنا.

المراسل: ولكن مـاذا سيـحدث للمسيـحيـين فى مصـر إذا رحلت قواتنا؟

الشيخ: لم تحدث فى مصر مذابح سوى تلك التى تسببتم فيها أنتم، فوصول أسطولكم إلى الإسكندرية أشعل حوادث الشغب بالمدينة، ونزول قواتكم إلى البر أشعل الشـغب فى طنطا. ولم يحدث أن تعرضت حياة مسيحى للخطر إلا مع حضوركم، ولن يتكرر ذلك إذا رحلتم. فليس بيننا وبين المسيحيين أى نزاع طالما أنهم يحافظون على قوانيننا ولا يحاولون التدخل فى الحكم.

المراسل: هل تظن أنه لا توجد أمام السلام والرخـاء فى مصـر أى عقبة سوى وجودنا هناك؟ ألا ترجو أن تشهد عودة "الحزب الوطنى" قبل أن ترحل؟ ألا تحـب أنت نفسك أن تعود إلى مصر؟

الشـيخ: لو أننى أعـتـقـد أن حكومـتكم لديهـا أى رغبـة جـديدة فى مصلحتنا؛ لاقترحت عليكم سياسة. ولكن أى جدوى من إضاعة الألفاظ؟

المراسل: قل، مهما كان الأمر، فإنْ كان مـا تعنيه الحكومة أو ترجوه ففى إنجلترا الكثيرون ممن يرون إنصاف مصر بأى ثمن.

الشيخ: إذا شاءت إنجلترا أن تُصلح الخطأ الذى ارتكبته فى حقنا، فيجب عليها ـ كما ذكرت ـ أن تقدم لنا أول دليل على إخلاصهابإخراج قواتهـا من مـصـر. ثم يلى ذلك أن تتـفق مع الدول الكبـرى فى أوروبا وجـلالة السلطان على اختـيـار حـاكم جـدى لنا. ولست مـؤهلاً لتـحـديد شخص هذا الحاكم، ولكن مهما كان الاختيار فلابد أن يقع على شخص

غير مكروه من الشعب. وأن يوافق عليه السلطان ويجب أن يعيّن لمدة محددة، لتكن سبعاً أو عشراً من السنين. وبعدها يسمح للشعب فى نهاية هذه المدة بانتخاب حاكمه بنفسه. فإذا أثبت الحاكم أنه رجل أمين، أمكنه الاحتفاظ بمنصبه. ولكن إذا حدث العكس فيكون من حق الشعب أن يقصيه، وبذلك يمكن انتظار النتائج

المراسل: ولكن كيف يمكن التأكد من رغبات الشعب؟ بأى شكل من الانتخابات؟

الشيخ: إن أى حاكم جديد الآن، يكون مسلماً ويتولى الحكم كمخلّص لمصر من أيدى القوات الإنجليزية، سوف يحبه المصريون، ولكن لا شرط إلا أن يكون مسلماً، ومصرياً بالميلاد إذا أمكن. ومع ذلك فمن الضرورى أن يقنع بسلطة محدودة. فما نريده ليس ملَكاً جديداً وإنما زعيماً للأمة المصرية. يحكم تحت السيادة الدينية للخليفة. وهذا النوع من الحكام يفهمه المصريون، فهم لا يريدون ملَكاً.

المراسل: وفى ظل هذا الحاكم هل يمكن أن تعود إلى مصر أنت وزملاؤك المنفيون؟ ما رأيك فى عرابى؟

الشيخ: أحب أن أرى عودته. وإذا تولى منصباً فمكانه هو المجلس (البرلمان) الذى يجب دائماً أن يتمّم عمل حاكم مصر ويراقبه. وهو - عرابى - رجل فصيح العبارة، نبيل الأفكار، صادق الطوية، يتجه نفوذه كله نحو الخير، ولكنه شديد الإهمال للتفاصيل. مما لا يجعله يصلح لأن يكون إدارياً جيدا، فليعد كرئيس للمجلس إذا انتخب، هذا هو مكانه

المراسل: والوزارة؟ إن ما تشكو منه حكومتنا هو أنها لا تستطيع

توفير طاقم من الرجال العاملين كى يحكموا البلد.

الشيخ: هذه غلطتها إذا كانت قد فشلت، فمصر لا تحتاج إلى الرجال الشرفاء، ولا إلى الأكفاء. ولكنكم تصرون على اختيار أولئك الذين ينفذون لكم مهمتكم . ولا يوجد رجل شريف فى مصر يقبل العمل لمصلحة الحكومة الإنجليزية، وأنتم - مرة أخرى - تصرون على أن يحكموا بطريقتكم وأن يتحدثوا بلغتكم، والشرفاء بشكل عام لا يتكلمون الإنجليزية، ولا يحبون الأساليب الإنجليزية. فاتيحوا لنا أن نختار الحاكم الذى نحبه، وعند ذاك ننضم جميعاً لمساعدته، فنحن جميعاً نريد الإصلاح. ونحن جميعاً نريد العدل، ونحن جميعاً نريد التعليم. ولكن هناك مثلاً قديماً. يقول: «إذا أنتن رأس السمكة فاحت رائحة ذيلها» ونحن نريد حاكماً نستطيع أن نحترمه، أتيحو لنا زعيماً شريفاً لأمتنا، ومكّنوه من تفويض عاهلنا السلطان، ودعونا وشأننا. وعندئذ سوف نتمتع بالسلام ببركة الله. بل سنحاول أن نسدد ما علينا من ديون.

المراسل: ولكن، هل كل المصريين يفكرون مثلك؟ إننى أميل إلى الاعتقاد بأن تسعة أعشار الفلاحين سرعان ما سيفضلون أن تقلل حكومة مسيحية ضرائبهم على أن ترفعها حكومة مسلمة.

الشيخ: لا تخدعن نفسك. فالفلاحون مثقلون بالضرائب، ولكنهم لا يشكون من ضرائبهم فى الوقت الحاضر. فهم يفكرون أولاً فى كيفية تخليص بلدهم من أيدى الغريب. وإذا تيسر لهم ذلك أحبوا أن يسددوا ضرائب أكثر حتى يروا هذا الهدف مُتحققاً. وأنا أعلم ذلك لأنى على اتصال بمراسلين فى كل أرجاء مصر. قد تستطيعون إلغاء جميع

الضـرائب، ولكنهم لن يبـاركوا خطواتكم، إذا اتخـذتموها مبـرراً، فى الوقت ذاته للبـقـاء، كـلا، كـلا، ارحلوا عنا الآن، وعندئذ ندعـو الله كى يكافئكم على ما أسديتموه لنا. لكن، إياكم أن تحاولوا أن تسدوا إلينا المزيد من الخير، فخيركم قد ألحق بنا ضرراً أكثر من اللازم.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الحوار ظل حبيس اللغة الانجليزية حتى ترجمه د. عثمان أمين بعد نحو ٥٤ عاماً، وبالتحديد فى عام ١٩٤٠ ونشره فى مجلة «الثقافة» فى العدد ٨٤ الصادر فى ٦ أغسطس.. لكن الباحث الدكتور "على شلش" لاحظ أن هذه الترجمة متعجلة وغير أمينة، فأعاد ترجمة الحوار من جديد، ونشره فى كتابه "محمد عبده" الصادر فى "سلسلة الأعمال المجهولة".

أسباب التوقف عن الصدور:

وأياً كان الأمر، فلقد توقفت «العروة الوثقى» عن الصدور بعد نحو شهرين من إدلاء "محمد عبده" بهذا الحديث للصحيفة الإنجليزية. وكان العدد الثامن عشر الصادر فى ١٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ هو آخر أعدادها.

ويناقش د. لويس عوض فى كتابه «تاريخ الفكر المصرى المعاصر» أسباب توقف الصحيفة، ويقول: «إن الاعتقاد بأن الحكومة البريطانية منعت تداولها فى مصر والهند، هو سبب غير مقنع؛ لأن "يعقوب صنوع" كان يهرّب مجلته "أبو نضارة" التى كان يصدرها فى باريس أيضاً، فى ظروف أشد حرجاً من ظروف "العروة الوثقى" ورغم ذلك لم تتوقف..»

ويضيف: «قيل إن السبب الحقيقى كان انقطاع التمويل. وهو الأرجح: "العروة الوثقى" كانت توزع بالمجان فى كل مكان، وبالتالى لم

يكن لها تمويل ذاتي..»

ويذكر "لويس عوض" أيضاً أن الشيخ "محمد عبده" كان يرسل من «العروة الوثقى» ٥٥١ نسخة مجانية إلى القاهرة، توزع كالتالي:

عشر نسخ من كل عدد لحاشية الخديو، و ثمان وثلاثون نسخة للباشوات وفي مقدمتهم "رياض باشا" و"شريف باشا"، وسبع وعشرون نسخة للبكوات، وفي مقدمتهم "عبد السلام المويلحي" بك، و سبع وخمسون نسخة للأفندية، وست عشرة لرجال الدين وفي مقدمتهم علماء الأزهر، وثمان للصحف المصرية، أما في استامبول، فكان يرسل إليها ثمان وثمانين نسخة من كل عدد، لكبار رجال الدولة ولبعض اللاجئين السياسيين، تبدأ بالسلطان "عبد الحميد" نفسه، ثم شخصيات مثل "منيف باشا"، و"خير الدين باشا" اللاجيء التونسي والشيخ "أبو الهدى" و"هودالفا" السلطان الخاص، ومعين الملك سفير إيران في استامبول، و"إسماعيل جودت" مدير البوليس المصري، أيام الثورة العرابية وكان يعمل في خدمة الأمير "حليم"..

وكانت بيروت تتلقى مائة وأربع عشرة نسخة مجانية ودمشق ثلاثا وعشرين نسخة مجانية وشمال أفريقيا عشرين نسخة مجانية وطرابلس (ليبيا) إحدى عشرة نسخة مجانية وبغداد سبع نسخ مجانية، ومكة خمس نسخ مجانية والمدينة نسختين مجانيتين.

ويذكر د. "لويس عوض" أن الوثائق البريطانية تؤكد أن مجموع النسخ المجانية الواردة في القوائم هو نحو تسع مائة نسخة.. ولذلك كان طبيعياً أن تصطدم المجلة بمشكلة التمويل.. ويبدو أن "جمال الدين

الأفغاني" كان يحاول من جانبه أن يبحث عن مصدر للتمويل؛ ليضمن إستمرار صدور الصحيفة.. فها هو يُحلف الشيخ "محمد عبده" أن يبعث بمراسلات إلى بعض الشخصيات في مصر والعالم الإسلامي؛ لكي تبعث بالقوت حتى لا تضطر الصحيفة للتوقف، وهو ما حدث بالفعل بعد مرور نحو سبعة أشهر على صدورها..

ويشير "محمد رشيد رضا" إلى أن الشيخ "محمد عبده" قد عبّر عن اختلاف وجهة نظره مع وجهة نظر أستاذه الأفغاني منذ البداية فيسند إلى الشيخ "محمد عبده" قوله: «لقد عرضت على السيد "جمال الدين الأفغاني" حيث كنا في باريس؛ أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات، ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا، فلا تمضي عشر سنوات إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك أوطانهم والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب فينتشر أحسن انتشار. فقال الأفغاني لي: اسكت، إنما أنت مثبِّط!!».

ورغم ذلك، وأما إصرار "الأفغاني" على منهجه السياسي من خلال إصدار «العروة الوثقى» ونشر المقالات النارية على صفحاتها، واصل "محمد عبده" الطريق معه.. بل وقام بكتابة عدة رسائل لعدد من الأصدقاء والمريدين يطلب منهم العون.. من بينها رسالة بعث بها إلى صديقه "ألفريد بلنت" يطلب فيها معاونته، فرد عليه "بلنت" برسالة، يقول فيها: «أما فيما يتعلق بصحيفتكم فيسعدني أن أبذل كل ما بوسعي لمعاونتكم ولكني أنصحكم بكل قواي أن تلزموا الاعتدال في لغتكم حين

تكتبون عن الحكومة الإنجليزية..».

الاسم "الحركى" للإمام؟!

انطلاقاً من هذه الغاية، اعتزم الشيخ "محمد عبده" أن يسافر إلى تونس بناء على طلب من أستاذه الأفغاني؛ لاستطلاع الرأى، وإنشاء فرع للجمعية فى تونس والحصول على بعض المال للصحيفة.

وها هو "محمد عبده" يكتب للأفغانى رسالة يتحدث فيها عما قام به فى تونس، فيقول: استطعت أن التقى هنا العلماء ورجال الدين، وقد عرفتهم بنا، وقلت لهم: «إن "العروة الوثقى" ليست اسم الصحيفة وإنما اسم جمعية أسسها السيد فى حيدر أباد، ولها فروع فى كثير من الأقطار، لا يدرى أحدهما عن الآخر شيئاً، ولا يعرف هذه الفروع إلا الرئيس وحده. كما قلت لهم إننا نرغب اليوم فى تأسيس فرع جديد فى هذا البلد.»

ثم يتحدث الشيخ "محمد عبده" عن مقابلاته مع بعض المشايخ مثل "الورطانى"، و"أبو حجاب"، و"السنوسى" ويضيف: «لقد وافقوا، وشرعت فى تأسيس هذه الجمعية فى تونس، ولكن المال غير موجود، وطرقت جميع الأبواب، ولكن بلا جدوى، ولكى ننجح فلابد من المضى فى الإصرار، وهذا ما لا أجده أمراً مقبولاً». ويروى "محمد عبده" فى رسالته أنه اتخذ لنفسه اسماً مستعاراً فى تونس وهو «العربى بسيس» وأنه ينتظر من أستاذه المراسلة بهذا الاسم.

ثم يختم رسالته، قائلاً: «إنهم يظنون هنا أننا نملك كنزاً كبيراً، وأن قوة مجهولة تتولى إمدادنا بما نريد. وقد سرتنى هذه الظنون أكثر مما سرنى الكنز نفسه».

والثابت أن زيارة "محمد عبده" لتونس جاءت بعد أن كانت «العروة الوثقى» قد توقفت بالفعل، وبعد أن تبين للشيخ "محمد عبده" ـ على الأقل ـ أنه كان على حق عندما اقترح على "الأفغاني" أن ينشغلا بتربية الشباب، لا بالسياسة.. لذلك كان طبيعياً ألا يتردد "محمد عبده" خصوصاً بعد أن تبين له أن مهمته في تونس لن يقدّر لها النجاح على نحو ما كان يرجو أستاذه "الأفغاني"ـ في أن يفكر في العودة إلى بيروت حيث زوجته وأولاده هناك..

وبعد أيام استجاب لفكرة وردت إلى خاطره، وظلت تشغله طويلاً، وهي أن يسافر إلى مصر متخفياً.. ويظل محتفظاً باسمه المستعار في تونس وهو العربي بسيس.. وأمضى هناك بعض الوقت، والتقى خلسة بعدد من الأصدقاء، لكنه شعر بأن حياته في خطر، خصوصاً عندما علم ان الخديو لن يسمح له بالعودة إلا بعد أن تنقضي مدة النفي وهي ست سنوات.. فشدّ الرحال عائداً إلى بيروت؛ ليواصل تقديم دروسه في "الجامع الكبير"، و"جامع الباشورة" كما كان يسمر أكثر لياليه في دار الحاج "محيي الدين حمادة" رئيس بلدية بيروت.. فأقبل الناس على منتدى سمره ومجلس دروسه إقبالاً لم يعرف في هذا البلد لأحد من قبله.

وظل على هذا الحال إلى أن سعى أصدقاؤه ومنهم الأميرة "نازلي"، و"سعد زغلول" لدى اللورد "كرومر"، فصدر عفو الخديو عنه، وعاد إلى مصر ولكن بعد أن طلّق السياسة ثلاثاً، وكرّس حياته لإصلاح اللغة والدين..

وفي نهاية هذا المشوار الاغترابي والجهادي في حياة الشيخ "محمد

عبده" يطيب لى أن أشير إلى عبارة تنسب إليه وتتعلق برؤيته للغرب والشرق، وتكشف عن إعجابه بالقيّم التى تحكم سلوكيات البشر فى باريس، وتغيب عن سلوكيات الناس فى بلاد الشرق؛ إذ يروى أن الشيخ "محمد عبده" عندما هبط إلى ميناء الإسكندرية فى المرة التى زار فيها مصر متخفياً، شعر بالسعادة تغمره وهو يسمع الأذان ينطلق من مآذن المدينة، لكنه فى ذات الوقت أحس بالألم يعتصر قلبه عندما وقعت عيناه على حوادث سرقة، وخطف وهو يمشى بين الناس فى الشوارع والأسواق، فتذكر أيامه الباريسية، واستحضر إلى ذهنه واقعة أدهشته ذات يوم عندما شاهد الناس يشترون الصحف من مكان على ناصية الطريق، ويضعون بأنفسهم ثمنها دون أن يكون هناك بائع.. ويقال إن "محمد عبده" ظل يروى هذه الواقعة بإعجاب شديد لكل أصدقائه أشهر طوالاً..

وهناك على شاطئ الإسكندرية ينسب للشيخ "محمد عبده" عبارته الشهيرة: «كنت فى باريس فوجدت فيها مسلمين ولم أجد إسلاماً. وها أنذا اليوم فى مصر، أجد إسلاماً ولم أجد مسلمين».

والمعنى الذى يرمى إليه الشيخ "محمد عبده" هو أنه فى باريس وجد سلوكيات هى ذاتها التى يحث عليها الدين الإسلامى؛ لأنها لا تخلو من قيم الأمانة، والصدق، فكأن أصحابها مسلمون.. لكنه لم يجد إسلاماً بمعنى المساجد والمآذن.. إلخ. وفى مصر، وجد العكس تماماً، وجد الإسلام متمثلاً فى المساجد والمآذن، لكنه - بين الناس وعبر سلوكياتهم المخزية - لم يجد فيها أى أثر لخلق مسلمين!!

الفهرس

لهذا الكتاب قصة .... (٧)
* **زكي مبارك**: النصر أو الموت - في رحاب السوربون - الفرق بيننا يا طه - العقلية الجرمانية - صديقي.. هذا باريس - عاشق وهذه هي أسبابي - مع مرجريت - مع بيرم التونسي - العودة إلى القاهرة ومعاركها - الأستاذ على حق .... (١٧ - ٣٨)
* **محمد لطفي جمعة**: نزيل بفندق الغرباء - أسباب السقوط - المتمرد الصغير - أنشطة مختلفة - الجامعة لا تسمح - وصف باريس - عظماء في فندق روسو - نصيحة شاعر النيل - ثورة ضد قانون الصحافة..(٣٩ - ٥٣)
* **لويس عوض**: المعشوقة السمراء - المعشوقة الحمراء - ذكريات باريسية - حظر سياسي وانفراج أدبي - أدب البوتيكات ومسرح التسلية...(٥٥ - ٨١)
* **أحمد ضيف**: صراع الثقافات - أحزان باريسية في رواية مجهولة - مدينة الفن والجمال - بين طه حسين وأحمد ضيف ....(٨٣ - ٩٨)
* **محمد صبري السوربوني**: بين التاريخ والأدب - السوربوني بنبويا - عودته إلى أوروبا .... (٩٩ - ١١٢)
* **مصطفى كامل**: كفاح × كفاح - صورة وبيان - ياشيخ أحرار انجلترا.. مهلاً! - هل كانت عسلا مصفى - جوليت ادم وصداقة ممتدة - أفكار.. وأسرار - القول الأخير .... (١١٣ - ١٣٧)
* **سلامة موسى**: اللغة الفرنسية أولاً - أهرام من التفاح - المرأة التي أحبها - فرنسا في الشباب والشيخوخة - في المتحف ماذا نري؟ - سور أزبكية فرنسا .... (١٣٩ - ١٥٩)

* **أحمد شوقي**: الرحلة خارج مصر - بالهفتي على النيل - من شاعر خصوصي إلى المنفى - أثر المنفى في شوقي - عود حميد.. (١٦١ - ١٧٢)
* **الشيخ مصطفى عبد الرازق**: لحظة السفر.. لحظة الفراق - من دروس الحياة - محاورة الرقص.. والمدنية - بعيداً عن الجن والانس والملائكة - المصريون في ليون صنفان - رحلة ريفية هادئة - يارب.. يامنجي - هذه البحيرة من دموع العاشقين - يا أخي أنا مريض - وصف لندره .... (١٧٣ - ٢٠٤)
* **طلعت حرب**: عقل باريس - مصر.. وعقلها - حكاية اقبال هانم - البخت والحظ وهلمجرا .... (٢٠٥ - ٢٢٧)
* **عبد الرازق السنهوري**: يا حضرة العمدة - كان يهرب من المصريين - بروجرام الحزب - في البدء كان المؤتمر - لا ضرر من الجامعات الصغرى - الفرانكفونية تكسب - مصر أولاً - العرب والترك .... (٢٢٩ - ٢٥٥)
* **الشيخ محمد عبده**: النشاط السرى للعروة الوثقى - اللائحة التنظيمية - النظام المالي - أحكام عامة - النهضة من زاوية اسلامية - محمد عبده يتحدث - زيارة لمجلس العموم - أسباب التوقف عن الصدور - الاسم الحركي للامام .... (٢٥٧ - ٢٩٠)

رقم الايداع ١٠٩٥٦/ ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977-01-9677-0



إن القراءة كانت ولاتزال وسوف تبقى، سيدة مصادر المعرفة، ومبعث الإلهام والرؤية الواضحة ..

وعلى الرغم من ظهور مصادر حديثة للمعرفة، وبرغم جاذبيتها ومنافستها القوية للقراءة، فإنني مؤمنة بأن الكلمة المكتوبة تظل هى مفتاح التنمية البشرية، والأسلوب الأمثل للتعلُّم، فهى وعاء القيم وحافظة التراث، وحاملة المبادئ الكبرى فى تاريخ الجنس البشرى كله.

سوزان مبارك

مصريون عاشوا في باريس

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

الثمن ٢٠٠ قرشا